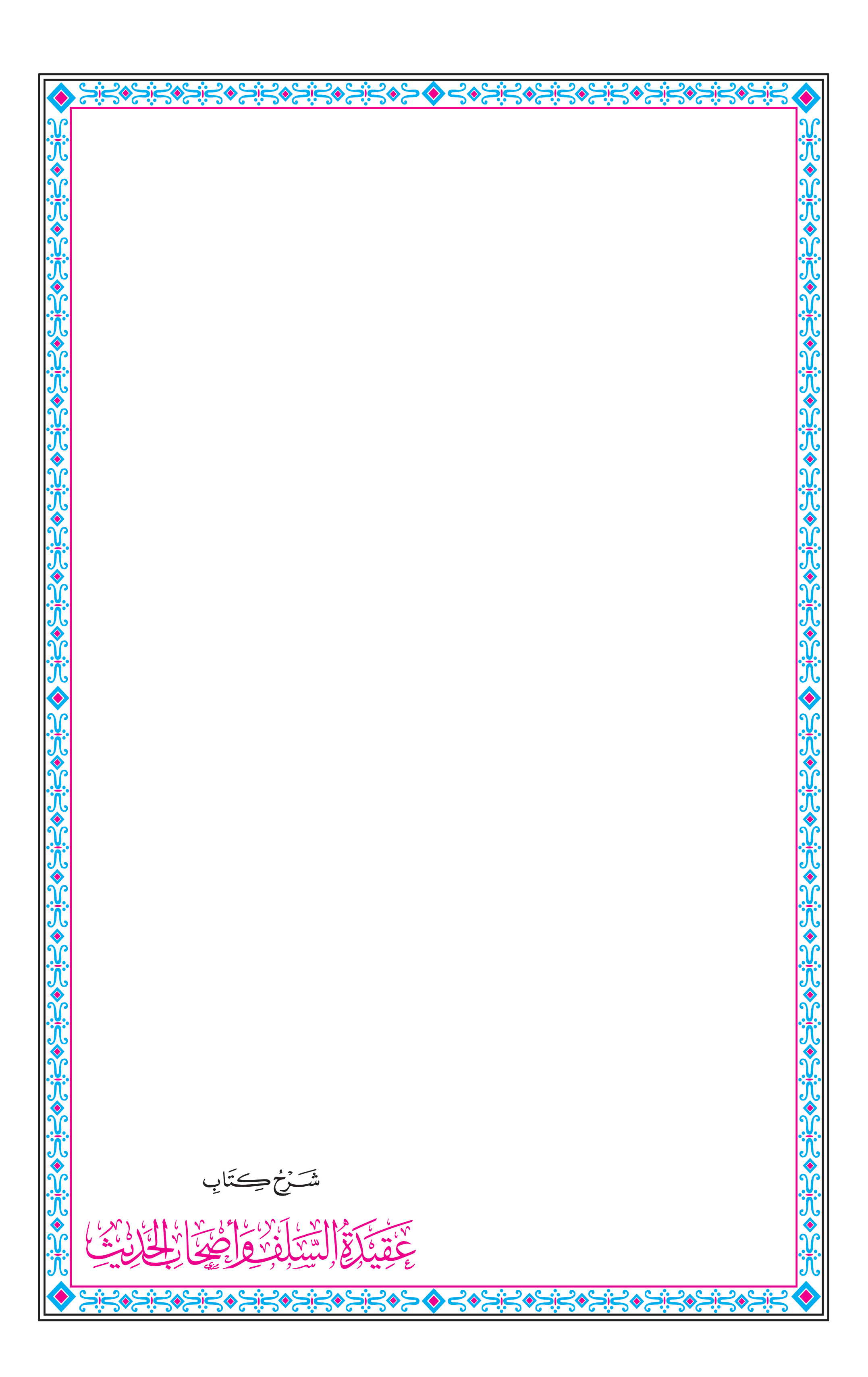

شرح كتاب
عقيدة السلف وأصحاب الحديث



دار ابن الجوزي
لِلنّشر والتّوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام-حي الريان-شارع عثمان بن عفان
ت: ٠١٣٨٤٢٨١٤٦-٠١٣٨٤٦٧٥٩٣
٠١٣٨٤١٢١٠٠
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمـز البريـد: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣

الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٠١٣٥٨٨٣١٢٢
جـدة - ت: ٠١٢٦٠١٠٠٦٣
جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:
بيروت- ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة- تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
ibnaljawzi.com

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤٣هـ
فهرست مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القاضى، أحمد عبد الرحمن
شرح عقيده السلف وأصحاب الحديث للصابوني / أحمد عبد الرحمن القاضي -ط١.. - الدمام، ١٤٤٣هـ.
٢٤٨ص؛١٧×٢٤ سم
ردمك: ٠-٥٢-٨٣٣٨-٦٠٣-٩٧٨
١- الحديث- دفع مطاعن أ. العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٤٣/٦٩٤٢هـ

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٦٩٤٢هـ
ردمك: ٠-٥٢-٨٣٣٨-٦٠٣-٩٧٨

الطّبعة الأولى
١٤٤٣هـ

الباركود الدولي: 9786038298244



شرح كتاب

عقيدة السلف وأصحاب الحديث

لِلإمامِ أبي عُثمانَ إسماعيلَ بنِ عبدِ الرّحمنِ الصّابوني رَحِمَهُ اللهُ

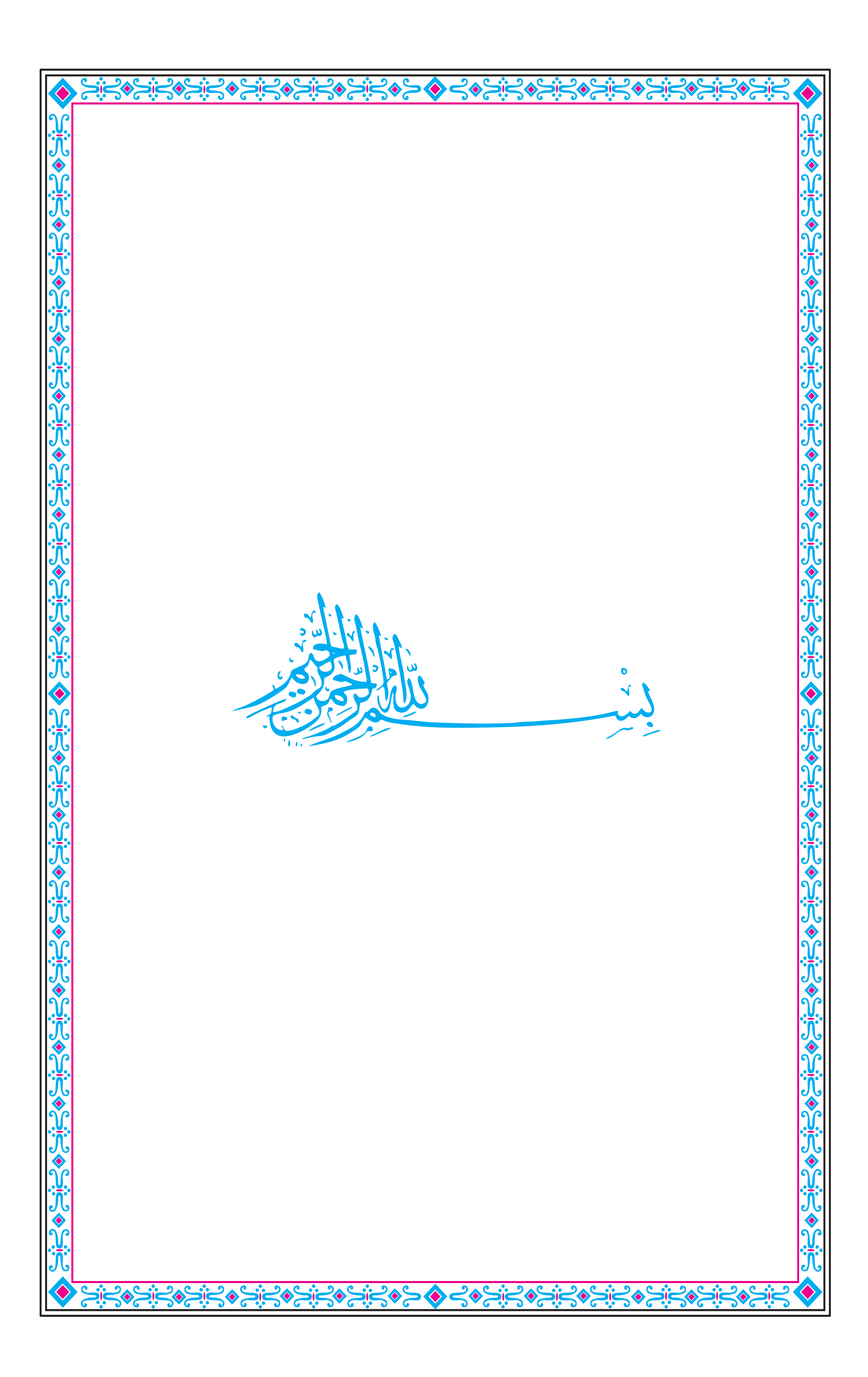
(٣٧٣ - ٤٤٩ هـ)

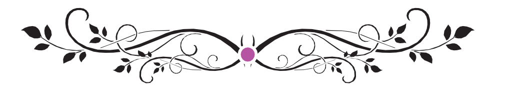
تأليف

أ. د. أحمد بن عبد الرّحمن بن عثمان القاضي

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة القصيم سابقًا

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله الله ﷻ بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، فصلوات ربي وسلامه عليه، وعلى من اهتدى بهديه، واستن بسنته إلى يوم الدين، **أما بعد:**

فإن كتاب «**عقيدة السلف وأصحاب الحديث**»[(١)] من أحسن الكتب المصنفة في حكاية مذهب السلف. وقد استوعب جملة من العقائد في مختلف أصول الملة، وأقام عليها الدليل من الكتاب والسنة، وأقوال سلف الأمة، بعبارات جزلة واضحة، ونفَسٍ سلفي نقي، فكان كاسم مصنفه «صابونًا» للقلوب، يجلو عنها لوثات أهل الأهواء والبدع، ويدعها بيضاء ناصعة نقية.

وقد كان لمحنة القول بخلق القرآن التي جثمت على صدر الأمة، وابتلي بسببها الأئمة، خلال الفترة الممتدة من سنة مائتين وثمانية عشر، آخر خلافة المأمون العباسي، حتى خلافة المتوكل سنة مائتين واثنتين وثلاثين، أثر كبير في نشاط أهل السنة في تدوين مسائل السنة والاعتقاد، والرد على الجهمية والمعتزلة، فكثرت المصنفات المسندة في هذا الباب، حتى فاقت مائة

(١) ويسمى أيضًا: (الرسالة في اعتقاد أهل السنة وأصحاب الحديث والأئمة). وقد حققه جمع من الباحثين، منهم: د. ناصر بن عبد الرحمن الجديع، وبدر بن عبد الله البدر، ونبيل بن سابق السبكي. جزاهم الله خيرًا.

وعشرين مصنفًا قبل انقضاء القرن الثالث[١].

كما شهد القرن الثالث الهجري ظهور اتجاه «الصفاتية» الذين ينمون أنفسهم إلى السلف، ويناوئون المعتزلة والجهمية، ويتذرعون ببعض الطرق الكلامية لمقارعة الحجج العقلية للمعتزلة، مما أفرز طريقة هجينة، ليست على السنة المحضة التي التزم بها الأئمة، رغم سلامة مقاصدهم، وعنايتهم بالرواية والآثار، واشتغالهم بعلوم أهل الإسلام، رحمهم الله. ومن أوائلهم: عبد الله بن سعيد بن كلاب (ت: ٢٤٣)، والحارث بن أسد المحاسبي (ت: ٢٤٣)، وأبو العباس القلانسي، وأبو الحسن الأشعري (ت: ٣٢٤)، وأبو حاتم البستي (ت: ٣٥٤)، ومحمد بن الحسن بن فُورك (ت: ٤٠٦)، وغيرهم، رحمهم الله.

ورغم أن أبا عثمان الصابوني شهد تلك الفترة، وربما تتلمذ على بعض أعيانها، غير أنه لم يتأثر بطريقتهم؛ بل لزم طريقة السلف، بالاعتصام بالآثار، والتحذير من علم بالكلام. كما جاء في الأثر: **(يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ؛ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ)**[٢].

ومما يدل على تحرزه من مسالك الصفاتية المتكلمين، ما ذكره بعد نقل استحسنه لعلي بن محمد بن مهدي الطبري، تلميذ أبي الحسن الأشعري، فعقب عليه بقوله: (وإنما ذكرت هذا الفصل بعينه من كتاب ابن مهدي لاستحساني ذلك منه، فإنه اتبع السلف من أصحاب الحديث فيما ذكره، مع تبحره في علم الكلام، وتصانيفه الكبيرة فيه وتقدمه، وتبرزه عند أهله).

نسأل الله أن يتبعنا آثارهم، ويلزمنا كلمة التقوى، ويجعلنا أحق بها وأهلها، وأن يجنبنا سبل الردى، وطرائق أهل الهوى. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

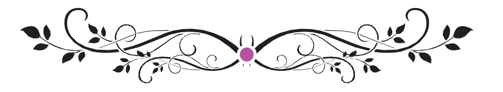
كتبه

أ. د. أحمد بن عبد الرحمٰن القاضي

---

(١) انظر مسردًا للكتب المصنفة في الاعتقاد مرتبةً تاريخيًّا في كتابي: المدخل إلى دراسة العقيدة الإسلامية (ص١٢٨).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى رقم (٢٠٩١١)، والإبانة الكبرى لابن بطة رقم (٣٣).



ترجمة المؤلف

اسمه ونسبه: هو الإمام القدوة المفسِّر المُذكِّر المحدِّث، شيخ الإسلام، أبو عثمان، إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن عابد بن عامر، الصابوني، نسبة إلى عمل بعض أسلافه الصابون، النيسابوري.

مولده ونشأته: ولد سنة ثلاث وسبعين وثلاث مائة، في «بوشنج» من نواحي «هراة». ونشأ في صيانة وديانة، في بيت علم ودين. وكان والده من كبار الواعظين، وقد قتل والده سنة ثنتين وثمانين، وهو ابن تسع سنين.

شيوخه: تتلمذ على جم غفير من علماء زمانه، من أبرزهم:

- الحاكم، أبو عبد الله الحافظ النيسابوري، صاحب «المستدرك على الصحيحين».

- أبو طاهر، محمد بن الفضل ابن إمام الأئمة، محمد بن إسحاق بن خزيمة.

- أبو محمد، الحسن بن أحمد بن محمد المخلدي، الشيباني، محدث نيسابور.

وقد روى عن هؤلاء الثلاثة، وغيرهم، في كتابه هذا، جملة صالحة من الآثار.

تلاميذه: تتلمذ عليه خلق كثير من أقرانه وأهل زمانه، من أبرزهم:

- أبو بكر، أحمد بن الحسين البيهقي، صاحب التصانيف السيارة.

- أبو القاسم، علي بن محمد بن علي السلمي.

- أبو محمد، عبد العزيز بن أحمد بن أحمد التميمي، الكتاني.

ثناء العلماء عليه: تتابع أهل العلم الكبار على الثناء عليه بأجمل العبارات، فمن ذلك:

ـ قال أبو بكر البيهقي: (إِنَّه إِمَام الْمُسلمين حَقًّا، وَشَيخ الْإِسْلَام صدقًا، وَأهل عصره كلهم مذعنون لعلو شَأْنه فِي الدّين والسيادة وَحسن الِاعْتِقَاد وَكَثْرَة الْعلم وَلُزُوم طَريقَة السّلف)(١).

ـ وقال أبو عبد الله المالكي: (أَبُو عُثْمَان الصَّابُونِي مِمَّن شهِدت لَهُ أَعْيَان الرِّجَال بالكمال فِي الْحِفْظ وَالتَّفْسِير وَغَيرهمَا)(٢).

ـ ونقل الذهبي عن عبد الغَافِر الفارسي: (الأُسْتَاذُ أَبُو عُثْمَانَ إِسْمَاعِيْلُ الصَّابُوْنِيّ شَيْخُ الإِسْلاَمِ، المُفَسِّرُ المُحَدِّث، الوَاعِظ، أَوحدُ وَقته فِي طرِيقه، وَعَظَ المُسْلِمِينَ سبعينَ سَنَةً، وَخَطَبَ وَصَلَّى فِي الجَامِع نَحْوًا مِنْ عِشْرِيْنَ سَنَةً، وَكَانَ حَافِظًا، كَثِيْرَ السَّمَاع وَالتَّصَانِيْف، حرِيصًا عَلَى العِلْم، سَمِعَ بِنَيْسَابُوْرَ وَهرَاةَ وَسَرْخَس وَالحِجَازِ وَالشَّامِ وَالجِبَالِ، وَحَدَّثَ بِخُرَاسَانَ وَالهِنْد وَجُرْجَان وَالشَّام وَالثُّغُوْرِ وَالحِجَازِ وَالقدس، وَرُزِقَ العِزَّ وَالجَاهَ فِي الدِّين وَالدُّنْيَا، وَكَانَ جَمَالًا لِلبلد، مقبولًا عَنِ المُوَافِق وَالمُخَالف، مجمعٌ عَلَى أَنَّهُ عديمُ النّظير، وَسيفُ السُّنَّةِ، وَدَامغُ البِدعَة، وَكَانَ أَبُوهُ الإِمَامُ أَبُو نَصْرٍ مِنْ كِبَارِ الوَاعِظين بِنَيْسَابُوْرَ، فَفُتِكَ بِهِ لأَجْلِ المَذْهَب، وَقُتِلَ، فَأُقْعِدَ ابْنُه هَذَا ابْنُ تِسْعِ سِنِيْنَ، فَأُقْعِدَ بِمَجْلِس الْوَعْظ، وَحضرهُ أَئِمَّةُ الوَقْت، وَأَخَذَ الإِمَامُ أَبُو الطَّيِّبِ الصُّعلوكِيُّ فِي تَرْتِيْبِهِ وَتهيئَةِ شَأْنِهِ، وَكَانَ يَحضُر مَجْلِسَهُ هُوَ وَالأُسْتَاذ أَبُو إِسْحَاقَ الإِسفرَايينِيّ، وَالأُسْتَاذ أَبُو بَكْرٍ بنُ فُورَك، وَيَعْجَبُوْنَ مِنْ كَمَال ذكَائِهِ، وَحُسْنِ إِيرَاده، حَتَّى صَارَ إِلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ، وَكَانَ مُشْتَغِلًا بكَثْرَةِ العِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ، حَتَّى كَانَ يُضْرَبُ بِهِ المَثَل)(٣).

مصنفاته: له مصنفات كثيرة، من أجلها هذا الكتاب: «عقيدة السلف وأصحاب الحديث»، قال عنه الذهبي: (له مصنف في السنة واعتقاد السلف،

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (٤/ ٢٨٣).
(٢) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (٤/ ٢٨٣).
(٣) سير أعلام النبلاء، ط الرسالة (١٨/ ٤١ ـ ٤٢).

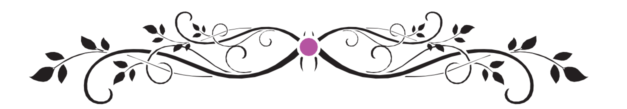
ما رآه منصف إلا واعترف له. قال معمر بن الفاخر: سمعت عبد الرشيد بن ناصر الواعظ بمكة، سمعت إسماعيل بن عبد الغافر، سمعت الإمام أبا المعالي الجويني يقول: كنت بمكة أتردد في المذاهب، فرأيت النبي ﷺ فقال لي: عليك باعتقاد ابن الصابوني)[(١)].

ومن مصنفاته رَحِمَهُ اللهُ: «الأربعون حديثًا»، و«الانتصار» وقد أحال إليه في موضعين من هذا الكتاب.

وفاته: قال عبد الغافر الفارسي: (حَكَى الثِّقَاتُ أَنَّ أَبَا عُثْمَانَ كَانَ يَعِظُ، فَدُفِعَ إِلَيْهِ كِتَابٌ وَردَ مِنْ بُخَارَى، مُشْتَمِلٌ عَلَى ذكرِ وَبَاءٍ عَظِيْم بِهَا، لِيَدْعُوَ لَهُم، وَوصف فِي الكِتَاب أَنَّ رَجُلًا أَعْطَى خَبَّازًا دِرْهَمًا، فَكَانَ يَزِنُ، وَالصَّانِعُ يَخْبِزُ، وَالمُشْتَرِي وَاقف، فَمَاتَ ثَلَاثتهُم فِي سَاعَة. فَلَمَّا قرَأَ الكِتَابَ هَالَهُ ذَلِكَ، وَاسْتقرَأَ مِنَ القَارِئ: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [النحل: ٤٥] الآيات، وَنظَائِرهَا، وَبَالَغَ فِي التّخويف وَالتَّحذِير، وَأَثَّرَ ذَلِكَ فِيْهِ وَتغَيَّرَ، وَغَلَبَهُ وَجعُ البَطنِ، وَأُنْزِلَ مِنَ المِنْبَرِ يَصيح مِنَ الوجعِ، فَحُمِلَ إِلَى حمَّامٍ، فَبَقِيَ إِلَى قَرِيْب المَغْرِب يَتقَلَّب ظَهْرًا لبَطْن، وَبَقِيَ أُسْبُوْعًا لَا ينفَعُهُ عِلَاج، فَأَوْصَى، وَودَّعَ أَوْلَادَهُ، وَمَاتَ، وَصُلِّيَ عَلَيْهِ عقيبَ عصرِ الجُمُعَة رَابع المحرَّم)[(٢)]. قال الحسين بن محمد الكتبي: توفي أبو عثمان في المحرم سنة تسع وأربعين وأربع مائة[(٣)].

❁ ❁ ❁

(١) سير أعلام النبلاء، ط الرسالة (١٨/ ٤٤).
(٢) سير أعلام النبلاء، ط الرسالة (١٨/ ٤٢).
(٣) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٢).



خطبة الكتاب

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞ (الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين).

۞ (أما بعد: فإني لما وردت آمد[١] طبرستان، وبلاد جيلان[٢]، متوجهًا إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبر نبيه محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الكرام، سألني إخواني في الدين أن أجمع لهم فصولًا في أصول الدين التي استمسك بها الذين مضوا من أئمة الدين، وعلماء المسلمين، والسلف الصالحين، وهدوا ودعوا الناس إليها في كل حين، ونهوا عما يضادها، وينافيها جملةَ المؤمنين المصدقين المتقين، ووالوا في اتباعها، وعادوا فيها، وبدَّعوا وكفروا من اعتقد غيرها،

(١) يظهر أنها تصحيف! والصواب: (آمل) وذلك أن «آمد» في ديار بكر، وليست على طريقه لمكة والمدينة، ولا تضاف آمد إلى طبرستان. قال ياقوت الحموي: (وهي أعظم مدن ديار بكر وأجلّها قدرًا وأشهرها ذكرًا)، معجم البلدان (١/ ٥٦). وقال: (آمل: بضم الميم واللام: اسم أكبر مدينة بطبرستان في السهل؛ لأن طبرستان سهل وجبل، . . . وقد خرج منها كثير من العلماء، لكنهم قلّ ما ينسبون إلى غير طبرستان، فيقال لهم: الطّبريّ، منهم: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ المشهور، أصله ومولده من آمل)، معجم البلدان (١/ ٥٧).

(٢) قال ياقوت: (جِيلانُ: بالكسر: اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان، . . . وليس في جيلان مدينة كبيرة إنما هي قرى في مروج بين جبال، ينسب إليها جيلانيّ وجيليّ، والعجم يقولون: كيلان، وقد فرق قوم فقيل: إذا نسب إلى البلاد، قيل: جيلانيّ، وإذا نسب إلى رجل منهم، قيل: جيليّ، وقد نسب إليها من لا يحصى من أهل العلم في كل فنّ، وعلى الخصوص في الفقه)، معجم البلدان (٢/ ٢٠١).

وأحرزوا لأنفسهم، ولمن دعوهم إليها بركتها وخيرها، وأفضوا إلى ما قدموه من ثواب اعتقادهم لها، واستمساكهم بها، وإرشاد العباد إليها، وحملهم إياهم عليها. فاستخرت الله تعالى، وأثبت في هذا الجزء ما تيسر منها على سبيل الاختصار، رجاء أن ينتفع به أولو الألباب والأبصار. والله سبحانه يحقق الظن، ويجزل علينا المن، بالتوفيق والاستقامة على سبيل الرشد والحق، بمنه وفضله).

الشَّرْح

هذه خطبة الكتاب، ضمنها المصنف سبب تأليفه، وبيانَ مضمونه:

سبب تأليف الكتاب:

إجابةً لسؤال بعض إخوانه في الدين، أثناء سفره إلى بيت الله الحرام، وزيارة مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام، في بلاد «آمل طبرستان». وهي مدينة مشهورة في بلاد طبرستان. وطبرستان: اسم يشمل بلادًا واسعة كثيرة، تقع في إيران حاليًّا، جنوب بحر قزوين، وشمال جبال البُرز. ومن أعيانها: آمل، وجرجان، واستراباذ. وهذه البلاد مجاورة لجِيلان. وكان منزله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «هراة»، وهي مدينة معروفة اليوم في أفغانستان. فطلبوا منه أن يجمع لهم فصولًا في أصول الدين؛ أي: أمهات العقائد.

قوله: (وزيارة قبر نبيه محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الكرام):
ينبغي أن نحمل هذا على نية زيارة القبر الشريف إذا حصل بمدينة رسول الله ﷺ، لا قبل ذلك؛ لأن النبي ﷺ قد قال بلفظ صحيح صريح: «**لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى**»[1]، فإذا حصل الإنسان في مدينة رسول الله ﷺ، شرع له زيارة قبر نبيه ﷺ، كما يشرع له زيارة قبور شهداء أحد، وأهل البقيع.

(١) أخرجه البخاري رقم (١١٨٨)، ومسلم رقم (١٣٩٧).

مضمون الكتاب:

ذكر فصولٍ في أصول الدين، تجمع الأوصاف التالية:

الأول: تمسك الماضين من أئمة الدين بها، فلا تدخلها الأمور المحدثة.

الثاني: كونهم هدوا ودعوا الناس إليها، بعد أن وفقوا إليها.

الثالث: نهيهم عما يضادها وينافيها.

الرابع: موالاتهم من اتبعها.

الخامس: معاداتهم من خالفها.

السادس: تبديعهم وتكفيرهم من اعتقد غيرها.

السابع: إحرازهم لأنفسهم ولمن دعوهم بركتها.

الثامن: تمسكهم بها إلى الممات، لم يحيدوا عنها.

قوله: (**فاستخرت الله تعالى، وأثبت في هذا الجزء ما تيسر منها على سبيل الاختصار**): ينبغي لكل مؤمن أن يستخير ربه في كل أمر ذي بال. قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «**إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي** ـ أَوْ قَالَ: **عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ ـ فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي** ـ أَوْ قَالَ: **فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ ـ فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي**»، قَالَ: «**وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ**»(١)، وما ندم من استخار الخالق، وشاور المخلوقين، وتثبت في أمره.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٣٩٠).

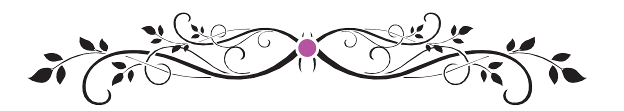
والاعتقاد لغةً: مأخوذ من عقد الحبل، وهو: شده، وربطه، وحزمه.

واصطلاحًا: حكم الذهن الجازم المتعلق بأصول الإيمان. فيجب أن يكون لدى الإنسان عقيدة جازمة حازمة لا تردد فيها، فإن الإنسان إذا وضع في قبره أتاه ملكان، فسألاه ثلاثة أسئلة: «**فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ** ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾»[1]، وفي رواية: «**فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟**» قَالَ: «**فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ**» فهذا حال المؤمن، قَالَ: «**وَإِنَّ الْكَافِرَ يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ**»[2]، قد كان يسمع العلم؛ لكن منتهاه طبلة أذنه، ولا يصل إلى جذور قلبه، فلما طلبه في وقت الحاجة تبخر واضمحل؛ لأنه لم يتمكن من قلبه. فعليك يا عبد الله أن تكون على بينة من أمرك، وأن تعرف علامَ تحيا، وعلامَ تموت؟ وأن تعقد العقد الصحيح الذي يثبتك وينجيك.



(١) أخرجه مسلم رقم (٢٨٧١).

(٢) أخرجه أبو داود رقم (٤٧٥٣).



أصل الاعتقاد

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(قلت، وبالله التوفيق: أصحاب الحديث، حفظ الله تعالى أحياءهم، ورحم أمواتهم، يشهدون لله تعالى بالوحدانية، وللرسول ﷺ بالرسالة والنبوة).

الشَّرْح

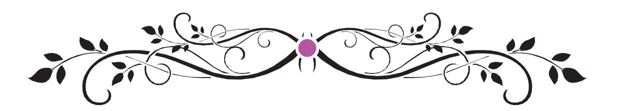
ابتدأ رَحِمَهُ اللَّهُ بأعظم مسائل الدين، وأول واجب على المكلفين، وهما الشهادتان:

١ ـ الشهادة لله تعالى بالوحدانية: كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨]، فتلك أعظم شهادة من أعظم شاهد، بأعظم مشهود به. وهي شهادة «ألا إله إلا الله». ومعناها: الاعتقاد الجازم أنه لا معبود بحق إلا الله. لأن كلمة (إله): فعال بمعنى مفعول؛ أي: مألوه، والمألوه: هو الذي تألهه القلوب محبةً وتعظيمًا. والتأله: من الوله، وهو الانجذاب والتعلق. وذلك يقتضي إفراد الله بالعبادة محبةً وخوفًا ورجاءً، وصلاةً ونسكًا، وعدم صرف شيءٍ منها لغيره.

٢ ـ الشهادة للرسول ﷺ بالرسالة والنبوة: قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وهي «شهادة أن محمدًا رسول الله»، ومعناها: الاعتقاد الجازم بأن محمدًا بن عبد الله، نبيٌّ مرسل من

عند الله، فيقتضي ذلك: تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتنابه ما عنه نهى وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع. فلا يكفي مجرد التصديق؛ بل لا بد من اتباع.





الإيمان بأسماء الله وصفاته

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(ويعرفون ربهم ﷻ بصفاته التي نطق بها وحيه وتنزيله، أو شهد له بها رسوله ﷺ، على ما وردت الأخبار الصحاح به، ونقلته العدول الثقات عنه، ويثبتون له جل جلاله ما أثبت لنفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، ولا يعتقدون تشبيهًا لصفاته بصفات خلقه).

الشَّرح

هذا تفصيل بعد إجمال؛ فإن توحيد الله تعالى نوعان:

أحدهما: توحيد في المعرفة والإثبات: وهو التوحيد العلمي الخبري، الذي يشمل توحيد الله بأفعاله من الخلق والرزق والتدبير؛ وهو توحيد الربوبية، وتوحيد الله بأسمائه وصفاته، وهو اعتقاد «المثل الأعلى» له؛ كما دلت عليه سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

الثاني: توحيد في القصد والطلب: وهو التوحيد العملي الإرادي، وهو توحيد العبادة بأفعال العباد بكل ما يحبه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة؛ كما دلت عليه سورة الكافرون: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾، وفي الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[1].

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٩٨٥).

فبين المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أن أصحاب الحديث يعرفون ربهم من مصدرين وحيدين موثوقين، لا ثالث لهما:

أحدهما: الكتاب: الذي هو وحيه وتنزيله: فقد عرّف سبحانه نفسه بأسماء الكمال، ونعوت الجلال، في مواضع عدة من كتابه:

- سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن؛ فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟**»، قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: «**﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»[1].

- آية الكرسي، التي هي أعظم آية في كتاب الله؛ فعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «**وَاللهِ، لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**»[2].

- آخر سورة الحشر ذكر جملةً من أسماء الله الحسنى.

- في آخر سورة الحج سبع آيات متتالية، كل آية مختومة بذكر اسمين من أسماء الله الحسنى.

الثاني: السنة الصحيحة: فإن نبيه ﷺ عرف أمته بأسماء ربه الحسنى، وصفاته العلى، في أحاديث شتى، مبثوثة في الصحاح والسنن والمسانيد، ستأتي منها جملة صالحة في هذا الكتاب.

قوله: (على ما وردت الأخبار الصحاح به، ونقلته العدول الثقات عنه):

قيد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا المصدر بصحة الخبر. وقد عرَّف أهل المصطلح الحديثَ الصحيح بأنه: ما رواه عدل، تام الضبط، بسند متصل، وسلم من الشذوذ، والعلة القادحة. فإذا تحققت هذه الشروط، لزم قبول الخبر، وتصديقه، والعمل به، سواءٌ كان متواترًا أو آحادًا. وألحق العلماء الحديثَ

(١) أخرجه مسلم رقم (٨١١).

(٢) أخرجه مسلم رقم (٨١٠).

الحسن، وهو ما اختل فيه تمام الضبط، إلى نوع خِفَّة، بالحديث الصحيح.

ولا أصل لما يدعيه المتكلمون من عدم الاحتجاج بأحاديث الآحاد في مسائل الاعتقاد! فهذا زعم باطل مخالف لطريقة السلف قاطبة، أرادوا به رد الأحاديث الصحيحة، التي لا تتفق مع مقدماتهم الفاسدة.

فالإيمان بالأسماء والصفات: هو إثبات ما أثبت الرب لنفسه في كتابه، وما أثبته له نبيه ﷺ في سنته، من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وتنزيهه سبحانه عما نزه نفسه عنه في كتابه، وما نزهه عنه نبيه ﷺ في سنته، من النقص والعيب ومماثلة المخلوقين.

قوله: (ولا يعتقدون تشبيهًا لصفاته بصفات خلقه): بين المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن إثبات الأسماء والصفات إثبات بلا تمثيل؛ أي: إثبات لفظٍ ذي معنى عام كلِّي مشترك في الأذهان، يتخصص في الأعيان، فلا يماثل أوصاف المخلوقين، وإن اتفقت الألفاظ؛ كما قال سبحانه وبحمده: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، فسمى نفسه سميعًا بصيرًا، ذا سمع وبصر، كما سمى المخلوق سميعًا بصيرًا، ذا سمع وبصر، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ٢]، لكن سمعه وبصره المضافَيْن إليه يليقان به، وسمع المخلوق وبصره المضافيْن إليه يليقان به.

والمراد بالتشبيه: التمثيل، وهو التعبير القرآني. والتمثيل ممتنع عقلًا؛ لاستحالة أن يكون المخلوق الناقص من جميع الوجوه كالخالق الكامل من جميع الوجوه، ومحرم شرعًا لصراحة النصوص في رده وإبطاله؛ كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]، وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤].

فالواجب أن نثبت إثباتًا بلا تمثيل، وأن ننزه الله تعالى تنزيهًا بلا تعطيل.





إثبات اليدين وبيان طريقة السلف في باب الصفات

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(فيقولون: إنه خلق آدم بيده، كما نص سبحانه عليه في قوله ـ عز من قائل ـ: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥]، ولا يحرفون الكلام عن مواضعه بحمل اليدين على النعمتين، أو القوتين، تحريف المعتزلة الجهمية، أهلكهم الله، ولا يكيفونهما بكيف أو يشبهونهما بأيدي المخلوقين، تشبيه المشبهة، خذلهم الله، وقد أعاذ الله تعالى أهل السنة من التحريف والتشبيه والتكييف، ومن عليهم بالتعريف والتفهيم، حتى سلكوا سبيل التوحيد والتنزيه، وتركوا القول بالتعطيل والتشبيه، واتبعوا قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: ١١]).

الشَّرْح

مثَّل المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ لطريقة السلف وأهل الحديث في التعامل مع نصوص الصفات، بإثبات صفة اليدين على وجه الحقيقة، دون تمثيل ولا تأويل، وسيعود إليها بمزيد تفصيل.

وقد تضمنت هذه القطعة ذكر جملةٍ من المحترزات:

١ ـ **التعطيل**: وهو لغةً: الإخلاء والتفريغ، مأخوذ من العطل وهو الخلو؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ﴾ [الحج: ٤٥]؛ أي: لا ماء فيها، وتقول العرب: امرأة مِعطال، إذا استغنت بجمالها عن الحلي. قال المتنبي:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى   فالسيل حرب للمكان العالي

واصطلاحًا: نفي أو إنكار أو جحد ما أثبت الله لنفسه، أو أثبته له نبيه من الأسماء والصفات. وهو نوعان:

ـ تعطيل كلي: وتندرج تحته فرق شتى، مراتبهم حسب تعطيلهم كالتالي:

ـ غلاة الغلاة: وهم القرامطة القائلون بنفي النقيضين! فينفون النفي والإثبات؛ يقولون: ليس بحي، ولا ميت، ولا عالم ولا جاهل.

ـ الغلاة: وهم الجهمية النافون للأسماء والصفات، الزاعمون أنه الوجود المطلق بشرط الإطلاق. ونسبتهم إلى الجهم بن صفوان السمرقندي، المقتول سنة ١٢٨هـ.

ـ المعتزلة: الذين أثبتوا الأسماء ونفوا الصفات، فجعلوا الأسماء أعلامًا محضة.

ـ تعطيل جزئي: وهو ما وقع فيه «الصفاتية»، حيث أثبتوا الصفات المعنوية، وحرَّفوا الصفات الفعلية والخبرية. فالأصل فيهم الإثبات، لكن أعضلت عليهم شبهات الجهمية والمعتزلة، ولم يفقهوا مذهب السلف، فجاء مذهبهم ملفقًا.

٢ ـ **التحريف**: وهو لغةً: التغيير. واصطلاحًا: تغيير النص عن مواضعه لفظًا أو معنى. فالتحريف نوعان:

ـ تحريف لفظي: بزيادة حرف؛ كقولهم: استوى: استولى، أو بزيادة كلمة؛ كقولهم في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]: وجاء أمر ربك، أو بتغيير الشكل؛ كنصب لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤]؛ ليكون الله مكلَّمًا لا متكلمًا، بزعمهم.

ـ تحريف معنوي: بتغيير المعنى، وصرفه عن ظاهره، دون التعرض للفظ؛ كزعمهم هاهنا أن المراد باليدين: النعمتين، أو القوتين، كما فعل الجهمية والمعتزلة، ومن وافقهم من الصفاتية؛ كالأشاعرة والماتريدية.

والتحريف والتعطيل غلو في التنزيه، والفرق بينهما أن التحريف تعطيل وزيادة. فإن المعطل نفى المعنى المراد وسكت. والمحرف رد المعنى المراد،

واستبدله بمعنى غير مراد، اقترحه من تلقاء نفسه بلا دليل. فكل محرف معطل ولا عكس.

٢ ـ **التشبيه:** وهو إثبات شبيه لله. والتعبير القرآني هو: **التمثيل:** وهو إثبات مماثل لله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. ومن حيث الوضع، فإن التمثيل: مطابقة من جميع الوجوه، والتشبيه: مطابقة من معظم الوجوه.

٣ ـ **التكييف:** وهو حكاية كيفية الصفة؛ كقول القائل: كيفية استواء الله على عرشه كاستواء المخلوق على كرسيه.

والتمثيل والتكييف غلو في الإثبات، والفرق بينهما من وجهين:

ـ أن التمثيل يتعلق بالذات والقدر والصفة، والتكييف يتعلق بالصفة فقط. فيكون التمثيل أعم بهذا الاعتبار؛ فكل مكيف فهو ممثل.

ـ أن التمثيل مقيد بالمماثل، والتكييف حكاية لكيفية الصفة مقيدة كانت بمعين أو مطلقة. فيكون التكييف أعم بهذا الاعتبار؛ فكل ممثل فهو مكيف، ولا عكس.

وكلًّا من التكييف والتمثيل، محرم شرعًا، وممتنع عقلًا، فقد قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، وقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]، ولا يمكن أن يكون الخالق الكامل من جميع الوجوه، كالمخلوق الناقص من جميع الوجوه؛ قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧]، ولا يمكن لعقولنا القاصرة أن تحيط علمًا بصفات الله، وكيفياتها.

وكما برَّأ المصنف رحمه الله أهل الحديث من هذه المزالق الأربعة: التعطيل والتحريف، والتمثيل والتكييف، فقد وصفهم بأربعة أوصاف حسنة جميلة:

١ ـ **التعريف:** وهو معرفة الرب بمقتضى أسمائه وصفاته. وهو ضد التجهيل الذي ينتحله من يسمون أنفسهم «أهل التفويض»، وهم في الحقيقة

«أهل التجهيل»؛ فيزعمون أن معاني ما أخبر الله به عن نفسه، أو أخبر عنه نبيه ﷺ مجهولة المعنى، لا يعلمها إلا الله. ولم يفرقوا بين تفويض المعنى وتفويض الكيفية، وعطلوا أشرف أبواب الدين، وهو باب العلم بالله العظيم. فكل صفة من صفات الله يتعلق بها ثلاثة أشياء: لفظ، ومعنى، وكيفية، فالواجب إثبات اللفظ والمعنى، وتفويض الكيفية إلى الله ﷻ. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد حكاية مذهبهم: (فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون للسنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد)[(١)].

٢ ـ التفهيم: قال ابن فارس: (الفاء والهاء والميم: علم الشيء)[(٢)]، فأهل الحديث يعتنون بفهم مراد الله، ومراد رسوله، وليسوا بمنزلة الأميين الذين قال الله عنهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]. قال السعدي: (أي: عوام، وليسوا من أهل العلم... ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط، وليس عندهم خبر بما عند الأولين الذين يعلمون حق المعرفة حالهم)[(٣)]. فأهل الحديث على بينة من ربهم، يفقهون مراد الله، وليسوا مجرد حملة أسفار.

٣ ـ التوحيد: وقد تقدم بيانه. والتوحيد من حيث الوضع: جعل الشيء واحدًا، والمراد به في حق الله: اعتقاد الله واحدًا؛ في ذاته، وأسمائه، وصفاته. والمراد به في هذا السياق: توحيده سبحانه بصفات الكمال، ونعوت الجلال، فلا يشاركه أحدٌ شيئًا من خصائصه، وإن اتفقت الأسماء. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]؛ أي: الوصف الأكمل الأتم.

٤ ـ التنزيه: قال ابن فارس: (النون والزاء والهاء: كلمة تدل على بعد في مكان وغيره)[(٤)]. والمقصود به في حق الله: الابتعاد عن اعتقاد النقص والعيب ومماثلة المخلوقين في كل ما أضيف إليه من الصفات.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠٥).
(٢) معجم مقاييس اللغة (٨٠٠).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٦).
(٤) معجم مقاييس اللغة (٩٨٦).

فقوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ رد على أهل التمثيل والتكييف.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: ١١] رد على أهل التحريف والتعطيل.

فالممثل يعبد صنمًا: لأنه رسم في مخيلته صورة لمعبوده، خلع عليها صفات المخلوقين، وسمات المحدثين، فهو في الحقيقة ما عبد الله، وإنما عبد خيالًا اصطنعه بنفسه، والله ليس كمثله شيء. فكل ما خطر ببالك، فالله ليس كذلك.

والمعطل يعبد عدمًا: لأنه نفى عن الله تعالى ما أضافه إلى نفسه، فلم يجعل لله صفة ثبوتية، ومآل ذلك أن يكون إلهه فكرة في الأذهان لا وجود لها في الأعيان.

فالواجب إثبات ما أثبت الرب لنفسه في كتابه، أو أثبته له نبيه ﷺ في سنته، والبراءة من التمثيل والتكييف، ومن التحريف والتعطيل، ولزوم سبيل التوحيد والتنزيه، والتعريف والتفهيم.



قال المؤلف رحمه الله تعالى:

(وكما ورد القرآن بذكر اليدين بقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وردت الأخبار الصحاح عن رسول الله ﷺ بذكر اليد؛ كخبر محاجة موسى وآدم، وقوله له: «**خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَك مَلَائِكَتَهُ**»[(١)]، ومثل قوله ﷺ: «**لَا أَجْعَلُ صَالِحَ ذُرِّيَّةِ مَنْ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ كَمَنْ قلتُ لَهُ: كُنْ فَكَانَ**»[(٢)]، وقوله ﷺ: «**خلق الله الفردوس بيده**»[(٣)].

الشَّرح

يعتقد أهل الحديث أن لله تعالى يدين كريمتين مبسوطتين بالعطاء والنعم، لا تشبهان أيدي المخلوقين، موصوفتين بالأخذ والطي، والقبض والبسط، يعبر عنهما بالكف واليمين والأصابع. وقد دل على حقيقة ذلك:

١ ـ **الكتاب:** كقوله تعالى لإبليس: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وقوله ردًّا على اليهود: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

٢ ـ **السنة:** فقد ورد لفظ اليدين في أحاديث صحيحة وحسنة؛ فمن ذلك:

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٤٧٦)، ومسلم رقم (٢٦٥٢).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٤٥٨٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٤٦)، وإسناده ضعيف؛ فيه جهالة وانقطاع.

(٣) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات بلفظ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ خَلَقَ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ بِيَدِهِ: خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَكَتَبَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ، وَغَرَسَ الْفِرْدَوْسَ بِيَدِهِ**»، رقم (٦٩٢)، والدارقطني في الصفات (٤٥)، وأعل بالإرسال، وضعف بعض رواته.

ـ حديث محاجة آدم وموسى، واقتصر المصنف على موضع الشاهد منه حيث قال موسى لآدم: «**خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ**».

ـ قوله ﷺ: «**يَدُ اللهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»، وَقَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ**»(١)؛ يعني: لم ينقص ما في يمينه.

ـ قوله ﷺ: «**يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ**»(٢).

ـ حديث: «**لَا أَجْعَلُ صَالِحَ ذُرِّيَّةِ مَنْ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ كَمَنْ قلتُ لَهُ: كُنْ فَكَانَ**».

ـ حديث: «**وخلق الله الفردوس بيده**». وقد تقدم بيان حال الحديثين الأخيرين.

٣ ـ الإجماع: انعقد إجماع أهل السنة والجماعة على إثبات صفة اليدين لله تعالى، ولم ينقل عن أحد من السلف تفسيرها بخلاف ظاهرها اللائق بالله تعالى.

وقد أنكر أهل البدع من المعتزلة ومن وافقهم من الصفاتية إثبات يدين حقيقيتين، وحملوهما على معنى مجازي هو النعمة أو القدرة! وسمى المصنف صنيعهم تحريفًا، ودعا عليهم بالهلاك. والأدلة على بطلان مسلكهم متعددة:

أحدها: أن ذلك صرف للكلام عن حقيقته إلى مجازه بلا دليل يوجب ذلك.

الثاني: أنهما وردتا بصيغة التثنية، مما يؤكد إرادة الحقيقة، ويمنع إرادة المجاز؛ فنعم الله تعالى لا تنحصر بنعمتين، وقدرته تعالى واحدة لا تتعدد.

الثالث: أن النصوص وردت بإضافة تصرفات لا تضاف إلا إلى اليد الحقيقية؛ كالقبض والبسط والطي والأخذ، والتعبير بأسماء من أسماء اليد

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٤١١)، ومسلم رقم (٩٩٣).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٤٨١٢)، ومسلم رقم (٢٧٨٧).

الحقيقية؛ كالكف واليمين والأصابع. ويمتنع إضافة ذلك إلى النعمة أو القدرة.

الرابع: أنه يلزم على تحريفها إلى القدرة لوازم فاسدة، لا انفكاك للمحرفين عنها:

- لو كانت اليد بمعنى القدرة لما كان هناك فرق بين خلق آدم وخلق بقية الكائنات، ولما كانت كرامة له ولبنيه.

- لو كانت اليد بمعنى القدرة لقال إبليس: وأنا يا رب خلقتني بقدرتك، حين قال له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

❁ ❁ ❁



قال المؤلف رحمه الله تعالى:

ﷺ (وكذلك يقولون في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن، ووردت بها الأخبار الصحاح؛ من السمع، والبصر، والعين، والوجه، والعلم، والقوة، والقدرة، والعزة، والعظمة، والإرادة، والمشيئة، والقول، والكلام، والرضا، والسخط، والحب، والبغض، والفرح، والضحك، وغيرها؛ من غير تشبيه لشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين؛ بل ينتهون فيها إلى ما قاله الله تعالى، وقاله رسوله ﷺ؛ من غير زيادة عليه، ولا إضافة إليه، ولا تكييف له، ولا تشبيه، ولا تحريف ولا تبديل، ولا تغيير، ولا إزالة للفظ الخبر عما تعرفه العرب، وتضعه عليه؛ بتأويل منكر يستنكر، ويجرونه على الظاهر، ويكلون علمه إلى الله تعالى، ويقرون بأن تأويله لا يعلمه إلا الله، كما أخبر الله عن الراسخين في العلم أنهم يقولونه، في قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾).

الشَّرح

لما قرر رَحِمَهُ ٱللَّهُ طريقة أهل الحديث في صفة اليدين، بَيَّن أن هذا منهج مطرد في جميع صفات الله، لا يختلف من صفة إلى صفة، ولا يختل كما يختل عند أهل الأهواء والبدع، وإنما هو الإثبات والإقرار والإمرار، وعدم التعرض لها بأي نوع من أنواع التجني؛ من تحريف، أو تعطيل، أو تكييف، أو تمثيل، أو إضافة، أو زيادة، أو نقصان، أو غير ذلك. وقد ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ نحو عشرين صفة؛ بعضها صفات معنوية، وبعضها صفات خبرية، وبعضها صفات فعلية. وذلك أن صفات الله تنقسم إلى أقسام:

القسم الأول: الصفات الذاتية: وهي الملازمة لذاته؛ كحياته، وسمعه،

وبصره، وعلمه، وقدرته، وحكمته، فهذه صفات لا تنفك عنه سبحانه وبحمده.

القسم الثاني: الصفات الفعلية: وهي المتعلقة بمشيئته وحكمته؛ أي: أنه يفعلها متى شاء كيف شاء، بما تقتضيه حكمته؛ كالاستواء، والنزول، والمجيء، والفرح، والضحك.

القسم الثالث: الصفات الخبرية: وهي التي سبيل إثباتها الخبر فقط، ولا مدخل للعقل في إثباتها، وعرفها بعض أهل العلم بأنها ما يقابلها لدى المخلوقين أبعاض وأجزاء؛ كالوجه، واليدين، والعينين، والساق، والقدم، ونحو ذلك مما أثبت الله لنفسه في كتابه أو أثبته له نبيه ﷺ في سنته.

فالواجب في هذا كله أن نقر بها عينًا، ونطيب بها نفسًا، ولا نردها لشناعة مستشنع سبق إلى ذهنه لوثة التمثيل، ففر إلى التعطيل؛ بل نعتقد له المثل الأعلى، والوصف الأسنى، ونجزم أنه لا يمكن أن يترتب على ما وصف الرب به نفسه أو وصفه به نبيه ﷺ أيُّ معنى فاسد، وأن من توهم شيئًا من ذلك فقد أُتي من سوء فهمه، وأنه أخطأ وأبعد النجعة. فخلاصة طريقتهم:

- إثباتها من غير تشبيه بصفات المخلوقين.

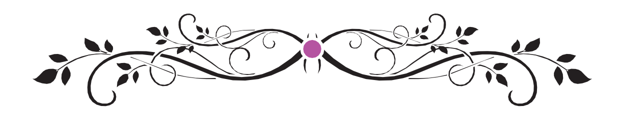
- الانتهاء فيها إلى خبر الله ورسوله، من غير زيادة ولا إضافة، ولا تحريف.

- إجراء اللفظ على ظاهره اللائق به، وعدم إزالته بتأويل باطل.

- تفويض كيفيته إلى الله تعالى، العالم وحده بالحقيقة التي يؤول إليها، وهو معنى «التأويل» المراد في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران: ٧]، على قراءة الوقف.

فإذا سار العبد على طريقة الراسخين، وسلم من طريقة الزائغين، انتفع بالقرآن العظيم، وبهدي سيد المرسلين.

۞ ۞ ۞



القرآن كلام الله

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

۞ (ويشهد أهل الحديث ويعتقدون أن القرآن كلام الله، وكتابه، ووحيه، وتنزيله، غير مخلوق. ومن قال بخلقه واعتقده فهو كافر عندهم. والقرآن الذي هو كلام الله ووحيه هو الذي نزل به جبريل على الرسول ﷺ ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [فصلت: ٣]، ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة:١١٩]؛ كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥]، وهو الذي بلغه الرسول ﷺ أمته؛ كما أمر به في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، فكان الذي بلَّغهم بأمر الله تعالى كلامه عَزَّ وَجَلَّ، وفيه قال ﷺ: «**أتمنعوني أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي؟**»(١)، وهو الذي تحفظه الصدور، وتتلوه الألسنة، ويكتب في المصاحف، كيف ما تصرف؛ بقراءة قارئ، ولفظ لافظ، وحفظ حافظ، وحيث تلي، وفي أي موضع قرئ وكتب في مصاحف أهل الإسلام، وألواح صبيانهم وغيرها، كله كلام الله جَلَّ جَلَالُهُ، غير مخلوق. فمن زعم أنه مخلوق فهو كافر بالله العظيم).

۞ (سمعت الحاكم أبا عبد الله الحافظ يقول: سمعت أبا الوليد حسان بن محمد، يقول: سمعت الإمام أبا بكر محمد بن

(١) أخرجه أبو داود رقم (٤٧٣٤)، والنسائي رقم (٧٦٨٠)، والترمذي رقم (٢٩٢٥)، وابن ماجه رقم (٢٠١).

إسحاق بن خزيمة يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق، فمن قال: إن القرآن مخلوق فهو كافر بالله العظيم، لا تقبل شهادته، ولا يعاد إن مرض، ولا يصلى عليه إن مات، ولا يدفن في مقابر المسلمين، يستتاب؛ فإن تاب وإلا ضربت عنقه).

الشَّرْح

هذا أصل عظيم من أصول اعتقاد أهل الحديث، وهو الإيمان بالقرآن. فيعتقد أهل السنة والجماعة أن القرآن كلام الله، وكتابه، ووحيه، وتنزيله، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، تكلم الله به حقيقة، فأوحاه إلى جبريل، فنزل به على قلب محمد ﷺ.

والدليل على أنه كلام الله قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فإذا استجار بنا مشرك فالواجب أن نحضر له قارئًا يتلو عليه القرآن، ويسمعه إياه. فهذا المسموع كلام الله قطعًا.

ومن أدلة ذلك أيضًا: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ [الفتح: ١٥]، وأمثال هذا كثير. والدليل من السنة قول النبي ﷺ، وهو يعرض نفسه على القبائل في الموسم: «**أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؟ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي**».

والدليل على أنه «كتابه وتنزيله»، قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ٧]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩]، وأمثال هذا كثير.

والدليل على أنه «وحيه»، قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٣].

والدليل على أنه «منزل غير مخلوق» آيٌ كُثر؛ كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥]، وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وقوله:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، وقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا﴾ [الحشر: ٢١]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر: ١].

والدليل على أنه «منه بدأ» قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]. و(من) في هذه الآيات للابتداء؛ يعني: أن الله تكلم به ابتداءً، على اعتبار (بدأ) مهموزة، أو بمعنى ظهر، على اعتبار (بدا) ممدودة.

والدليل على أنه «إليه يعود»: ما ورد من الآثار في آخر الزمان: (لَيُسْرَيَنَّ عَلَى الْقُرْآنِ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَلَا يُتْرَكُ آيَةٌ فِي مُصْحَفٍ، وَلَا فِي قَلْبِ أَحَدٍ إِلَّا رُفِعَتْ)[1]، وذلك والله أعلم حين يهجر الناس العمل به، فيرفعه الله تعالى تكرمة له؛ لئلا يكون مهجورًا. أو أن معنى (إليه يعود)؛ أي: إليه ينسب؛ كما تقول: هذا الكتاب يعود إلى فلان، وهذا القلم يعود إلى فلان.

فالقرآن كلام الله، بنص كتاب الله، وسنة رسول الله، وإنما زاد السلف رحمهم الله: «غير مخلوق»، ردًّا على المعتزلة الذي امتحنوا أهل الإسلام بدعوى أن القرآن مخلوق، بناءً على أصلهم الفاسد بنفي الصفات عن الله. وقد وقع ذلك أواخر خلافة المأمون العباسي، سنة ٢١٨هـ، وامتدت المحنة زمن أخيه المعتصم، ثم الواثق، حتى انجلت على يد المتوكل سنة ٢٣٢هـ، وابتلي بسببها خلق كثير من أئمة السلف. فصاروا يمتحنون الناس بهذه الدعوة الباطلة، ويحملونهم على القول بأن القرآن مخلوق، وأبى أهل السنة والجماعة ذلك، إذ أن القرآن كلام الله، وكلامه صفته، وصفاته غير مخلوقة. وكان من أعظم من وقف في تلك المحنة إمام أهل السنة بإطلاق، الإمام أحمد بن حنبل، فإنه امتحن وأوذي، وجلد وسجن، ليوافقهم على مرادهم، فأبى.

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه رقم (٣٣٨٦).

وكان يقول عند الخليفة: يا أمير المؤمنين، ائتوني بشيء من كتاب الله، أو سنة رسول الله ﷺ أقول به! فينقطعون بين يديه. وقد قيل: إن الله حفظ الإسلام بأبي بكر عام الردة، وحفظه بأحمد عام المحنة.

وبين المؤلف رحمه الله أن من قال بخلقه واعتقده، فهو كافر عندهم، كما نقل المصنف عن إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة تكفيره، وإجراء أحكام الكفار المرتدين عليه؛ من رد شهادته، وهجره وعدم عيادته، في الدنيا، واستتابته، وقتله، وعدم الصلاة عليه وعدم دفنه في مقابر المسلمين. قال علي بن المديني رحمه الله: (القرآن كلام الله، ومن قال: إنه مخلوق، فهو كافر لا يصلى خلفه)[1]؛ لأن مبنى هذا القول على التعطيل المحض، الذي قالت به الجهمية. وقد أكفر أهل السنة الجهمية. أنشد ابن القيم رحمه الله في نونيته:

ولقد تقلد كفرَهم خمسون في ... عشر من العلماء في البلدان

أي: نُقل تكفير الجهمية عن خمسمائة عالم من علماء السلف لإنكارهم أسماء الله وصفاته. وأما المعتزلة ففي تكفيرهم روايتان عن السلف.

وقد نبَّه المصنف رحمه الله على مسألة دقيقة، تخفى على بعض الناس، وهي الفرق بين الحفظ والمحفوظ، والكتابة والمكتوب، والقراءة والمقروء، والتلفظ والملفوظ؛ فالحفظ، والكتابة، والقراءة، والتلفظ: فعل العبد، والمحفوظ، والمكتوب، والمقروء، والملفوظ: كلام الرب. فكيف ما تصرف فهو كلام الله؛ لأن الكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدئًا، لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا. فلو أن أحدًا قام وقال: (أيها الناس: من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آتْ. ليل داج، وسماء ذات أبراج، نجوم تزهر، وبحار تزخر) إلى آخر الخطبة المشهور، فقال قائل: خطبة من هذه؟ لقيل: هذه خطبة قس بن ساعدة الإيادي، ولم تنسب إلى هذا الملقي؛ لأن الكلام يضاف إلى من قاله أول مرة. ولو أن أحدًا قام وأنشد:

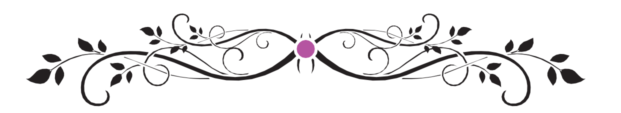
(١) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (٣٢)، والدارمي في النقض على المريسي (١/ ١٥١).

قفا نبك من ذِكرى حبيب ومنزل   بسِقطِ اللِّوى بينَ الدَّخول فحَوْملِ

فقيل: شعر من هذا؟ لقيل: إنه شعر امرئِ القيس، ولم ينسب إلى المنشد؛ لأن الكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدئًا لا إلى من قاله مبلغًا ومؤديًا. فكذلك، إذا قرأ الإمام القرآن، فإن هذا المقروء كلام الرحمن، لا كلام الإمام.

وكذلك، إذا حفظه حافظ، فالمحفوظ كلام الله؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]. وهكذا في بقية التصرفات.

۞ ۞ ۞



الرد على اللفظية

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ :

(فأما اللفظ بالقرآن: فإن الشيخ أبا بكر الإسماعيلي الجرجاني ذكر في رسالته(١) التي صنفها لأهل جيلان أن من زعم أن لفظه بالقرآن مخلوق، يريد به القرآن، فقد قال بخلق القرآن).

(وذكر ابن مهدي الطبري في كتابه «الاعتقاد» الذي صنفه لأهل هذه البلاد، أن مذهب أهل السنة والجماعة القول بأن القرآن كلام الله سبحانه، ووحيه، وتنزيله، وأمره ونهيه، غير مخلوق، ومن قال: مخلوق، فهو كافر بالله العظيم، وأن القرآن في صدورنا محفوظ، وبألسنتنا مقروء، وفي مصاحفنا مكتوب. وهو الكلام الذي تكلم الله عَزَّ وَجَلَّ به، ومن قال: إن القرآن بلفظي مخلوق، أو لفظي به مخلوق، فهو جاهل، ضال، كافر بالله العظيم).

(وإنما ذكرت هذا الفصل بعينه من كتاب ابن مهدي لاستحساني ذلك منه، فإنه اتبع السلف من أصحاب الحديث فيما ذكره، مع تبحره في علم الكلام، وتصانيفه الكبيرة فيه وتقدمه، وتبرزه عند أهله).

الشَّرْح

هذه مسألة «اللفظية»، وهم قوم متحذلقون، يقولون: (لفظي بالقرآن مخلوق)! يريدون التمويه والتلبيس، والفرار من مقالة السلف: «غير مخلوق».

---

(١) وقد منَّ الله علي بشرحها في مناسبات عدة، ونشرها.

وقد ذم السلف رحمهم الله اللفظية؛ لأنهم يؤنسون مقالة الجهمية: «القرآن مخلوق»، حتى قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: (مَنْ قَالَ: لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ، فَهُوَ جَهْمِيٌّ، وَمَنْ قَالَ: غَيْرُ مَخْلُوقٍ، فَهُوَ مُبْتَدِعٌ)[١]. وسر المسألة أن كلمة لفظ تحتمل أمرين:

أحدهما: التلفظ: وهو فعل العبد؛ من تحريك اللسان والفكين والشفتين، وهو مخلوق.

الثاني: الملفوظ: وهو كلام الرب، غير مخلوق. فإذا قال: «لفظي بالقرآن مخلوق»، أوهم أن الملفوظ مخلوق، وهذا عين مقالة الجهمية، وهو تلبيس مذموم.

وأما قوله: «ومن قال: غير مخلوق، فهو مبتدع»؛ فلأن هذا قول لم يسبق إليه، ولم يعبر به السلف. فلذلك، وصفه بالابتداع. وسيأتي له مزيد بيان في كلام المصنف.

وقد استشهد المصنف بما ذكر الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي (٢٧٧ ـ ٣٧١هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ، وعبارته: (ومن قال بخلق اللفظ بالقرآن، يريد به القرآن، فقد قال بخلق القرآن)[٢]، وهي مقاربة موافقة لما نقل.

كما استشهد المصنف بما ذكر علي بن محمد بن مهدي الطبري، المتوفى سنة ٣٨٠هـ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لموافقته للسلف في تجهيل وتضليل وتكفير اللفظية. والمأثور عن السلف في هذا الباب أكثر من أن يحصر.

ونلحظ في هذا المقام ملاحظتين، حري بطالب العلم أن يتفطن لهما:

إحداهما: مخاطبة المدعوين بالحق الذي يألفون ويعرفون قائله، فإن سلفه الإسماعيلي كتب عقيدته لأهل جيلان، كما أن ابن مهدي الطبري صنف

(١) الإبانة الكبرى لابن بطة رقم (١٥٦)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٦٠٢).

(٢) كتاب اعتقاد أهل السنة والجماعة، للإسماعيلي، ت: د. جمال عزون، ط: دار المنهاج (٤٠).

لأهل تلك البلاد، الذين كتب لهم أبو عثمان الصابوني، وذلك أدعى للقبول.

الثانية: قبول الحق ممن جاء به، واستحسانه والاستشهاد به، ولو أخطأ في غيره، لا سيما أوائل المتكلمين من الكلابية والأشاعرة، فإنهم ذوو رحم ومودة لأهل السنة.

وقد أحسن ابن مهدي الطبري في التأكيد والتحقيق على أن اسم القرآن منطبق على المحفوظ في الصدور، المقروء بالألسنة، المكتوب في المصاحف، وأنه هو كلام الله حقيقة، بما يقطع آمال المتكلمين المتكلفين.



قال المؤلف رحمه الله تعالى:

(أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، قال: قرأت بخط أبي عمرو المستملي، سمعت أبا عثمان سعيد بن إشكاب يقول: سألت إسحاق بن إبراهيم عن اللفظ بالقرآن؟ فقال: «لا ينبغي أن يناظر في هذا، القرآن كلام الله غير مخلوق»).

(وذكر محمد بن جرير الطبري رحمه الله، في كتابه «الاعتقاد» الذي صنفه في هذه المسألة، وقال: «أما القول في ألفاظ العباد في القرآن فلا أثر فيه نعلمه عن صحابي، ولا تابعي، إلا عمن في قوله الغَناء والشفاء، وفي اتباعه الرشد والهدى، ومن يقوم قوله مقام الأئمة الألى، أبي عبد الله، أحمد بن حنبل رحمه الله، فإن أبا إسماعيل الترمذي حدثني، قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله، يقول: «اللفظية جهمية»، قال الله عز وجل: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ ممن يسمع؟ قال: ثم سمعت جماعة من أصحابنا، لا أحفظ أسماءهم، يذكرون عنه رضي الله عنه، أنه كان يقول: «من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق، فهو مبتدع»)[(١)].

(قال محمد بن جرير: «ولا قول في ذلك عندنا يجوز أن نقوله غير قوله؛ إذ لم يكن لنا فيه إمام نأتم به سواه، وفيه الكفاية والمقنع، وهو الإمام المتبع، رحمة الله عليه ورضوانه»).

(هذه ألفاظ محمد بن جرير التي نقلتها نفسها إلى ما هاهنا من كتاب «الاعتقاد» الذي صنفه[(٢)]).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صريح السنة، للطبري (ص٢٩ ـ ٣١).

(قلت: وهو ـ أعني: محمد بن جرير ـ قد نفى عن نفسه بهذا الفصل الذي ذكره في كتابه كل ما نسب إليه، وقذف به، من عدول عن سبيل السنة، أو ميل إلى شيء من البدعة. والذي حكاه عن أحمد، رضي الله عنه وأرضاه، أن اللفظية جهمية، فصحيح عنه، وإنما قال ذلك لأن جهمًا وأصحابه صرحوا بخلق القرآن، والذين قالوا باللفظ تدرجوا به إلى القول بخلق القرآن، وخافوا أهل السنة في ذلك الزمان، من التصريح بخلق القرآن، فذكروا هذا اللفظ، وأرادوا به أن القرآن بلفظنا مخلوق، فلذلك، سماهم أحمد رحمه الله جهمية. وحكي عنه أيضا أنه قال: «اللفظية شر من الجهمية»).

الشَّرْح

عزَّز المصنف ما تقدم من الرد على اللفظية، بنقلين عن إمامين كبيرين:

أحدهما: إسحاق بن إبراهيم التميمي الحنظلي، المعروف بابن راهويه (١٦٦ ـ ٢٣٨هـ) رحمه الله، فقد رأى أن دعوى اللفظية ساقطة لا تسمع، ولا يناظر فيها؛ لأن من المقطوع به أن القرآن كلام الله غير مخلوق، فلا يسوغ أن يكون ذلك محل نظر؛ بل حقه الدفع والرد.

الثاني: محمد بن جرير الطبري، أبو جعفر، المفسر، المحدث، الفقيه، المشهور، الذي عوَّل على قول الإمام أحمد بن حنبل، في هذه النازلة؛ لعدم الأثر عن صحابي وتابعي بخصوصها، لكونها طرأت بعدهم. فأجزل الثناء عليه بما هو أهله، وروى حجته الدامغة، وقوله المقنع؛ فإن مقتضى قوله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] أن يسمعه من لفظ القارئ، فثبت أن الملفوظ المسموع كلام الله، بنص كتاب الله. ثم حكى عنه ما تقدم آنفًا من التفريق بين من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، ومن قال: أو غير مخلوق.

وقد نبَّه المصنف على دلالة هذا النقل؛ على براءة ابن جرير رحمه الله من تشغيب بعض الأقران، الذين رموه بمقالة أهل البدع، وحاشاه! قال

الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد قام ابن أبي داود وأصحابه، وكانوا خلقًا كثيرًا، على ابن جرير، ونسبوه إلى بدعة اللفظ، فصنف الرجل معتقدًا حسنًا سمعناه، تنصل فيه مما قيل عنه، وتألم لذلك)[١].

كما كشف أبو عثمان الصابوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن اللفظية زمن الأئمة كانوا يخافون من أهل السنة، فلم يجرؤوا على التصريح بمقالة الجهمية، فتحذلقوا بهذه الألفاظ الموهمة، وتدرجوا بها إلى مقالة الجهمية المحضة، غير أن إمام أهل السنة، أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عرفهم بلحن القول، وكشف زيفهم.



(١) ميزان الاعتدال (٢/ ٤٣٥).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وأما ما حكاه محمد بن جرير عن أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من قال: «لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع»، فإنما أراد أن السلف من أهل السنة لم يتكلموا في باب اللفظ، ولم يحوجهم الحال إليه، وإنما حدث الكلام في اللفظ من أهل التعمق، وذوي الحمق الذين أتوا بالمحدثات، وعتوا عما نهوا عنه من الضلالات، وذميم المقالات، وخاضوا فيما لم يخض فيه السلف من علماء الإسلام، فقال الإمام: هذا القول في نفسه بدعة، ومن حق المتسنن أن يدعه، ولا يتفوه به ولا بمثله من البدع المبتدعة، ويقتصر على ما قاله السلف من الأئمة المتبعة: أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ولا يزيد عليه إلا تكفير من يقول بخلقه).

(أخبرنا الحاكم أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو بكر محمد بن عبد الله الجراحي بمرور، حدثنا يحيى بن ساسويه، حدثنا عبد الكريم السكري، قال وهب بن زمعة: أخبرني علي الباشاني، قال: سمعت عبد الله بن المبارك يقول: «من كفر بحرف من القرآن فقد كفر بالقرآن، ومن قال: لا أومن بهذه اللام فقد كفر»[(١)]).

الشَّرْح

هذا توجيه للجملة الثانية من عبارة الإمام أحمد، وقد تقدم، من وصف من قال بأن لفظه بالقرآن غير مخلوق بالبدعة، لكونه قول حادث لم يسبق إليه، وإنما صدر من الحمقى المتعمقين المتكلفين، الذين لم تسعهم العافية، فطفقوا يتفوهون بما ليس لهم به علم، وقد كان يسعهم لزوم كلام السلف المستمد من النصوص.

---

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى بلفظه عن ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤/ ١٨٢).

وقد زاد السلف فوق ما قرره ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ، القول بكفر من أنكر أن القرآن كلام الله، ولو أنكر حرفًا واحدًا منه، فروى أبو عثمان بسنده عن ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ، تكفير من جحد حرفًا من القرآن؛ كحرف اللام. ووقع في بعض النسخ: «ومن قال: لا أؤمن بهذه الكلام فقد كفر»، ولعله تصحيف! فإنه لا خلاف في كفر من لم يؤمن بالقرآن.

بل إن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ، أنكر على الواقفة، الذين أمسكوا عن القول بأنه «مخلوق» أو «غير مخلوق»، وسوى بينهم وبين اللفظية، ومن قال بخلق القرآن، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن قال باللفظ وغيره، ومن وقف فيه؛ فقال: لا أدري مخلوق أو ليس بمخلوق، وإنما هو كلام الله، فهذا صاحب بدعة، مثل من قال: هو مخلوق، وإنما هو كلام الله ليس بمخلوق)(١). وقال الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا ابْنُ مَخْلَدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ السِّجِسْتَانِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ يَسْأَلُ: هَلْ لَهُمْ رُخْصَةٌ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ، ثُمَّ يَسْكُتُ؟ فَقَالَ: وَلِمَ يَسْكُتْ؟ لَوْلَا مَا وَقَعَ فِيهِ النَّاسُ كَانَ يَسَعُهُ السُّكُوتُ، وَلَكِنْ حَيْثُ تَكَلَّمُوا فِيمَا تَكَلَّمُوا، لِأَيِّ شَيْءٍ لَا يَتَكَلَّمُونَ؟ [ص: ٥٢٨]. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ: مَعْنَى قَوْلِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فِي هَذَا الْمَعْنَى، يَقُولُ: لَمْ يَخْتَلِفْ أَهْلُ الْإِيمَانِ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى؟ فَلَمَّا جَاءَ جَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ فَأَحْدَثَ الْكُفْرَ بِقَوْلِهِ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ، لَمْ يَسَعِ الْعُلَمَاءَ إِلَّا الرَّدُّ عَلَيْهِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ بِلَا شَكٍّ، وَلَا تَوَقُّفٍ فِيهِ، فَمَنْ لَمْ يَقُلْ: غَيْرُ مَخْلُوقٍ سُمِّيَ وَاقِفِيًّا، شَاكًّا فِي دِينِهِ)(٢)؛ بل قال قتيبة بن سعيد رَحِمَهُ اللَّهُ: (الوقفية شر من اللفظية)(٣)، وذلك لما يظهرونه من الورع الباطل الذي يموهون به على العامة.

والحاصل أن الذين ضلوا في مسألة القرآن عدة طوائف:

١ ـ **الخَلقية**: القائلون بخلق القرآن؛ لفظه ومعناه، وهم الجهمية والمعتزلة.

---

(١) أصول السنة (ص٢٢).
(٢) الشريعة، للآجري (١/ ٥٢٧).
(٣) الشريعة، للآجري (١/ ٨٤).

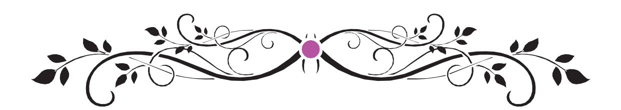
٢ ـ اللفظية: وهم القائلون: لفظي بالقرآن مخلوق.

٣ ـ الواقفة: وهم المقتصرون على قول: «القرآن كلام الله»، ثم يتوقفون فلا يقولون «مخلوق» ولا «غير مخلوق».

٤ ـ النفسية: وهم القائلون: إن كلام الله، ومنه القرآن، هو المعنى القديم القائم في نفسه، وأن الحرف والصوت ليسا جزء مسماه؛ بل هما مخلوقان، ليكونا «حكاية» عن كلام الله؛ كما تقوله الكلابية، أو «عبارة» عن كلام الله؛ كما تقوله الأشعرية.

وقد تبَيَّن من هذا الفصل عناية المصنف بهذه المسألة، وتحقيق أن القرآن كلام الله، وتزييف المقالات الباطلة. وهذا الاعتقاد الصحيح يثمر تعظيم القرآن، وقدسيته، وعصمة النص، ومرجعيته، ولا يجعله خاضعًا لمعاول النقد التاريخي التي ينادي بها بعض زنادقة العصر، ليتمكنوا من النيل من القرآن وتطويعه لأغراضهم، أسوةً بما يفعله اللاهوتيون من أهل الكتاب مع أسفار العهد القديم، والجديد. ويأبى الله والمسلمون ذلك، فقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]، وقد حفظه الله وصانه، قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢﴾ [الحج: ٥٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، فأنى لهم!





استواء الله على عرشه

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

❁ (ويعتقد أصحاب الحديث ويشهدون أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فوق سبع سمواته، على عرشه مستو، كما نطق به كتابه، في قوله عَزَّ وَجَلَّ في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، وقوله في سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾، وقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، وقوله في سورة الفرقان: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾، وقوله في سورة السجدة: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، وقوله في سورة طه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾).

❁ (وأخبر الله سبحانه عن فرعون اللعين أنه قال لهامان: ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾، وإنما قال ذلك لأنه سمع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يذكر أن ربه في السماء، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾؛ يعني: في قوله: إن في السماء إلهًا. وعلماء الأمة، وأعيان الأئمة من السلف رحمهم الله، لم يختلفوا في أن الله تعالى على عرشه، وعرشه فوق سماواته، يثبتون من ذلك ما أثبته الله تعالى، ويؤمنون به، ويصدقون الرب جَلَّ جَلَالُهُ في خبره، ويطلقون ما أطلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من

استوائه على عرشه، ويمرونه على ظاهره، ويكلون علمه إلى الله، ويقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾، كما أخبر الله تعالى عن الراسخين في العلم أنهم يقولون ذلك، ورضي منهم، فأثنى عليهم به).

الشَّرْح

هذه مسألة شريفة عظيمة، وهي مسألة العلو والاستواء. والاستواء يرد في القرآن على ثلاثة أوجه:

١ ـ مطلق: كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤]، ومعناها حينئذ: كمل وتم؛ كما يقال: استوى الزرع، أو: استوى الطعام.

٢ ـ مقيد بـ «إلى»: كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، [فصلت: ١١]، ومعناها حينئذ: عمد وقصد.

٣ ـ مقيد بـ «على»: كقوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣]، ومنه قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ومعناها حينئذ: علا واستقر. وهو المراد هنا.

وعلو الله تعالى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: علو القدر: وهو أن الله تعالى له المثل الأعلى، والأسماء الحسنى، والصفات العلى، لا يماثله ولا يدانيه أحد من خلقه. وهذا النوع لا يمكن أن ينازع فيها أحد ينتسب إلى الإسلام. وربما قيل: «علو الصفات» وأدخل فيه النوع الثاني.

النوع الثاني: علو قهر: وهو أن الله تعالى قهر جميع مخلوقاته؛ كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، فلا يخرج أحد عن سلطانه وملكه وجبروته. وهذا النوع أيضًا لا يمكن لأحد أن ينازع فيه.

النوع الثالث: علو الذات: وهو أن الله سبحانه وتعالى بذاته، فوق سماواته، مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، ليس حالًّا فيهم، ليس فيه شيء من خلقه، ولا في خلقه شيء منه. هذه عقيدة أهل السنة والجماعة قاطبة، ونازع في ذلك أهل الأهواء والبدع، كما سيأتي بيانه.

وقد دل على إثبات علو الذات أنواع الدلالات الخمس؛ الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة:

١ ـ دلالة القرآن: وهي أكثر من أن تحصر، حتى قال بعض علماء الشافعية: إن في القرآن العظيم أكثر من ألف دليل على إثبات علو الله. وقد تنوعت دلالة القرآن على ذلك، وساق المصنف منها هنا نوعًا واحدًا، وهو:

ـ ذكر استوائه على عرشه؛ لأن استواءه على عرشه دليل على علوه؛ فإن العرش أعلى المخلوقات، هو سقف العالم، والله ﷻ فوق العرش.

وفي القرآن العظيم سبع آيات تنص على استواء الله على عرشه، ساقها المصنف واحدة تلو الأخرى، لكن سقط الموضع السابع، وهو قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤] وقد جاء في مواضع ستة بلفظ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، وفي سورة طه بلفظ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥].

ـ تسميته نفسه بأسماء العلو: كقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وهو ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: ٩].

ـ ذكر صعود الأشياء ورفعها وعروجها إليه: والصعود والرفع والعروج لا يكون إلا لأعلى؛ قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، وقال: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤].

ـ ذكر نزول الأشياء منه: والنزول يكون من أعلى لأسفل: قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣]، وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

ـ ذكر كونه في السماء: كقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك: ١٦، ١٧]، ومعنى ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: على السماء؛ لأن (في) في لغة العرب تأتي

بمعنى (على)؛ كقول الله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: على جذوع النخل، وقوله: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]؛ أي: على مناكبها، وقوله: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٣٧]؛ أي: على الأرض.

- قول فرعون: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]؛ والصرح: هو البناء العالي، فلم يقل: احفر لي حفرة، أو سردابًا، فهذا دليل على أن موسى عليه السلام، قد أخبره أن ربه في جهة العلو، فوق السماوات.

٢ ـ دلالة السنة: قول النبي ﷺ للجارية التي لطمها سيدها، وأراد أن يعتقها: «**أَيْنَ اللهُ؟**»، قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «**مَنْ أَنَا؟**»، قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «**أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»[1]. فأثبت لها الإيمان باعتقادها بأن الله تعالى فوق سماواته.

وقد روى الخلال في كتاب «السنة» بإسناد صحيح على شرط البخاري، عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَمَّا فَرَغَ اللهُ مِنْ خَلْقِهِ اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ**»[2].

٣ ـ دلالة الإجماع: قال الأوزاعي رحمه الله، وهو من أتباع التابعين: كنا والتابعون متوافرون، نقول: إن الله تعالى ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما جاءت به السنة من الصفات[3]، وهذه حكاية إجماع. وقد قال الأوزاعي ذلك بعد ظهور مذهب جهم بن صفوان الذي ينفي صفات الله تعالى وعلوه، مما يدل على انعقاد إجماع السلف والتابعين على مخالفة ما ادعاه جهم. ولهذا، قال المصنف: (وعلماء الأمة، وأعيان الأئمة من السلف رحمهم الله، لم يختلفوا في أن الله تعالى على عرشه، وعرشه فوق سماواته).

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٥٣٧).
(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (١/ ١٢٧).
(٣) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات رقم (٨٦٥)، قال الذهبي في تذكرة الحفاظ (ص١٨٢): «إسناده صحيح».

٤ ـ دلالة العقل: العقل الصريح السالم من الشبهات والآفات يقطع بأن العلو صفة كمال، وأن السفول صفة نقص. والله تعالى متصف بالكمال منزه عن النقص، فلزم إثباته له؛ لأن له المثل الأعلى.

٥ ـ دلالة الفطرة: الفطرة هي ما ركب الله عليه النفوس من المدارك من غير سبق تعليم؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠]، وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ**»، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[(١)].

فكل واحد من الآدميين مركوز في فطرته أن إلهه ومعبوده في العلو، ولهذا، تجد نفسك إذا دعوت ربك متوجهًا نحو العلو، لا يذهب قلبك إلى يمنةٍ أو يسرة. ويقال: إن البهائم إذا ضربت ضربًا شديدًا رفعت طرفها إلى السماء.

قال ابن أبي العز الحنفي: (وَأَمَّا ثُبُوتُهُ بِالْفِطْرَةِ، فَإِنَّ الْخَلْقَ جَمِيعًا بِطِبَاعِهِمْ وَقُلُوبِهِمُ السَّلِيمَةِ يَرْفَعُونَ أَيْدِيَهُمْ عِنْدَ الدُّعَاءِ، وَيَقْصِدُونَ جِهَةَ الْعُلُوِّ بِقُلُوبِهِمْ عِنْدَ التَّضَرُّعِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ طَاهِرٍ الْمَقْدِسِيُّ أن الشيخ أبا جعفر الهمداني حَضَرَ مَجْلِسَ الْأُسْتَاذِ أَبِي الْمَعَالِي الْجُوَيْنِيِّ الْمَعْرُوفِ بِإِمَامِ الْحَرَمَيْنِ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ فِي نَفْيِ صِفَةِ الْعُلُوِّ، وَيَقُولُ: كَانَ اللهُ وَلَا عَرْشَ وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا كَانَ! فَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو جَعْفَرٍ: أَخْبِرْنَا يَا أُسْتَاذُ عَنْ هَذِهِ الضَّرُورَةِ الَّتِي نَجِدُهَا فِي قُلُوبِنَا؟ فَإِنَّهُ مَا قَالَ عَارِفٌ قَطُّ: يَا اللهُ، إِلَّا وَجَدَ فِي قلبه ضرورة طلب الْعُلُوَّ، لَا يَلْتَفِتُ يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً، فَكَيْفَ ندفع بهذه الضَّرُورَةَ عَنْ أَنْفُسِنَا؟ قَالَ: فَلَطَمَ أَبُو الْمَعَالِي عَلَى رَأْسِهِ وَنَزَلَ! وَأَظُنُّهُ قَالَ: وَبَكَى! وَقَالَ:

(١) أخرجه البخاري رقم (١٣٥٨)، ومسلم رقم (٢٦٥٨).

حيرني الهمداني حَيَّرَنِي! أَرَادَ الشَّيْخُ: أَنَّ هَذَا أَمْرٌ فَطَرَ اللهُ عَلَيْهِ عِبَادَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَلَقَّوْهُ من المرسلين، يَجِدُونَ فِي قُلُوبِهِمْ طَلَبًا ضَرُورِيًّا يَتَوَجَّهُ إِلَى اللهِ وَيَطْلُبُهُ فِي الْعُلُوِّ»(١).

فقد تضافرت الدلائل على إثبات استواء الله على عرشه، استواءً يليق بذاته، وعظيم سلطانه. فلا يجوز أن يقال: إن الله في كل مكان! تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا؛ بل يقال: علمه في كل مكان، أما هو سبحانه ففوق سماواته، مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، وعلمه في كل مكان، لا تخفى عليه خافية. ولهذا، جمع الله تعالى بين علوه ومعيته في آية واحدة، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤]؛ أي: هو معكم بعلمه وسمعه وبصره وإحاطته، مع علوه واستوائه على عرشه. فلا منافاة بين علوه ومعيته، فهو عليٌّ في دنوه، قريب في علوه، سبحانه وبحمده.

وقد ضل قوم فحرفوا معنى الاستواء إلى الاستيلاء، وهذا زعم باطل من وجوه:

أحدها: أنه خلاف ظاهر القرآن، فقد ورد لفظ الاستواء في القرآن معدّى بـ «على» في سبعة مواضع، فلو كان يراد به خلاف ظاهره لورد ولو في موضع واحد بلفظ استولى، أو ما يقاربه.

الثاني: أنه خلاف اللغة، قال ابن منظور: قَالَ دَاوُدُ بنُ عَلِيٍّ الأَصبهاني: كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ الأعرابي، فأَتاه رجلٌ فَقَالَ: مَا مَعْنَى قَوْلَ اللهِ ﷻ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥]؟ فَقَالَ ابْنُ الأَعرابي: هُوَ عَلَى عَرْشِهِ كَمَا أَخْبَرَ، فَقَالَ: يَا أَبا عبدِ اللهِ، إِنَّما مَعْنَاهُ استَوْلى، فَقَالَ ابْنُ الأَعرابي: مَا يُدْرِيك؟ الْعَرَبُ لَا تَقُولُ: استَوْلى عَلَى الشَّيْءِ، حَتَّى يَكُونَ لَهُ مُضادٌّ، فأَيهما غَلَب فَقَدِ اسْتَوْلى؛ أَما سَمِعْتَ قَوْلَ النَّابِغَةِ:

(١) شرح العقيدة الطحاوية ط: دار السلام (ص٢٩١).

إلَّا لـمِثْلِكَ، أَو مَن أَنت سابِقُه   سبْقَ الجوادِ، إِذَا اسْتَوْلى عَلَى الأَمَدِ

الثالث: أنه خلاف إجماع السلف، فلم يؤثر عن صاحب أو تابع تأويل الاستواء بالاستيلاء؛ بل كلهم مطبقون على إجرائه على ظاهره اللائق به. والآثار عنهم في إثباته والإنكار على من تأوله أكثر من أن تحصر.

الرابع: أنه يلزم على تأويله بالاستيلاء لوازم باطلة، لا انفكاك لهم عنها:

- ألا يكون مستوليًا على العرش حين خلق السماوات والأرض! كما نبه عليه إمام اللغة ابن الأعرابي، من أن الاستيلاء يكون بعد مغالبة.

- ألا يكون فرق بين العرش وسائر المخلوقات، باعتبار أن الله تعالى مستولٍ على جميع خلقه. فأي مزية للعرش العظيم إذًا؟

- أن يكون مستويًا على جميع الأشياء، حتى ما ينزه عنها ﷻ، باعتبار أن الاستواء بمعنى الاستيلاء، بزعمهم.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكى، حدثنا محمد بن داود بن سليمان الزاهد، أخبرني علي بن محمد بن عبيد أبو الحسن الحافظ، من أصله العتيق، حدثنا أبو يحيى بن كيسبة الوراق، حدثنا محمد بن الأشرس الوراق أبو كنانة، حدثنا أبو المغيرة الحنفي، حدثنا قرة بن خالد، عن الحسن، عن أبيه، عن أم سلمة، في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾، قالت: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر)[١].

(وحدثنا أبو الحسن بن أبي إسحاق المزكى بن المزكى، حدثنا أحمد بن الخضر أبو الحسن الشافعي، حدثنا شاذان، حدثنا ابن مخلد بن يزيد القُهُستاني، حدثنا جعفر بن ميمون، قال: سئل مالك بن أنس عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾، كيف استوى؟ قال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا ضالًّا»، وأمر به أن يُخرج من مجلسه).

(أخبرنا أبو محمد المخلدي العدل، حدثنا أبو بكر عبد الله بن محمد الإسفراييني، حدثنا أبو الحسين علي بن الحسن، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا مهدي بن جعفر بن ميمون الرملي، عن جعفر بن عبد الله، قال: جاء رجل إلى مالك بن أنس؛ يعني:

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٣٩٧)، والعلو، للذهبي (٦٥).

فسأله عن قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾، كيف استوى؟ قال: فما رأيته وجد من شيء كوجده من مقالته، وعلاه الرحضاء، وأطرق القوم، فجعلوا ينظرون الأمر به فيه، ثم سُرِّي عن مالك، فقال: «الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإني لأخاف أن تكون ضالًّا»، ثم أمر به فأخرج).

(وأخبرنيه جدي أبو حامد أحمد بن إسماعيل، عن جد والدي الشهيد، وهو أبو عبد الله محمد بن عدي بن حمدويه الصابوني، حدثنا محمد بن أحمد بن أبي عون النسَوي، قال: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا مهدي بن جعفر الرملي، حدثنا جعفر بن عبد الله، قال: جاء رجل إلى مالك بن أنس، فقال: يا أبا عبد الله، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾، كيف استوى؟ قال: فما رأينا مالكًا وجد من شيء كوجده من مقالته، وذكر بنحوه)[(١)].

(وسئل أبو علي الحسين بن الفضل البجلي عن الاستواء، وقيل له: كيف استوى على عرشه؟ فقال: إنا لا نعرف من أنباء الغيب إلا مقدار ما كشف لنا، وقد أعلمنا جل ذكره، أنه استوى على عرشه، ولم يخبرنا كيف استوى).

(أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أنا أبو بكر محمد بن داود الزاهد، أنا محمد بن عبد الرحمن السامي، حدثني عبد الله ابن

(١) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤٤١)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٤٠٨)، وصححه الذهبي وشيخ الإسلام والحافظ ابن حجر. انظر: مختصر العلو (ص١٤١)، مجموع الفتاوى (٥/ ٣٦٥)، فتح الباري (١٣/ ٥٠١) بألفاظ متقاربة ومعنًى متحد.

أحمد بن شَبُّويَه المروزي، سمعت علي بن الحسين بن شقيق يقول: سمعت عبد الله بن المبارك يقول: «نعرف ربنا فوق سبع سموات، على العرش استوى، بائنًا منه خلقه، ولا نقول كما قالت الجهمية: إنه هاهنا، وأشار إلى الأرض»[١].

الشَّرْح

هذه مرويات في إثبات حقيقة الاستواء:

الرواية الأولى: عن أم سلمة رضي الله عنها رواها المصنف بسند تساعي عنها، وفي بعض رجاله كلام. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، في شرح حديث النزول، بعد ذكر جواب مالك الآتي: (وَمِثْلُ هَذَا الْجَوَابِ ثَابِتٌ عَنْ رَبِيعَةَ شَيْخِ مَالِكٍ، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْجَوَابُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها مَوْقُوفًا وَمَرْفُوعًا، وَلَكِنْ لَيْسَ إسْنَادُهُ مِمَّا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ)[٢].

الرواية الثانية: عن الإمام مالك بن أنس رحمه الله، وقد ساقها المصنف بثلاثة أسانيد؛ كما رواها غيره من الأئمة[٣]، بألفاظ متقاربة. وهي ثابتة مشهورة عنه. وقد تضمنت أربع جمل:

١ ـ «الكيف غير معقول»؛ يعني: أن عقولنا لا تستطيع إدراك كيفية صفات الله.

٢ ـ «الاستواء منه غير مجهول»؛ يعني: أن معنى الاستواء في القرآن معلوم؛ لأن الله خاطب الناس بلسان عربي مبين فالاستواء في اللغة: معناه العلو، فالذي قال عن الفلك والأنعام: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣]، هو الذي قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]؛ أي: علا عليه.

---

(١) الرد على الجهمية، للدارمي (٢٩٥)، وخلق أفعال العباد (٣١)، ومختصر العلو، للذهبي (١٥١ ـ ١٥٢).
(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٦٥).
(٣) أخرجها الدارمي في الرد على الجهمية (ص٦٦).

٣ ـ «والإيمان به واجب»؛ لأن الله أخبر عنه في كتابه في سبعة مواضع؛ ستة منها بلفظ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الأعراف: ٥٤]، [يونس: ٣]، [الرعد: ٢]، [الفرقان: ٥٩]، [السجدة: ٤]، [الحديد: ٤]، والسابع بلفظ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥].

٤ ـ «والسؤال عنه بدعة»؛ يعني: السؤال عن كيفية صفات الله بدعة، فإن الصحابة، رضوان الله عليهم، ما كانوا يسألون النبي ﷺ عنها. فلهذا، تفرس فيه البدعة، وأمر بإخراجه من المسجد تعزيرًا، هذان الإمران فيما يتعلق في المبالغة في الإثبات، الذي هو التكييف والتمثيل، يقابلهما في الجانب الآخر ما يتعلق في المبالغة في التنزيه، وهما التعطيل والتحريف.

وقد أردف المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ جواب إمام دار الهجرة، مالك بن أنس، لمن سأل: كيف استوى؟ بجواب آخر لأبي علي البجلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقطع طمع من تعنت في السؤال عن الكيفية بغية إنكار الاستواء؛ بأن الله تعالى أخبرنا أنه استوى، ولم يخبرنا كيف استوى، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ۝٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦]. وهذا التنوع في الجواب، ومعاملة السائل، يرجع إلى اختلاف الأحوال والأشخاص.

وهذه الآثار، بحمد الله، تبين إطباق السلف على إثبات حقيقة الاستواء، وإثبات علو الذات، وأنهم يرفضون مقالات الجهمية القائلين بالحلول في جميع الأمكنة، كما أخبر عنهم ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنهم يعتقدون أنه في الأرض!

ويرفضون مقالة القرامطة الباطنيين النافين عنه الجهات الست؛ القائلين: لا أمام ولا خلف، ولا يمين ولا شمال، ولا فوق ولا تحت، ولا محايث ولا مجانب، إلخ. فلا يصفون الله إلا بالسلوب، المفضي إلى العدم، وإنكار حقيقة وجود الله، تعالى الله عما يقولون. فأهل السنة يعرفون ربهم فوق سماواته، مستويًا على عرشه، بائنًا من خلقه.

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

(وسمعت الحاكم أبا عبد الله الحافظ، في كتاب «التاريخ» الذي جمعه لأهل نيسابور، وفي كتاب «معرفة الحديث» اللذين جمعهما، ولم يسبق إلى مثلهما، يقول: سمعت أبا جعفر محمد بن صالح بن هانئ يقول: سمعت أبا بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة يقول: من لم يقل بأن الله عز وجل على عرشه، قد استوى فوق سبع سمٰواته، فهو كافر بربه، حلال الدم، يستتاب؛ فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وألقي على بعض المزابل، حتى لا يتأذى المسلمون، ولا المعاهدون بنتن رائحة جيفته، وكان ماله فيئًا، لا يرثه أحد من المسلمين؛ إذ المسلم لا يرث الكافر؛ كما قال النبي ﷺ: «**لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الكَافِرَ وَلَا الكَافِرُ الْمُسْلِمَ**»[(١)].

وإمامنا أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه، احتج في كتابه «المبسوط» في مسألة إعتاق الرقبة المؤمنة في الكفارة، وأن غير المؤمنة لا يصح التكفير بها، بخبر معاوية بن الحكم، وأنه أراد أن يعتق الجارية السوداء لكفارة، وسأل رسول الله ﷺ عن إعتاقه إياها، فامتحنها رسول الله ﷺ، فقال لها: «**من أنا؟**» فأشارت إليه، وإلى السماء، يعني: أنك رسول الله الذي في السماء، فقال ﷺ: «**أعتقها فإنها مؤمنة**»[(٢)]، فحكم رسول الله ﷺ بإسلامها وإيمانها لما أقرت بأن ربها في السماء، وعرفت ربها بصفة العلو والفوقية. وإنما احتج الشافعي، رحمة الله عليه، على المخالفين في قولهم بجواز

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٧٦٤)، ومسلم رقم (١٦١٤).

(٢) أخرجه مسلم رقم (٥٣٧).

إعتاق الرقبة الكافرة في الكفارة بهذا الخبر؛ لاعتقاده أن الله سبحانه فوق خلقه، وفوق سبع سماواته على عرشه، كما معتقد المسلمين من أهل السنة والجماعة سلفهم وخلفهم؛ إذ كان رَحِمَهُ اللهُ لا يروي خبرًا صحيحًا ثم لا يقول به).

الشَّرح

روى المصنف بسنده عن إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة رَحِمَهُ اللهُ، الحكم على منكر العلو والاستواء بالكفر، بعد الاستتابة، والقتل ردةً إن لم يتب، وعدم الدفن في مقابر المسلمين، وعدم التوريث منه كحال سائر الكفار.

وقابل ذلك بإثبات إيمان من اعتقد علو الله تعالى، وأنه في السماء، بالاستدلال بالمحفوظ عن إمام مذهبه؛ الإمام محمد بن إدريس الشافعي، باشتراط الإيمان في الرقبة المحررة بحديث معاوية بن الحكم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، حيث حكم النبي ﷺ بإيمانها لاعتقادها أن ربها في السماء وأنه رسول الله.

وقد ساق المصنف خبر معاوية بن الحكم بما يفيد أنها أجابت بالإشارة، وقد جاء في «صحيح مسلم» وغيره أنها أجابت نطقًا: قَالَ: وَكَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ، فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ، لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ قَالَ: «**ائْتِنِي بِهَا**»، فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فَقَالَ لَهَا: «**أَيْنَ اللهُ؟**»، قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «**مَنْ أَنَا؟**»، قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «**أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**».



قال المؤلف رحمه الله تعالى:

(وقد أخبرنا الحاكم أبو عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: أنبأنا الإمام أبو الوليد حسان بن محمد الفقيه، قال: حدثنا إبراهيم بن محمود، قال: سمعت الربيع بن سليمان يقول: سمعت الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: إذا رأيتموني أقول قولًا وقد صح عن النبي ﷺ خلافه، فاعلموا أن عقلي قد ذهب[(١)]).

(قال الحاكم رَحِمَهُ اللَّهُ: سمعت أبا الوليد ـ غير مرة ـ يقول: حدثت عن الزعفراني أن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، روى يومًا حديثًا، فقال السائل: يا أبا عبد الله! تقول به؟! قال: تراني في بيعة أو كنيسة؟! ترى علي زي الكفار؟! هو ذا تراني في مسجد المسلمين، عليّ زي المسلمين، مستقبلَ قبلتهم، أروي حديثًا عن النبي ﷺ ثم لا أقول به![(٢)]).

الشَّرح

لما ختم المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ توجيهه لاستدلال الشافعي بحديث الجارية؛ بقوله: (إذ كان رَحِمَهُ اللَّهُ لا يروي خبرًا صحيحًا ثم لا يقول به)، أتبعه بهذين النصين الكاشفين عن تعظيم الإمام الشافعي للسنة والعمل بها:

أحدهما: في تسفيه من يقول قولًا يخالف الصحيح عن رسول الله ﷺ، واتهامه في عقله.

الثاني: في النكير على من سأله عن قبول حديث رواه مرفوعًا! وأن ذلك لا يصدر من مسلم. فرحمه الله من إمام مقدم.

(١) آداب الشافعي ومناقبه، لابن أبي حاتم (٦٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٩/١٠٦).
(٢) حلية الأولياء، لأبي نعيم (٩/١٠٦).

[الفرق بين طريقة أهل السنة وأهل البدع في باب الصفات]

(قال أبو عثمان: والفرق بين أهل السنة وبين أهل البدع: أنهم إذا سمعوا خبرًا في صفات الرب ردوه أصلًا ولم يقبلوه، أو... الظاهر[(١)]، ثم تأولوه بتأويل يقصدون به رفع الخبر من أصله، وإبطال... عقولهم[(٢)] وآرائهم فيه، ويعلمون حقًّا يقينًا أن ما قاله رسول الله ﷺ فعلى ما قاله؛ إذ هو كان أعرف بالرب ﷻ من غيره، ولم يقل فيه إلا حقًّا وصدقًا ووحيًا؛ قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣ ـ ٤]).

ذكر المؤلف رحمه الله فرقًا عظيمًا بين أهل السنة وأهل البدع، وهو أن أهل السنة يعظمون النصوص، فإذا جاءهم الخبر عن الله أو عن رسوله ﷺ تلقوه بالقبول والتعظيم، وأجروه على ظاهره، ولم يتعرضوا له بشيء من أنواع التحريف والرد والإنكار. وذلك أن مسوغات قبول الخبر أربعة:

- العلم المنافي للجهل، فلا يقبل خبر جاهل.
- والصدق المنافي للكذب، فلا يقبل خبر كاذب.
- والبيان المنافي للعي والفهاهة، فلا يقبل خبر عييٍّ لا يعرب عن مراده.
- والنصح المنافي للغش والتدليس، فلا يقبل خبر متهم بسوء نية.

فإذا توفرت هذه الأمور الأربعة في خبر من الأخبار لزم قبوله. والله سبحانه وتعالى أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلًا، وأحسن حديثًا، وهو سبحانه يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر، وقد بين لهم غاية البيان بما يقيم الحجة، ويقطع العذر. كما أن النبي ﷺ أعلم الناس بربه؛ أصدق الناس، وأوضحهم بيانًا، وأفصحهم لسانًا، وهو أنصح الأمة للأمة، فلا ينطق عن الهوى. فلما توفرت هذه المقتضِيات في كلام الله وفي كلام نبيه ﷺ، كان لزامًا على من بلغه الخبر أن يقبله، ويجريه على ظاهره، ولا يتعرض له بشيء من الرد والإنكار

---

(١) سقط، وتقديره ـ والله أعلم ـ: (أو صرفوه عن الظاهر).

(٢) سقط، وتقديره ـ والله أعلم ـ: (وإبطالَ دلالته. وأما أهل السنة فلا يعملون عقولهم).

أو التحريف. هذه طريقة السلف، فينطبق عليهم قول النبي ﷺ: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**»[(١)].

فإذا نزل ماء السماء، فإن الأرض التي تستقبله على ثلاثة أنواع:

- أرضٌ طيبة تقبل الماء، فتنبت، وتصبح روضة غناء.

- أجادب، وهي الحياض الواسعة التي يجتمع فيها الماء كالغدير، لكنها لا تنبت. فيأتي الناس فيشربون ويستقون ويزرعون.

- قيعان، إذا نزل عليها ماء السماء سح يمنة ويسرة؛ فلا هي انتفعت بنفسها، ولا هي نفعت غيرها.

كذلك إذا نزل وحي السماء، فإن الناس الذين يستقبلونه على ثلاثة أنواع:

- من يتقبله قبولًا حسنًا، ويتحمله، ويفقهه، ويتدبره، ويعلمه غيره، فتجتمع له الرواية والدراية. فهؤلاء كالطائفة الطيبة، وهم العلماء الفقهاء؛ كالأئمة الأربعة.

- من يجمعه ويحفظه، لكن لا فقه له، فهو وعاء للعلم، يتحمله ويؤديه إلى من بعده فينتفع به غيره. فهؤلاء كالأجادب، وهم عامة المحدثين الذين اكتفوا بالرواية، ولم يعرفوا بفقه، ولم ترتفع رؤوسهم به ويشتهروا بذلك.

- الذين لا يكترثون بالعلم، ولا يهتمون بسماعه ولا بالتفقه في الدين، ولم يقبلوا هدى الله. فهؤلاء كالقيعان، وهم صنوف الجاهلين.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٩)، ومسلم رقم (٢٢٨٢).

ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا؛ أي: لم يشتهر ولم يكن إمامًا، وهم يقابلهم: الأجادب الذين أمسكوا العلم ولم يتفقهوا فيه وأدوه إلى من بعدهم.

فحال أهل السنة دائر بين الصنفين الأولين. وأما أهل الأهواء والبدع فهم كالصنف الثالث قيعان لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأً، لا يحتفون بالأحاديث والآثار، ويتكلمون بمحض عقولهم ومواجدهم وأذواقهم وكشفهم المزعوم.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(قال الزهري إمام الأئمة، وغيره من علماء الأمة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: على الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم[(١)]).

(وروى يونس بن عبد الصمد بن معقل، عن أبيه: أن الجعد بن درهم قدم على وهب بن منبه، يسأله عن صفات الله تعالى، فقال: ويلك يا جعد! بعض المسألة! إني لأظنك من الهالكين، يا جعد! لو لم يخبرنا الله في كتابه أن له يدًا وعينًا ووجهًا، لما قلنا ذلك، فاتق الله. ثم لم يلبث جعد أن قُتل وصُلب[(٢)]).

(وخطب خالد بن عبد الله القسري يوم الأضحى بالبصرة، فقال في آخر خطبته: انصرفوا إلى منازلكم، وضحوا، بارك الله لكم في ضحاياكم، فإني مضح اليوم بالجعد بن درهم، فإنه يقول: لم يتخذ الله إبراهيم خليلًا، ولم يكلم موسى تكليمًا، سبحانه وتعالى عما يقول الجعد علوًّا كبيرًا، ونزل عن المنبر فذبحه بيده، وأمر بصلبه)[(٣)].

الشَّرْح

لما ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الفرق العظيم بين أهل السنة وأهل البدع، أتبعه بقول أمير المؤمنين في الحديث محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، وكان من أوعية العلم، وجبلًا من الجبال في الرواية والدراية:

- (على الله البيان)؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة: ١٩].
- (وعلى الرسول البلاغ)؛ قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ

(١) أخرجه البخاري معلقًا: (٩/ ١٥٤).
(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي (٥/ ٤٣٣).
(٣) خلق أفعال العباد، للبخاري (٢٩)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ٣١٩).

﴿٥٤﴾ [النور: ٥٤]. وقد بلغ النبي ﷺ ما نزل إليه من ربه حتى قال للأمة يوم عرفة: «**وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟**»، قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: «**اللهُمَّ، اشْهَدْ، اللهُمَّ، اشْهَدْ**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[(١)].

- (وعلينا التسليم)؛ قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

ثم ذكر المصنف قصة جرت بين وهب بن منبه رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو من التابعين، من مسلمة أهل الكتاب، وبين رجل يقال له: الجعد بن درهم، وهو أول من عرف بالتعطيل في أمة محمد ﷺ. وقد تفرس فيه وهب بن منبه البدعة، لما كان يراجعه في صفات الله، ورآه مفتونًا باتباع المتشابه، ومسائل اللغط والشغب والخصومات، فزجره وحذَّره، وبيَّن له بأن الله لو لم يخبرنا في كتابه أن له يدًا وعينًا ووجهًا، ما قلنا به؛ لأن أسماء الله وصفاته توقيفية. فصدقت فراسته فيه وهلك. قال الإمام البخاري بسنده عن أبي حبيب، قَالَ: شَهِدْتُ خَالِدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الْقَسْرِيَّ بِوَاسِطَ، فِي يَوْمِ أَضْحًى، وَقَالَ: «ارْجِعُوا فَضَحُّوا تَقَبَّلَ اللهُ مِنْكُمْ، فَإِنِّي مُضَحٍّ بِالْجَعْدِ بْنِ دِرْهَمٍ، زَعَمَ أَنَّ اللهَ لَمْ يَتَّخِذْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَمْ يُكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا، تَعَالَى اللهُ عُلُوًّا كَبِيرًا عَمَّا يَقُولُ الجعد بْنُ دِرْهَمٍ، ثُمَّ نَزَلَ فَذَبَحَهُ». قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: قَالَ قُتَيْبَةُ: «بَلَغَنِي أَنَّ جَهْمًا كَانَ يَأْخُذُ الْكَلَامَ مِنَ الْجَعْدِ بْنِ دِرْهَمٍ»[(٢)].

وقد ذكر ابن القيم هذا في نونيته، فقال:

ولأجل ذا ضحى بجعد *** خالد القسري يوم ذبائح القربان

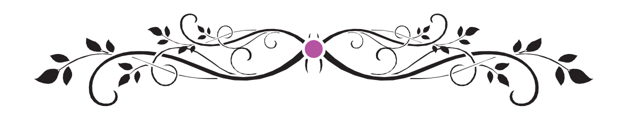
إذ قال إبراهيم ليس خليله *** كلا ولا موسى الكليم الداني

شكر الضحية كل صاحب سنة *** للَّـه درك من أخي قربان

وإنما استحق هذا الجزاء لأنه أنكر صريح القرآن، ونفى صفة الخلة والكلام.

(١) أخرجه مسلم رقم (١٢١٨).

(٢) خلق أفعال العباد (ص٢٩).



النزول والمجيء والإتيان والرد على المنكرين

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(ويثبت أصحاب الحديث نزول الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كل ليلة إلى السماء الدنيا، من غير تشبيه له بنزول المخلوقين ولا تمثيل، ولا تكييف؛ بل يثبتون ما أثبته رسول الله ﷺ، وينتهون فيه إليه، ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره، ويكلون علمه إلى الله).

(وكذلك يثبتون ما أنزله الله، عز اسمه، في كتابه، من ذكر المجيء والإتيان المذكورين في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله عز اسمه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]).

(قرأت في رسالة الشيخ أبي بكر الإسماعيلي إلى أهل جيلان[(١)] أن الله سبحانه ينزل إلى السماء الدنيا، على ما صح به الخبر عن الرسول ﷺ، وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]، ونؤمن بذلك كله على ما جاء بلا كيف. فلو شاء سبحانه أن يبين لنا كيفية ذلك فعل. فانتهينا إلى ما أحكمه، وكففنا عن الذي يتشابه؛ إذ كنا قد أمرنا به في قوله عَزَّ وَجَلَّ:

(١) اعتقاد الإسماعيلي، قال: (وأنه عَزَّ وَجَلَّ ينزل إلى السماء على ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ بلا اعتقاد كيف فيه). (ص٤٢).

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧]).

الشَّرْح

تضمنت هذه القطعة من كلام المصنف إثبات صفات: النزول، والإتيان، والمجيء، وهي من صفات الله الفعلية المتعلقة بمشيئته وحكمته؛ يفعلها متى شاء كيف شاء؛ إذ لم يزل مريدًا فعَّالًا؛ كما قال: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٠٧]، [البروج: ١٦].

ويثبت أصحاب الحديث ذلك لله ﷻ إثباتًا لائقًا بجلاله؛ بلا تمثيل ولا تكييف؛ لأنه لا سبيل إلى إدراك كيفية ما أخبر الله تعالى به عن نفسه؛ فكما أن ذاته لا تشبه الذوات، فصفاته لا تشبه الصفات، فإن الكلام على الصفات فرع عن الكلام على الذات يحتذي حذوه. فالواجب الصيرورة إلى ما ورد في الآثار، مع الإقرار والإمرار على ظاهره اللائق بالعزيز الغفار، وتفويض كيفية ذلك إليه، والكف عن ابتغاء تأويل حقيقته التي هي عليه في الواقع.

وقد قدَّم المصنف ذكر الإتيان والمجيء، باعتبار أنهما يقتضيان النزول، ويدلان عليه. واستدل لهما بناطق الكتاب، وعضد تقريره للمسألة بما قرره الإمام الحافظ أبو بكر الإسماعيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في رسالته المشهورة لأهل آمل طبرستان، وبلاد جيلان، وقد سبقت الإشارة إليها.

وفي كتاب الله وسنة نبيه ﷺ أدلة أخرى، سوى ما استدل به المصنف، ونقله؛ كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وقوله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل: «**فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فِي الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ**»[(١)]، وفي لفظ: «**فَيَأْتِيهِمُ الجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ**

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٥٧٣)، ومسلم رقم (١٨٢).

الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ»[(١)].

وينبغي التنبه إلى أن «الإتيان» و«المجيء» يرِدان في النصوص على وجهين:

ـ مطلق: كما في قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾ [الفجر: ٢٢]. فيدلان حينئذ على الصفة.

ـ مقيد: كما في قوله تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦]، وقوله ﷺ في تعبير رؤياه: «**فَإِذَا هُوَ مَا جَاءَ اللهُ بِهِ مِنَ الفَتْحِ، وَاجْتِمَاعِ المُؤْمِنِينَ**»[(٢)]، فلا تدل على الوصف؛ بل تتقيد بما قيدت به.

فأثبت أهل الحديث إتيانًا ومجيئًا حقيقيين لائقين بالله تعالى، لا يماثلان إتيان المخلوقين ومجيئهم، ولا يمكن حكاية كيفيتهما؛ لأن الله أخبر أنه يأتي ويجيء، ولم يخبر كيف يأتي ويجيء، فوجب المصير إلى المحكم، والكف عن المتشابه.

أما أهل الأهواء والبدع فقد تبادر إلى أذهانهم من النصوص معنى التمثيل، ففروا منه إلى التعطيل، وطفقوا يبحثون عن معانٍ مجازية من عند أنفسهم، تصرف النص عن حقيقته، فقالوا:

ـ إن معنى إتيان الله: إتيان أمره، أو ملائكته! لقوله في الآية الأخرى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾ [النحل: ٣٣]. والرد عليهم: أن الله تعالى قال: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فعطف إتيانه على إتيان ملائكته، وعطف إتيان آياته، التي هي من أمره، على إتيانه، والعطف يقتضي المغايرة.

ـ إن معنى مجيئه مجيء ملائكته أو أمره! والرد عليهم أن آية المجيء أثبتت مجيء ملائكته مع مجيئه؛ كما قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٤٣٩).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٧٠٤١)، ومسلم رقم (٢٢٧٢).

[الفجر: ٢٢]. وكيف يكون مجيء ملائكته على حقيقته، ومجيئه مؤولًا بمجيء أمره وهما في سياق واحد!؟ كما أن ذلك يقتضي أن في الكلام حذفًا والأصل عدم الحذف.

وسر هذا الاختلاف راجع إلى ما ذكره الله تعالى في آية آل عمران: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾؛ أي: واضحات الدلالة، ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ يعني: هن عامة المصحف وأكثره، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾؛ يعني: حمالات أوجه، فيقع فيها تشابه نسبي لبعض الناس دون بعض، وليس تشابهًا مطلقًا يتعذر معه العلم بمراد الله. ثم ذكر الله تعالى طريقتين حيال الآيات المتشابهات:

ـ **طريقة الزائغين**: فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾؛ زيغ: يعني: هوى وميل وانحراف، ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ﴾، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: (﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾؛ أَي: الْإِضْلَالِ لِأَتْبَاعِهِمْ، إِيهَامًا لَهُمْ أَنَّهُمْ يَحْتَجُّونَ عَلَى بِدْعَتِهِمْ بِالْقُرْآنِ، وَهَذَا حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ لَا لَهُمْ... ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ﴾؛ أَيْ: تَحْرِيفِهِ عَلَى مَا يُرِيدُونَ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ وَالسُّدِّيُّ: يَبْتَغُونَ أَنْ يَعْلَمُوا مَا يَكُونُ، وَمَا عَوَاقِبُ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْقُرْآنِ)[١].

فأهل الزيغ مفتونون بالمغالطات والخصومات، وطلب ما لا يمكنهم إدراكه من معرفة الكيفيات، وكنه الصفات، ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾؛ يعني: لا يعلم كيفية وحقيقة صفات الله التي تؤول إليها، إلا هو سبحانه، وأكثر القراء يقفون على قوله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾؛ باعتبار أن «التأويل» من الأوْل، وهو الرجوع؛ كما قال مقاتل والسدي: علم ما يكون وعاقبته؛ أي: كنهه وكيفيته. وأما على قراءة الوصل، فيكون معنى «التأويل» التفسير، وهو ما يعلمه الراسخون في العلم من أصل المعنى، والناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، ونحو ذلك.

(١) تفسير القرآن العظيم، ت: السلامة (٢/ ٨).

ـ **طريقة الراسخين**: قال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧﴾؛ أي: أن الراسخين في العلم لا يلتبس عليهم ذلك؛ بل يقولون: المحكم من عند الله، والمتشابه من عند الله، ولا يمكن أن يتعارض كلام الله، فيحملون المتشابه على المحكم، ولا يقع في قلوبهم شيء من الزيغ؛ بل يصدقون كلام الله، ويجعلون بعضه يشبه بعضًا، ويصدق بعضه بعضًا، ولا يضربون بعضه ببعض؛ بل يثبتون المعنى، ويفوضون الكيفية إلى الله تعالى.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

۞ (أخبرنا أبو بكر بن زكريا الشيباني، سمعت أبا حامد بن الشرقي يقول: سمعت حمدان السلمي، وأبا داود الخفاف يقولان: سمعنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يقول: قال لي الأمير عبد الله بن طاهر: يا أبا يعقوب! هذا الحديث الذي ترويه عن رسول الله ﷺ: «**ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا**»، كيف ينزل؟ قال: قلتُ: أعز الله الأمير! لا يقال لأمر الرب: كيف؟ إنما ينزل بلا كيف)(١).

الشَّرْح

هذه محاورة جرت بين الأمير عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي، والي خراسان وما وراء النهر، وإسحاق بن إبراهيم الحنظلي، المشهور بابن راهويه، من كبار المحدثين، ومن أقران الإمام أحمد، رحمهم الله. فسأل الأمير سؤال مستفهم مستعلم عن كيفية النزول! فتلطف إسحاق في جوابه، ولم يعنف عليه تعنيف الإمام مالك لمن سأله عن كيفية الاستواء؛ لاختلاف حال السائلَين، وبيَّن للأمير أن هذا سؤال فاسد الوضع، فلا يسوغ السؤال عن الكيف؛ بل يثبت معنى النزول بلا تكييف.

وهذا يفيد طالب العلم أن ينزل الناس منازلهم، ويراعي اختلاف الحال بين ظهور السنة، وفشو العلم، وبين كثرة الشبهات، وانحسار العلم. ففي زمن الإمام مالك، ومكانه، كان هذا السؤال ينبو على الأسماع، ولا يصدر إلا عن من في قلبه زيغ، أما في زمن إسحاق بن راهويه، فقد أطلت البدع، وظهر الكلام، فالتمس إسحاق العذر للأمير، وتلطف في جوابه وإفهامه.



(١) الأسماء والصفات، للبيهقي (ص٤٥٢، ٤٥٣).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

۞ (حدثنا أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم العدل، حدثنا محبوب بن عبد الرحمن القاضي، حدثني جدي أبو بكر محمد بن أحمد بن محبوب، حدثنا أحمد بن حمويه، حدثنا أبو عبد الرحمن العتكي، حدثنا محمد بن سلام، قال: سألت عبد الله بن المبارك عن نزول ليلة النصف من شعبان، فقال عبد الله: يا ضعيف! في كل ليلة ينزل، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، كيف ينزل؟ أليس يخلو ذلك المكان منه؟ فقال عبد الله: ينزل كيف شاء)[(١)].

۞ (وفي رواية أخرى لهذه الحكاية: أن عبد الله بن المبارك قال للرجل: إذا جاءك الحديث عن رسول الله ﷺ فاخضع له).

الشَّـرْح

وهذه قصة أخرى تبين تعامل السلف مع المستنكرين لأحاديث الصفات الفعلية، فلما استشكل سائل ما رُوي من نزول الرب تعالى ليلة النصف من شعبان، وبخه عبد الله بن المبارك، وأخبره أن نزوله تعالى لا يقتصر على ليلة النصف من شعبان؛ بل ينزل كل ليلة. فقال له رجل: كيف ينزل؟ أليس يخلو ذلك المكان منه؟ وهذا يشعر أن السائل تبادر إلى ذهنه معنىً من معاني التكييف، والقياس على المخلوقين، فأجاب ابن المبارك بجواب حاسم: ينزل كيف يشاء. وفي رواية أنه قال: إذا جاءك الحديث عن رسول الله ﷺ فاخضع له.

فالواجب على كل مؤمن ومؤمنة إذا جاء الخبر عن رسول الله أن يبادر بالقبول والتسليم، واعتقاد التنزيه، والبعد عن التكلف والتمثيل والتكييف، فإن

(١) الأسماء والصفات، للبيهقي (ص٤٥٣).

العقول أقصر من أن تحيط بما ينبغي لله ﷻ، فإن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، ونبيه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤].



قال المؤلف رحمه الله تعالى:

(سمعت الحاكم أبا عبد الله الحافظ يقول: سمعت أبا زكريا يحيى بن محمد العنبري يقول: سمعت إبراهيم بن أبي طالب يقول: سمعت أحمد بن سعيد بن إبراهيم أبا عبد الله الرباطي يقول: حضرت مجلس الأمير عبد الله بن طاهر ذات يوم، وحضر إسحاق بن إبراهيم ـ يعني: ابن راهويه ـ فسئل عن حديث النزول: أصحيح هو؟ قال: نعم).

(فقال له بعض قواد عبد الله: يا أبا يعقوب! أتزعم أن الله تعالى ينزل كل ليلة؟ قال: نعم. قال: كيف ينزل؟ فقال له إسحاق: أَثبته فوق حتى أصف لك النزول، فقال الرجل: أَثبَتُّه فوق، فقال إسحاق: قال الله ﷻ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ [الفجر: ٢٢]، فقال الأمير عبد الله: يا أبا يعقوب! هذا يوم القيامة. فقال إسحاق: أعز الله الأمير، ومن يجيء يوم القيامة من يمنعه اليوم؟)[(١)].

الشَّرْح

هذه مناظرة أخرى جرت لإسحاق ابن راهويه رَحِمَهُ اللهُ، في مسألة النزول، سوى المناظرة؛ السابقة؛ لاختلاف السياق. فقد سئل عن صحة حديث النزول، فصححه، فانبرى أحد قواد الأمير عبد الله بن طاهر، فسأله مستنكرًا: هل يقول بنزول الرب كل ليلة، فأجاب بثبات: نعم. فقال المعترض، وظن أنه سينقطع: كيف ينزل؟ فدعاه إسحاق أن يصرح بإثبات علوه وفوقيته، فأقر بذلك؛ إذ لا سبيل له إلى إنكاره. فلما أقر بذلك تلا عليه قول الله تعالى:

(١) مختصر العلو، للذهبي (١٩٣).

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]، ولازم ذلك أنه يفعل ما يشاء متى شاء. فاستدرك الأمير بأن ذلك المجيء يقع يوم القيامة، فأجاب إسحاق بأن من يجيء يوم القيامة، يمكن أن يجيء اليوم؛ إذ النزول نوع من المجيء، ولا مانع من ذلك شرعًا ولا عقلًا؛ بل قد قام الدليل الشرعي الصحيح على إثباته، فانقطع المعارض.

إشكال: يقول بعض الناس: إذا كان ينزل كل ليلة في الثلث الأخير من الليل، فإن ذلك يقتضي أن يكون في نزول دائم! لأن الثلث الأخير يتنقل من مكان لآخر.

وجوابه: أن هذا الإيراد إذا سيق على سبيل الاعتراض، فصاحبه على خطر؛ لأنه يتضمن رد كلام الله وكلام رسوله ﷺ. قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد اعترض بعض من كان يعرف هذا عَلَى حديث «النزول ثلث الليل الآخر»، وقال: ثلث الليل يختلف باختلاف البلدان، فلا يمكن أن يكون النزول في وقت معين. ومعلوم بالضرورة من دين الإسلام قبح هذا الاعتراض، وأن الرسول ﷺ أو خلفاءه الراشدين لو سمعوا من يعترض به لما ناظروه؛ بل بادروا إِلَى عقوبته أو إلحاقه بزمرة المخالفين المنافقين المكذبين)(١).

وقد يقع هذا الخاطر في قلب مستفهم معظم لله، فيجاب عنه: بأن الله لا يقاس بخلقه، فالله ليس كمثله شيء، فما دام أنه أخبر بأن هذا يقع في الثلث الأخير، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يشبه بخلقه، ولا تضرب له الأمثال، فيجرى الخبر على ظاهره دون بحث وتنقير.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أهل الحديث(٢) في النزول على ثلاث فرق:

- فرقة منهم: تجعل النزول من الأفعال الاختيارية التي يفعلها الله

(١) مجموع رسائل ابن رجب: (٣/ ١٣).
(٢) أراد بأهل الحديث هنا المعنى الأعم، وهم المشتغلون بعلم الحديث، ولو شاب بعضهم شائبة كلامية، كما سيتبين.

بمشيئته وقدرته، وهو المروي عن ابن المبارك، ونعيم بن حماد، وإسحاق بن راهويه، وعثمان الدارمي. وهو قول طائفة من أصحابنا. ومنهم: من يصرح بلوازم ذلك من إثبات الحركة. وقد صنف بعض المحدثين المتأخرين من أصحابنا مصنفًا في إثبات ذلك[١]، ورواه عن الامام أحمد من وجوه كلها ضعيفة، لا يثبت عنه منها شيء[٢]. وهؤلاء؛ منهم من يقول: ينزل بذاته؛ كابن حامد من أصحابنا.

وقد كان الحافظ إسماعيل بن التميمي[٣] الأصبهاني الشافعي يقول بذلك، وجرى بينه وبين طائفة من أهل الحديث، بسببه، فتنة وخصام. قال الحافظ أبو موسى المديني: كان من اعتقاد الإمام إسماعيل: أن نزول الله تعالى بالذات، وهو مشهور من مذهبه، لكنه تكلم في حديث نعيم بن حماد الذي رواه بإسناده في النزول بالذات. قال: وهو إسناد مدخول، وفيه مقال، وفي بعض رواته مطعن، ولا تقع بمثله الحجة، فلا يجوز نسبة قوله إلى رسول الله ﷺ.

ـ **والفرقة الثانية:** تقول: إن النزول إنما هوَ نزول الرحمة، ومنهم من يقول: هوَ إقبال الله على عباده، وإفاضة الرحمة والإحسان عليهم. ولكن يرد

---

(١) أي: التصريح بإثبات اللوازم؛ كالحركة.

(٢) لعله يشير إلى إسماعيل بن حرب الكرماني رحمه الله. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وَقد نُقل فِي رِسَالَة عَنهُ إِثْبَات لفظ الْحَرَكَة مثل مَا فِي العقيدة الَّتِي كتبهَا حَرْب بن إسماعيل، وَلَيْسَت هَذِه العقيدة ثَابِتَة عَن الإِمَام أَحْمد بألفاظها، فإني تَأَمَّلت لَهَا ثَلَاثَة أَسَانِيد مظْلمَة، بِرِجَال مَجَاهِيل. والألفاظ هِيَ أَلْفَاظ حَرْب بن إِسْمَاعِيل، لَا أَلْفَاظ الإِمَام أَحْمد، وَلم يذكرهَا المعنيون بِجمع كَلَام الإِمَام أَحْمد؛ كَأبي بكر الْخلال فِي كتاب «السّنة»، وَغَيره من الْعِرَاقِيّين الْعَالمين بِكِتَاب أَحْمد، وَلَا رَوَاهَا المعروفون بِنَقْل كَلَام الإِمَام، لَا سِيمَا مثل هَذِه الرسَالَة الْكَبِيرَة، وَإِن كَانَت راجت على كثير من الْمُتَأَخِّرين). الاستقامة (١/ ٧٣).

(٣) الصواب: التيمي، وليس التميمي. وهو الإمام الحافظ، قوَّام السنة أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني، المتوفى سنة ٥٣٥هـ، رحمه الله، صاحب كتاب: الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة (مطبوع).

ذَلِكَ: تخصيصه بالسماء الدنيا، وهذا نوع من التأويل لأحاديث الصفات. وقد مال إليه في حديث النزول ـ خاصة ـ طائفة من أهل الحديث؛ منهم: ابن قتيبة، والخطابي، وابن عبد البر. وقد تقدم عن مالك ـ وفي صحته عنه نظر ـ، وقد ذهب إليه طائفة ممن يميل إلى الكلام من أصحابنا، وخرجوه عن أحمد من رواية حنبل عنه، في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، أن المراد: وجاء أمر ربك. وقال ابن حامد: رأيت بعض أصحابنا حكى عن أبي عبد الله في الإتيان، أنه قال: تأتي قدرته. قال: وهذا على حد التَّوهم من قائله، وخطأ في إضافته إليه. وقد روي فيه حديث موضوع: «إن نزول الله تعالى إقباله على الشيء من غير نزول». وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات». وهذا الحديث مقابل لحديث نعيم بن حماد الذي رواه في النزول بالذات. وكلاهما باطل، لا يصح.

ـ **والفرقة الثالثة:** أطلقت النزول كما ورد، ولم تتعد ما ورد، ونفت الكيفية عنه، وعلموا أن نزول الله تعالى ليس كنزول المخلوق. وهذا قول أئمة السلف: حماد بن زيد، وأحمد؛ فإن حماد بن زيد سئل عن النزول، فقال: هو في مكانه، يقرب من خلقه كيف شاء. إلى أن قال: وقال حنبل: قلت لأبي عبد الله: ينزل الله تعالى إلى السماء الدنيا؟ قال: نعم. قلت: نزوله بعلمه أو بماذا؟ قال لي: اسكت عن هذا، ما لك ولهذا؟! أمضِ الحديث على ما روي، بلا كيف ولا حد؛ إلا بما جاءت به الآثار، وبما جاء به الكتاب؛ قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ﴾، ينزل كيف شاء؛ بعلمه وقدرته وعظمته، أحاط بكل شيء علمًا، لا يبلغ قدره واصف، ولا ينأى عنه هارب. انتهى. إلى أن قال: والزيادة على ما ورد في النزول؛ من ذكر الحركة، والانتقال، وخلو العرش وعدمه؛ كله بدعة، والخوض فيه غير محمود.

قال أبو داود الطيالسي: كان سفيان الثوري، وشعبة، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وشريك، وأبو عوانة، لا يُجسِّدون، ولا يُشبِّهون، ولا يُمثِّلون الحديث، لا يقولون: كيف؟ وإذا سئلوا أجابوا بالأثر.

خرجه البيهقي)[(١)].

فكلام السلف منحصر في الفرقتين الأولى والثالثة، وكلتاهما تثبت حقيقة النزول، وتنأى عن التمثيل، والتكييف، والتحريف «التأويل»؛ بل والتجهيل «التفويض»، فإنه لا يحتاج للاحتراز من التمثيل والتكييف إلا من يثبت أصل المعنى. وإنما وقع الاختلاف في لفظ «الحركة» و«النقلة»؛ نفيًا وإثباتًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: (لفظ الْحَرَكَة أثْبته طوائف من أهل السّنة والْحَدِيث، وَهُوَ الَّذِي ذكره حَرْب بن اسماعيل الْكرْمَانِي فِي السّنة الَّتِي حَكَاهَا عَن الشُّيُوخ الَّذين أدركهم؛ كالحميدي وَأحمد بن حَنْبَل، وَسَعِيد بن مَنْصُور، وَإِسْحَاق ابن إِبْرَاهِيم، وَكَذَلِكَ هُوَ الَّذِي ذكره عُثْمَان بن سعيد الدارمي فِي نقضه على بشر المريسي، وَذكر أَن ذَلِك مَذْهَب أهل السّنة، وَهُوَ قَول كثير من أهل الْكَلَام والفلسفة؛ من الشِّيعَة والكرامية والفلاسفة الْأَوَائِل والمتأخرين؛ كَأبي البركات صَاحب الْمُعْتَبر، وَغَيرهم.

ونفاه طوائف؛ مِنْهُم: أَبُو الْحسن التَّمِيمِي، وَأَبُو سُلَيْمَان الْخطابِيّ، وكل من أثْبتْ حُدُوث الْعَالم بحدوث الْأَعْرَاض؛ كأبي الْحسن الْأَشْعَرِيّ، والقاضي أبي بكر ابن الباقلاني، وأبي الْوَفَاء بن عقيل، وَغَيرهم مِمَّن سلك فِي إِثْبَات حُدُوث الْعَالم هَذِه الطَّرِيقَة الَّتِي أَنْشَأَهَا قبلهم الْمُعْتَزلَة. وَهُوَ أَيْضا قَول كثير من الفلاسفة الْأَوَائِل والمتأخرين؛ كابن سينا وَغَيره.

وَالْمَنْصُوص عَن الإِمَام أَحْمد: إِنْكَار نفي ذَلِك. وَلم يثبت عَنهُ إِثْبَات لفظ الْحَرَكَة، وَإِن أثبت أنواعًا قد يدرجها الْمُثبت فِي جنس الْحَرَكَة، فَإِنَّهُ لما سمع شخصًا يرْوي حَدِيث النُّزُول، وَيَقُول: ينزل بِغَيْر حَرَكَة وَلَا انْتِقَال وَلَا تَغَيُّر حَال، أنكر أَحْمد ذَلِك، وَقَالَ: قل كَمَا قَالَ رَسُول الله ﷺ، فَهُوَ كَانَ أغير على ربه مِنْك)[(٢)].

---

(١) فتح الباري لابن رجب (٩/ ٢٧٧ ـ ٢٨١)، وأثبت المحققون أنها قطعة من شرح ابن رجب لحديث النزول، رغم أن كتاب التهجد المتضمن له سقط من المخطوط. انظر: (٩/ ٢٧٧)، حاشية (١).

(٢) الاستقامة: (١/ ٧٠ ـ ٧٣).

ولا ريب أن لفظ «الحركة» من الألفاظ المجملة التي لم يرد بخصوصها نفي ولا إثبات، فكان المتعين التوقف في لفظها، والاستفصال عن معناها.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ يَقُولُ: الْمَعْنَى صَحِيحٌ، لَكِنْ لَا يُطْلَقُ هَذَا اللَّفْظُ لِعَدَمِ مَجِيءِ الْأَثَرِ بِهِ؛ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ وَغَيْرُهُ فِي كَلَامِهِمْ عَلَى حَدِيثِ النُّزُولِ. وَالْقَوْلُ الْمَشْهُورُ عَنْ السَّلَفِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ: هُوَ الْإِقْرَارُ بِمَا وَرَدَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِنْ أَنَّهُ يَأْتِي وَيَنْزِلُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْأَفْعَالِ اللَّازِمَةِ)[1].

فالواجب على المؤمن إثبات حقيقة النزول على الوجه اللائق بالله، وعدم تحريفه أو تكييفه، ولا يلزمه التعبير بالحركة أو غير ذلك من اللوازم. والله أعلم.



(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٧٧)، ولمزيد من تحرير الكلام حول مصطلح الحركة، ودلالاته عند مختلف الفرق، انظر: شرح حديث النزول، لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٧٨ ـ آخر الشرح).

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

(وخبر نزول الرب كل ليلة إلى السماء الدنيا خبر متفق على صحته، مخرج في الصحيحين من طريق مالك بن أنس، عن الزهري، عن الأغر، وأبي سلمة، عن أبي هريرة).

(أخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد، قال: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد، حدثنا أبو مصعب حدثنا مالك).

((ح) حدثنا أبو بكر بن زكريا، حدثنا أبو حاتم مكي بن عبدان، حدثنا محمد بن يحيى، قال: وفيما قرأت على ابن نافع، وحدثني مطرف، عن مالك).

((ح) وحدثنا أبو بكر بن زكريا، أخبرنا أبو القاسم عبيد الله بن إبراهيم بن بالويه، حدثنا يحيى بن محمد، حدثنا يحيى بن يحيى، قال: قرأت على مالك، عن ابن شهاب الزهري، عن أبي عبد الله الأغر، وأبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟**»(١).

الشَّرْح

هذه ثلاثة طرق رواها المصنف بسنده عن مالك عن الزهري عن الأغر وأبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ؛ بلفظ واضح صريح صحيح متفق عليه.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (١١٤٥)، ومسلم رقم (٧٥٨).

قوله: (يَنْزِلُ رَبُّنَا)؛ أسند النبي ﷺ النزول إلى ربه، فلا يجوز صرفه عن ظاهره؛ لأن ذلك يقتضي وجود محذوف، والأصل عدم الحذف.

قوله: (كُلَّ لَيْلَةٍ)؛ فلا يختص بليلة من الليالي؛ بل يتناول كل ليلة.

قوله: (السَّمَاءِ الدُّنْيَا)؛ وسميت «دنيا» لدنوها من الأرض. فذلك منتهى النزول.

قوله: (حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ)؛ الليل: من غروب الشمس إلى طلوع الفجر. يقول: (يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ)؛ القائل هو الذي ينزل، وهو الله، لا أحد سواه. وفي هذا إغراء عظيم، فلو قيل للناس: إنه في ليلة من الليالي ستوزع منح أو عطايا أو هدايا، في مكان ما لرأيت الناس يسهرون ليلتهم تلك، ويفِدون زرافاتٍ ووحدانًا لينالوا لعاعة من الدنيا، كما تراهم يزدحمون عند توزيع الأشياء المجانية، والسلع المخفضة! وربنا سبحانه وبحمده، يعرض هذه العروض المغرية، والوعود الصادقة، كل ليلة، والناس يتقلبون في فرشهم غير آبهين، مما يدل على ضعف اليقين. وهذا من أحرى مواطن الإجابة، وأرجى ساعات المغفرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾ [الذاريات: ١٨].



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

❁ (ولهذا الحديث طرق إلى أبي هريرة:

❁ رواه الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة.

❁ ورواه يزيد بن هارون وغيره من الأئمة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة.

❁ ومالك، عن الزهري، عن الأعرج، عن أبي هريرة.

❁ ومالك، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة.

❁ وعبيد الله بن عمر، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة.

❁ وعبد الأعلى بن أبي المساور وبشير بن سليمان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة). فهذه ستة طرق إلى أبي هريرة، سوى الطريق الذي رواه بسنده. ثم قال:

❁ (وروي هذا الخبر من غير طريق أبي هريرة.

❁ رواه نافع بن جبير بن مطعم، عن أبيه.

❁ وموسى بن عقبة، عن إسحاق بن يحيى، عن عبادة بن الصامت.

❁ وعبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن جابر بن عبد الله.

❁ وعبيد الله بن أبي رافع، عن علي بن أبي طالب.

❁ وشريك، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود.

۞ ومحمد بن كعب، عن فضالة بن عبيد، عن أبي الدرداء.

۞ وأبو الزبير، عن جابر.

۞ وسعيد بن جبير، عن ابن عباس.

۞ وعن أم المؤمنين عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما.

۞ وهذه الطرق كلها مخرجة بأسانيدها في كتابنا الكبير المعروف بالانتصار).

۞ فهؤلاء عشرة من الصحابة، سوى أبي هريرة رضي الله عنهم، رووا حديث النزول. ثم بين المصنف رحمه الله، ما تضمنته بعض السياقات من فروقات وزيادات، فقال:

۞ (وفي رواية يزيد بن هارون عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة، والأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا مضى نصف الليل، أو ثلثاه، ينزل الله إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائل فيعطى؟ هل من داعٍ فيستجاب له؟ هل من مستغفر فيغفر له؟ حتى ينفجر الصبح**»[(١)].

۞ وفي رواية سعيد بن مرجانة، عن أبي هريرة زيادة في آخره وهي: «**ثم يبسط يديه فيقول: من يُقرض غير عدوم ولا ظلوم**»[(٢)].

۞ وفي رواية أبي حازم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الله ينزل إلى السماء الدنيا، في ثلث الليل الأخير، فينادي: هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ فلا يبقى شيء فيه الروح إلا علم به، إلا الثقلان الجن والإنس**»، قال: وذلك حين تصيح

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٧٥٨).

(٢) أخرجه مسلم رقم (٧٥٨).

الديوك، وتنهق الحمير، وتنبح الكلاب[١].

❁ وفي رواية موسى بن عقبة، عن إسحاق بن يحيى، عن عبادة بن الصامت زيادات حسنة، وهي التي أخبرنا بها أبو يعلى حمزة بن عبد العزيز المهلبي، قال: أنبأنا عبد الله بن محمد الرازي، أنبأنا أبو عثمان محمد بن عثمان بن أبي سويد، قال: حدثنا عبد الرحمن ـ يعني: ابن المبارك ـ، قال: حدثنا فضيل بن سليمان، عن موسى بن عقبة، عن إسحاق بن يحيى، عن عبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ينزل الله تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حتى يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: ألا عبد من عبادي يدعوني فأستجيبَ له؟ ألا ظالم لنفسه يدعوني فأغفرَ له؟ ألا مُقترٌ عليه رزقه فيدعوني فأرزقَه؟ ألا مظلوم يذكرني فأنصرَه؟ ألا عانٍ يدعوني فأفكَّه؟ قال: فيكون كذلك إلى أن يطلع الصبح، ويعلو على كرسيه**»[٢].

❁ وفي رواية أبي الزبير عن جابر، من طريق مرزوق أبي بكر الذي خرجه محمد بن إسحاق بن خزيمة، مختصرة.

❁ ومن طريق أيوب عن أبي الزبير عن جابر، الذي خرجه الحسن بن سفيان في مسنده).

الشَّرْح

هذه الأحاديث المتكاثرة المتواترة تدل على ما اعتقده أهل السنة والجماعة من إثبات نزول الرب ﷻ إلى سماء الدنيا، نزولًا يليق بجلاله وعظمته، لا يكيَّف ولا يمثل. أما أهل الأهواء والبدع فمنهم من رد الحديث

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٣٤٧)، والآجري في الشريعة (ص٣٢١).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط رقم (٦٠٧٩)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٥٤)، والشريعة، للآجري (٧١٧). وضعفه ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤٧٦).

مع ثبوته في الصحيحين، وبلوغه مبلغ التواتر، مع ذلك ردوه، ومنهم من حرف دلالته لما أعياهم إنكار نسبته إلى النبي ﷺ؛ لثبوته بالأسانيد الجياد التي لا يستطيع الطعن فيها، فزعموا أن المقصود بقوله: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا**»؛ أي: ينزل أمر ربنا، أو تنزل رحمة ربنا، أو ينزل ملك من ملائكة ربنا! والرد عليهم من وجوه:

أولًا: أن النبي ﷺ أسند النزول إلى ربه، ولو شاء النبي ﷺ لقال: ينزل أمر ربنا، لو شاء لقال: تنزل رحمة ربنا، ولو شاء لقال: ينزل ملك من ملائكة ربنا، وهو ﷺ أفصح الخلق لسانًا، وأوضحهم بيانًا.

ثانيًا: أن ذلك يقتضي أن يكون في الكلام حذفًا، والأصل عدم الحذف، وإلا، لفسدت العقائد والعقود والمعاملات وغير ذلك، وصار كل مبطل يدعي أن في كلامه حذفًا ليجد لنفسه مخرجًا.

ثالثًا: لو قدر أن النازل ملك من ملائكة ربنا، كما زعموا، فلا يعقل أن يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ هذا لا يصدر إلا من الله سبحانه وتعالى.

رابعًا: لو قدر أن الذي ينزل أمر ربنا، كما زعموا، للزم أن يختص نزوله بهذا الجزء من الزمن! والواقع أن أمره ينزل دومًا وأبدًا؛ كما قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩]. وعَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَرْبَعٍ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَرْفَعُ الْقِسْطَ وَيَخْفِضُهُ، وَيُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ بِاللَّيْلِ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ بِالنَّهَارِ**»[١].

خامسًا: لو قدر أن الذي ينزل رحمته، كما زعموا، فإن منتهى نزولها السماء الدنيا، فأي فائدة للخلق أن يكون منتهى نزول الرحمة سماء الدنيا، فلا تبلغ المرحومين في الأرض؟! فلا محيد لأهل التحريف عن هذه اللوازم الفاسدة. وفساد اللازم يدل على فساد الملزوم.

(١) أخرجه مسلم رقم (١٧٩).

وهذا دليل على أن من تجنى على النصوص بتحريف باطل، فإنه يظهر في النص ما يدفع قوله، ويرد الحق إلى نصابه. ومن لم يسعه ما وَسِعَ النبي ﷺ، وَوَسِع الصحابة، وَوَسِع التابعين، لم يسعه شيء.



ثم قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

۞ (ومن طريق هشام الدستوائي، عن أبي الزبير، عن جابر، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن عشية عرفة ينزل الله فيه إلى السماء الدنيا فيباهي بأهل الأرض أهل السماء، ويقول: انظروا إلى عبادي شعثًا غبرًا ضاحين، جاؤوا من كل فج عميق؛ يرجون رحمتي، ولم يروا عذابي، فلم يُر يومٌ أكثر عتقًا من النار من يوم عرفة**»[1].



هذا خبر آخر في إثبات النزول، يختص بيوم شريف، خير يوم طلعت فيه الشمس، وهو يوم عرفة. ففي عشية عرفة؛ يعني: ما بعد الزوال حتى مغيب الشمس، ينزل الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى السماء الدنيا، فيباهي بأهل الموقف الملائكة الكرام، حال كونهم شعث الرؤوس، غبر الأقدام، ضاحين مكشوفين، ليس شيء يظلهم أو يكنهم، جاؤوا من كل فج عميق؛ يرجون رحمة الله، ولم يروا عذابه. فتدركهم رحمته الواسعة، فلم ير يومٌ أكثر عتقًا من النار من يوم عرفة.

۞ ۞ ۞

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٣٨٥٣)، والطبراني في المعجم الكبير رقم (١٣٥٦٦)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٢٥٣)، وعزاه إلى أبي يعلى، والبزار، وقال: «فيه محمد بن مروان العقيلي، وثقه ابن معين وابن حبان، وفيه بعض كلام. وبقية رجاله رجال الصحيح».

ثم قال المؤلف رحمه الله تعالى:

(وروى هشام الدستوائي، عن يحيى بن أبي كثير، عن هلال بن أبي ميمونة، عن عطاء بن يسار، عن رفاعة الجهني، حدثه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مضى ثلث الليل، أو: شطر الليل، أو: ثلثاه، ينزل الله إلى السماء الدنيا، فيقول: لا أسألُ عن عبادي غيري؛ من يستغفرني فأغفرَ له؟ من يدعوني فأستجيبَ له؟ من يسألني أعطيَه؟ حتى ينفجر الصبح**»[(١)]).

(أخبرنا أبو محمد المخلدي، أخبرنا أبو العباس السراج، حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي مسلم الأغر، قال: أشهد على أبي سعيد وأبي هريرة أنهما شهدا على رسول الله ﷺ، وأنا أشهد عليهما، أنهما سمعا النبي ﷺ يقول: «**إن الله يمهل، حتى إذا ذهب ثلث الليل الأول، هبط إلى السماء الدنيا فيقول: هل من مذنب؟ هل من مستغفر؟ هل من سائل؟ هل من داعٍ؟ حتى تطلع الشمس**»[(٢)]).

الشَّرح

هذا حديث صحيح رواه مسلم، وأحمد مع اختلاف في بعض ألفاظه. وقد نبه العلماء على أن رواية: «حتى تطلع الشمس» شاذة، تفرد بها عبيد الله بن موسى، والمحفوظ في صحيح مسلم وغيره: «حتى ينفجر الفجر»؛ لاتفاق أكثر الرواة عليها.

وفيه التعبير بلفظ: «هبط»، مما يدل على تحقيق معنى النزول، والرد على أهل التأويل والتجهيل.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى رقم (١٠٢٣٩)، وابن ماجه رقم (١٣٦٧)، والطبراني في الدعاء رقم (١٤٣). وصححه ابن القيم. انظر: مختصر الصواعق (٢/ ٢٣٦).

(٢) أخرج مسلم آخره رقم (٧٥٨)، بلفظ: «**حتى ينفجر الفجر**»، وبدون لفظ «**هل من مذنب**».

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(أخبرنا أبو محمد المخلدي، حدثنا أبو العباس الثقفي، حدثنا الحسن بن الصباح، حدثنا شبابة بن سوار، عن يونس بن أبي إسحاق، عن أبي مسلم الأغر، قال: أشهد على أبي سعيد وأبي هريرة أنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يمهل، حتى إذا كان ثلث الليل الأول هبط إلى هذه السماء، ثم أمر بأبواب السماء ففتحت، فقال: هل من سائل فأعطيَه؟ هل من داع فأجيبَه؟ هل من مستغفر فأغفرَ له؟ هل من مضطر أكشف عنه ضره؟ هل من مستغيث أغيثَه؟ فلا يزال ذلك مكانه حتى يطلع الفجر، في كل ليلة من الدنيا»**[(١)].

(أخبرنا أبو محمد المخلدي، حدثنا أبو العباس ـ يعني: الثقفي ـ، حدثنا مجاهد بن موسى والفضل بن سهل، قالا: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا شريك، عن أبي إسحاق، عن الأغر، أنه شهد على أبي هريرة وأبي سعيد، أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال: **«إذا كان ثلث الليل، نزل تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فقال: ألا هل من مستغفر يغفرُ له؟ هل من سائل يعطى سؤله؟ ألا هل من تائب يتابُ عليه»**[(٢)]).

(حدثنا الأستاذ أبو منصور بن حمشاد، حدثنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار ببغداد، حدثنا أبو منصور الرمادي، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن سهيل بن أبي صالح، عن

---

(١) أخرجه الدارقطني في كتاب النزول رقم (٥٥).

(٢) أخرجه مسلم رقم (٧٥٨)، بألفاظ متقاربه، والآجري في الشريعة رقم (٧٠٥).

أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ينزل الله تعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول: أنا الملك، أنا الملك، ثلاثًا، من يسألني فأعطيه؟ من يدعوني فأستجيب له؟ من يستغفرني فأغفر له؟ فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر**»(١).

(سمعت الأستاذ أبا منصور على إثر هذا الحديث الذي أملاه علينا، يقول: سئل أبو حنيفة عنه، فقال: ينزل بلا كيف).

(وقال بعضهم: ينزل نزولًا يليق بالربوبية بلا كيف، من غير أن يكون نزوله مثل نزول الخلق بالتخلي(٢) والتملي؛ لأنه جل جلاله، منزه أن تكون صفاته مثل صفات الخلق، كما كان منزهًا أن تكون ذاته مثل ذوات المخلوقين؛ فمجيئه، وإتيانه، ونزوله، على حسب ما يليق بصفاته من غير تشبيه وكيف)(٣).

الشَّرح

تضمن هذا النقل موافقة الإمام أبي حنيفة النعمان لبقية السلف في إثبات صفة النزول، دون تكييف. وحكى المصنف عن بعضهم إثبات هذا المعنى، وزاد فيه نفي التخلي والتملي؛ أي: أن يخلو منه مكان، ويملأ آخر. وهذه مسألة وقع فيها خلاف بين المتقدمين، كما وقع في مسألة الحركة.

قال شيخ الإسلام: (وَذَكَرْنَا مَا قَالَهُ السَّلَفُ فِي ذَلِكَ: كَحَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ، وَإِسْحَاقَ، وَغَيْرِهِمَا، مِنْ أَنَّهُ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ، وَبَيَّنَّا أَنَّ هَذَا هُوَ الصَّوَابُ، وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِمَّنْ يَدَّعِي السُّنَّةَ يَظُنُّ خُلُوَّ الْعَرْشِ مِنْهُ. وَقَدْ صَنَّفَ أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ منده فِي ذَلِكَ مُصَنَّفًا، وَزَيَّفَ قَوْلَ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ يَنْزِلُ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ، وَضَعَّفَ مَا نُقِلَ فِي ذَلِكَ عَنْ أَحْمَد

(١) أخرجه مسلم رقم (٧٥٨).
(٢) وقع في بعض النسخ المطبوعة: (بالتجلي)، وهو تصحيف.
(٣) الأسماء والصفات، للبيهقي (ص٤٥٦).

فِي رِسَالَةِ مُسَدَّدٍ، وَقَالَ: إِنَّهَا مَكْذُوبَةٌ عَلَى أَحْمَد، وَتَكَلَّمَ عَلَى رَاوِيهَا البردعي أَحْمَد بْنِ مُحَمَّدٍ، وَقَالَ: إِنَّهُ مَجْهُولٌ لَا يُعْرَفُ فِي أَصْحَابِ أَحْمَد. وَطَائِفَةٌ تَقِفُ لَا تَقُولُ: يَخْلُو، وَلَا: لَا يَخْلُو، وَتُنْكِرُ عَلَى مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ)[١]. فهذه ثلاثة أقوال للسلف.

وقد عقب المصنف بكلام محكم مفيد، وهو أن القول في الصفات كالقول في الذات، فكما أنك تعقل لله ذاتًا لا تشبه الذوات، فاعقل له صفات لا تشبه الصفات؛ لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات. فبذلك يستريح قلبك. وهذا لا يمنع من إثبات المعنى، فأثبت المعنى اللائق الذي أثبت لنفسه، وأمر عباده أن يعتقدوه فيه، واعتقد تنزيهه عن مماثلة المخلوقين، واعلم أن كل ما أخبر الله تعالى به عن نفسه، أو أخبره عنه نبيه ﷺ، فهو كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه.



(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٤٢).



قال المؤلف رحمه الله تعالى:

۞ (وقال الإمام أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة في كتاب «التوحيد» الذي صنفه، وسمعت من حافده[١] أبي طاهر رَحِمَهُ اللَّهُ: «باب ذكر أخبار ثابتة السند، رواها علماء الحجاز والعراق، في نزول الرب إلى السماء الدنيا، كل ليلة، من غير صفة كيفية النزول، مع إثبات النزول، فنشهد شهادة مقر بلسانه، مصدق بقلبه، مستيقن بما في هذه من الأخبار من ذكر النزول، من غير أن نصف الكيفية؛ لأن نبينا محمدًا ﷺ لم يصف لنا كيفية نزول خالقنا إلى السماء الدنيا، وأعلمنا أنه ينزل، والله عَزَّ وَجَلَّ ولّى نبيه ﷺ بيانَ ما بالمسلمين إليه الحاجة من أمر دينهم، فنحن مصدقون بما في هذه الأخبار من ذكر النزول، غير متكلفين للنزول بصفة الكيفية؛ إذ النبي ﷺ لم يصف لنا كيفية النزول»[٢].

الشَّرح

هذا النص من كلام إمام الأئمة ابن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ، يعبر تعبيرًا واضحًا، بعبارات رصينة محكمة، عن معتقد أهل الحديث في تحقيق إثبات النزول، مع البراءة من التكييف. وينطبق هذا المنهج المطرد على سائر الصفات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال الفقيه الحافظ أبو بكر الأثرم في كتاب «السنة»، وقد نقله عنه الخلال في «السنة»: حدثنا إبراهيم بن الحارث ـ يعني: العبادي ـ، حدثني الليث بن يحيى، سمعت إبراهيم بن الأشعث، قال أبو بكر ـ هو صاحب الفضيل: سمعت الفضيل بن عياض

(١) معنى حافده: يعني من حفيده؛ لأن أبا طاهر حفيد إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة.

(٢) كتاب التوحيد، لابن خزيمة (١٢٦، ١٢٥).

يقول: «ليس لنا أن نتوهم في الله كيف وكيف؛ لأن الله وصف نفسه فأبلغ فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]. فلا صفة أبلغ مما وصف الله عَزَّ وَجَلَّ به نفسه، وكل هذا النزول، والضحك، وهذه المباهاة، وهذا الاطلاع، كما شاء أن ينزل، وكما شاء أن يباهي، وكما شاء أن يطلع، وكما شاء أن يضحك، فليس لنا أن نتوهم أن كيف وكيف، وإذا قال لك الجهمي: أنا أكفر برب يزول عن مكانه، فقل أنت: أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء»[(١)].



(١) درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٢٤).

ثم قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(أخبرنا الحاكم أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو محمد الصيدلاني، حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أحمد بن صالح المصري، حدثنا ابن وهب، أنبأنا مخرمة بن بكير، عن أبيه. (ح) وأخبرنا الحاكم، حدثنا محمد بن يعقوب الأصم ـ واللفظ له ـ، حدثنا إبراهيم بن منقذ، حدثنا ابن وهب، عن مخرمة بن بكير، عن أبيه، قال: سمعت محمد بن المنكدر يزعم أنه سمع أم سلمة، زوج النبي ﷺ، تقول: نعم اليوم يوم ينزل الله تعالى فيه إلى السماء الدنيا، قالوا: وأي يوم؟ قالت: يوم عرفة[(١)]).

(وروت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، عن النبي ﷺ قال: «**ينزل الله تعالى في النصف من شعبان، إلى السماء الدنيا، ليلًا إلى آخر النهار من الغد، فيعتق من النار بعدد شعر معز بني كلب، ويكتب الحاج، وينزل أرزاق السنة، ولا يترك أحدًا إلا غفر له، إلا مشركًا أو قاطع رحم، أو عاقًّا، أو مشاحنًا**»[(٢)]).

الشَّرْح

حديث أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا في النزول يوم عرفة، حسن إسناده بعض المحققين، وله شاهد من حديث جابر وابن عمر مرفوعًا: «**ما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا، فيباهي بأهل**

(١) الرد على الجهمية، للدارمي رقم (١٣٧)، والنزول، للدارقطني رقم (٩٦)، واللالكائي (٣/ ٤٥٠). وإسناده حسن.

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٧٣٩)، وأحمد رقم (٢٦٠١٧)، وابن ماجه رقم (١٣٨٩)، وضعف الألباني رواية ابن ماجه.

الأرض أهل السماء)[١]، وقد تقدم نحوه.

وحديث عائشة رضي الله عنها في النزول ليلة النصف من شعبان، ضعيف، وقد رواه الترمذي، ثم قال: (حَدِيثُ عَائِشَةَ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْهِ مِنْ حَدِيثِ الحَجَّاجِ، وَسَمِعْتُ مُحَمَّدًا يُضَعِّفُ هَذَا الحَدِيثَ، وقَالَ: يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ عُرْوَةَ، وَالحَجَّاجُ بْنُ أَرْطَاةَ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ)[٢].

وقد روي من طرق أخرى بغير لفظ النزول؛ بل بلفظ الاطلاع: (يطلع الله تبارك وتعالى إلى خلقه ليلة النصف من شعبان، فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن)، وقد استوعبها الإمام الألباني في سلسلته الصحيحة، وخلص إلى القول: (وجملة القول أن الحديث بمجموع هذه الطرق صحيح بلا ريب)[٣].



(١) أخرجه ابن حبان في موارد الظمآن رقم (١٠٠٦)، وابن خزيمة رقم (٢٨٤٠).
(٢) سنن الترمذي، ت: شاكر (٣/١٠٨)، وضعفه الألباني.
(٣) السلسلة الصحيحة (٣/ ١٣٥ ـ ١٣٨).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(أخبرنا أبو طاهر بن خزيمة، حدثنا جدي الإمام، حدثنا الحسن بن محمد الزعفراني، حدثنا إسماعيل بن علية، عن هشام الدستوائي. (ح) قال الإمام: وحدثنا الزعفراني، حدثنا عبد الله بن بكر السهمي، حدثنا هشام الدستوائي. (ح) وحدثنا الزعفراني، حدثنا يزيد ـ يعني: ابن هارون ـ أخبرنا الدستوائي. (ح) وحدثنا محمد بن عبد الله بن ميمون بالإسكندرية، حدثنا الوليد، عن الأوزاعي؛ جميعهم عن يحيى بن أبي كثير، عن عطاء بن يسار، حدثني رفاعة بن عرابة الجهني.

(ح) قال الإمام: وحدثنا أبو هاشم زياد بن أيوب، حدثنا مبشر بن إسماعيل الحلبي، عن الأوزاعي، حدثنا يحيى بن أبي كثير، حدثني هلال بن أبي ميمونة، عن عطاء بن يسار، حدثني رفاعة بن عرابة الجهني، قال: صدرنا مع رسول الله ﷺ من مكة، فجعلوا يستأذنون النبي ﷺ، فجعل يأذن لهم، فقال النبي ﷺ: «**ما بال شق الشجرة الذي يلي رسول الله ﷺ أبغض إليكم من الآخر!**»؛ فلا ترى من القوم إلا باكيًا، قال: يقول أبو بكر الصديق: إن الذي يستأذنك بعدها لسفيه، فقام النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، وكان إذا حلف قال: «**والذي نفسي بيده أشهد عند الله ما منكم من أحد يؤمن بالله واليوم الآخر ثم يسدد إلا سلك به في الجنة، ولقد وعدني ربي أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفًا بغير حساب ولا عذاب، وإني لأرجو أن لا تدخلوها حتى تتبوؤوا، ومن صلح من أزواجكم وذرياتكم، مساكنكم في الجنة**»، ثم قال ﷺ: «**إذا مضى شطر الليل**

ـ أو قال: ثلثاه ـ، ينزل الله إلى السماء الدنيا، ثم يقول: لا أسأل عن عبادي غيري؛ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يدعوني فأجيبه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؟ حتى ينفجر الصبح»(١).
هذا لفظ حديث الوليد).

الشَّرْح

هذا حديث شريف، فخم جليل، ساقه المصنف من خمسة طرق عن رفاعة بن عرابة الجهني، يصف حال النبي ﷺ قافلًا من مكة، ومعه أصحابه، فجعل بعضهم يستأذنه في التعجل إلى أهله، وعدم مسايرته، وكان، بأبي وأمي، لا يرد سائلًا، فتلطف النبي ﷺ بإبداء العتب بأسلوب رفيق رفيع! فقال: «**مَا بَالُ شِقِّ الشَّجَرَةِ الَّذِي يَلِي رَسُولَ اللهِ ﷺ أَبْغَضُ إِلَيْكُمْ مِنَ الشِّقِّ الْآخَرِ؟**»؛ كأنما يقول: ما لكم تزهدون بصحبتي، لكنه كنَّى بهذا المثال البديع اللطيف. فلما تفطنوا، رضوان الله عليهم، لما بدر منهم من جفاء، وأثر فيهم هذا العتب الجميل، طفقوا يبكون أجمعين! حتى قال أبو بكر الصديق: إن الذي يستأذنك بعدها لسفيه! عند ذلك، طيَّب النبي ﷺ نفوسهم ببشارة عظيمة، فقام، فحمد الله، وأثنى عليه، وحلف، وشهد مبشرًا من آمن واتبع، بدخول الجنة، ثم خص منهم سبعين ألفًا بدخول الجنة بغير حساب ولا عذاب، وهم الذين وصفهم في حديث ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: «**هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**»(٢)، ثم أتبع ذلك ببشارة أخرى، وهي لحوق أهلهم به؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍۚ﴾ [الطور: ٢١]. ثم حدَّث بحديث النزول المتقدم، وفيه إشارة إلى أن هذا الفضل العظيم يحصل لمن تعرض لنفحات الله القدسية، وقت تنزله إلى سماء الدنيا كل ليلة؛ بدعائه، وسؤاله، واستغفاره.

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١٦٢١٥)، وابن خزيمة في كتاب التوحيد رقم (٣٧)، واللفظ له.
(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٧٠٥)، ومسلم رقم (٢١٨).

ثم قال المؤلف، رَحِمَهُ اللَّهُ:

(قال شيخ الإسلام[١] :قلت: فلما صح خبر النزول عن الرسول ﷺ، أقر به أهل السنة، وقبلوا الخبر، وأثبتوا النزول على ما قاله رسول الله ﷺ، ولم يعتقدوا تشبيهًا له بنزول خلقه، ولم يبحثوا عن كيفيته؛ إذ لا سبيل إليها بحال، وعلموا وتحققوا واعتقدوا أن صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا تشبه صفات الخلق؛ كما أن ذاته لا تشبه ذوات الخلق، تعالى الله عما يقول المشبهة والمعطلة علوًّا كبيرًا، ولعنهم لعنًا كبيرًا).

الشَّرْح

هذا تعقيب حسن جميل من المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، على ما تقدم من حكاية الآثار المرفوعة في صفة النزول، وبيان طريقة أهل السنة حيالها، وأنها تتضمن:

- التحقق من صحة الخبر أولًا.
- الإقرار والقبول والإثبات، واجتناب التعطيل والتحريف.
- اجتناب التشبيه والتكييف.
- البراءة من طريقة طرفي الضلالة؛ أهل التمثيل والتكييف (المشبهة)، وأهل التأويل والتجهيل (المعطلة).



(١) المراد بشيخ الإسلام هنا أبو عثمان الصابوني، المصنف، فيكون هذا زيادة توضيحية من الناسخ.

ثم قال المؤلف، رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

❁ (وقرأت لأبي عبد الله بن أبي حفص البخاري، وكان شيخ بخارى في عصره بلا مدافعة، وأبو حفص هذا كان من كبار أصحاب محمد بن الحسن الشيباني، قال أبو عبد الله ـ أعني: ابن أبي حفص هذا عبد الله بن عثمان، وهو عبدان، شيخ مرو ـ يقول: سمعت محمد بن الحسن الشيباني يقول: قال حماد بن أبي حنيفة: قلنا لهؤلاء: أرأيتم قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، فهل يجيء ربنا كما قال، وهل يجيء الملك صفًّا صفًّا، قالوا: أما الملائكة فيجيئون صفًّا صفًّا، وأما الرب تعالى، فإنا لا ندري ما عنى بذلك، ولا ندري كيف جيئته. فقلنا لهم: إنا لم نكلفكم أن تعلموا كيف جيئته، ولكنا نكلفكم أن تؤمنوا بمجيئه. أرأيتم من أنكر أن الملك لا يجيء صفًّا صفًّا، ما هو عندكم؟ قالوا: كافر مكذب، قلنا: فكذلك من أنكر أن الله سبحانه لا يجيء فهو كافر مكذب).

❁ (قال أبو عبد الله بن أبي حفص البخاري أيضًا في كتابه: ذكر إبراهيم بن الأشعث، قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: إذا قال لك الجهمي: أنا لا أؤمن برب يزول عن مكانه. فقل أنت: أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء)(١).

الشَّرح

هذان نصان في مناظرة المخالف:

أحدهما: عن حماد بن الإمام أبي حنيفة النعمان، رحمهما الله، يتضمن

(١) خلق أفعال العباد، للبخاري (ص٣٣).

إلزام الجاحد لحقيقة المجيء، بالكفر والتكذيب. فقد استنطق المستجهل لمجيء الله، فأقرَّ بمجيء الملائكة صفًّا صفًّا، وأكفر وأكذب من أنكره. فلازم ذلك قطعًا تكفير وتكذيب من أنكر ذلك في حق الله تعالى؛ إما بتحريف أو تجهيل؛ لأن الله ذكر المجيئين في سياق واحد، فقال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾، فكيف يفرق بين أول الآية وآخرها؟! والتناقض معيار الفساد.

الثاني: عن الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فقد ألجم من تظاهر بالتنزيه، بإنكار النزول وسائر الصفات الفعلية، بإثبات الكمال بالاتصاف بالفعل والمشيئة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود: ١٠٧]. فإن ما شبَّه به المخالف لفظ مجمل محدث، غير مستمد من كتاب ولا سنة، لا يتم الاحتجاج به، وما استدل به الفضيل من الفعل والمشيئة، وصفان ثابتان متواتران في الكتاب والسنة.

ولعمر الله! إن مسألة الصفات الفعلية الاختيارية لهي محنة المعطلة على اختلاف دركاتهم؛ فقد استصحبوا مقدمات فاسدة، أفضت بهم إلى نتائج طوام. ويا عجبًا لمن يدعي تنزيه الرب، ثم يجرده من الفعل والمشيئة، بدعوى مفتعلة مختلقة، يزوقها بنفي حلول الحوادث، ويتوصل بها إلى إنكار الثابت القطعي من صفات الكمال ونعوت الجلال!

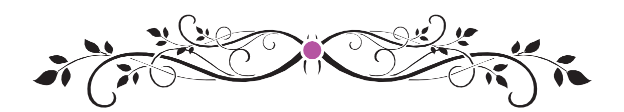
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَ«مَسْأَلَةُ الصِّفَاتِ الِاخْتِيَارِيَّةِ» هِيَ مِنْ تَمَامِ حَمْدِهِ؛ فَمَنْ لَمْ يُقِرَّ بِهَا لَمْ يُمْكِنْهُ الْإِقْرَارُ بِأَنَّ اللهَ مَحْمُودٌ أَلْبَتَّةَ، وَلَا أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ. فَإِنَّ الْحَمْدَ ضِدُّ الذَّمِّ، وَالْحَمْدُ هُوَ الْإِخْبَارُ بِمَحَاسِنِ الْمَحْمُودِ مَعَ الْمَحَبَّةِ لَهُ. وَالذَّمُّ هُوَ الْإِخْبَارُ بِمَسَاوِئِ الْمَذْمُومِ مَعَ الْبُغْضِ لَهُ. وَجِمَاعُ الْمَسَاوِئِ فِعْلُ الشَّرِّ، كَمَا أَنَّ جِمَاعَ الْمَحَاسِنِ فِعْلُ الْخَيْرِ. فَإِذَا كَانَ يَفْعَلُ الْخَيْرَ ـ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ ـ اسْتَحَقَّ الْحَمْدَ. فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِعْلٌ اخْتِيَارِيٌّ يَقُومُ بِهِ؛ بَلْ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، لَا يَكُونُ خَالِقًا، وَلَا رَبًّا لِلْعَالَمِينَ.

[وَالله تَعَالَى يحمد نَفسه بأفعاله؛ لقَوْله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾][(١)]، وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ـ وَنَحْوُ ذَلِكَ ـ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِعْلٌ يَقُومُ بِهِ بِاخْتِيَارِهِ، امْتَنَعَ ذَلِكَ كُلُّهُ. فَإِنَّهُ مِنْ الْمَعْلُومِ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ، أَنَّهُ إذَا خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَلَا بُدَّ مِنْ فِعْلٍ يَصِيرُ بِهِ خَالِقًا؛ وَإِلَّا، فَلَوِ اسْتَمَرَّ الْأَمْرُ عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ، لَمْ يَحْدُثْ فِعْلٌ، لَكَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا كَانَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ، وَحِينَئِذٍ فَلَمْ يَكُنْ الْمَخْلُوقُ مَوْجُودًا. فَكَذَلِكَ، يَجِبُ أَنْ لَا يَكُونَ الْمَخْلُوقُ مَوْجُودًا إنْ كَانَ الْحَالُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِثْلَ مَا كَانَ فِي الْمَاضِي، لَمْ يَحْدُثْ مِنْ الرَّبِّ فِعْلٌ هُوَ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)[(٢)]، وذكر دلائل أخرى.



(١) سقط ما بين المعقوفتين من «مجموع الفتاوى»، والتصويب من جامع الرسائل لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم (٢/ ٥٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠)، وجامع الرسائل، ت: محمد رشاد سالم (٢/ ٥٧ ـ ٥٨).



موقف السلف من منكري أحاديث الصفات

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وروى يزيد بن هارون في مجلسه حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس ابن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله، في الرؤية، وقول رسول الله ﷺ: «**إنكم تنظرون إلى ربكم كما تنظرون إلى القمر ليلة البدر**»(١)، فقال له رجل في مجلسه: يا أبا خالد، ما معنى هذا الحديث؟ فغضب وحرد، وقال: ما أشبهك بصبيغ، وأحوجك إلى مثل ما فُعِل به، ويلك! ومن يدري كيف هذا؟ ومن يجوز له أن يجاوز هذا القول الذي جاء به الحديث، أو يتكلم فيه بشيءٍ من تلقاء نفسه إلا من سفه نفسه، واستخف بدينه؟ إذا سمعتم الحديث عن رسول الله ﷺ فاتبعوه، ولا تبتدعوا فيه؛ فإنكم إن اتبعتموه، ولم تماروا فيه سلمتم، وإن لم تفعلوا هلكتم).

الشَّرح

هكذا يعظم السلف السنة، ويغضبوا لانتهاكها، ويؤدبوا من زلَّ وتجرأ على جنابها. فإن أحاديث الرؤية من الأحاديث المتواترة؛ كما قال الناظم:

مما تواتر حديث من كذب ... ومن بنى لله بيتًا واقترب
ورؤية شفاعة والحوض ... ومسح خفين وهذه بعض(٢)

فلما حدث يزيد بن هارون رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بحديث جرير بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، نبا

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٤٣٤)، ومسلم رقم (١٨٢).
(٢) ناظمها: محمد التاودي في (زاد المجد الساري)، حاشية على البخاري.

على سمع رجل في مجلسه، وسأله عن معناه! كأنه يطلب له تأويلًا عن ظاهره، أو تكييفًا له. فغضب وحرد؛ أي: تحول من مكانه، وعنَّفه، وشبهه بصبيغ بن عِسل، وبيَّن له امتناع التكييف، ومجاوزة ما جاء به النص، وأن ذلك لا يصدر إلا من سفيه ماجن مستخف بالدين. ثم حث أصحابه على الاتباع، وترك الابتداع، وأن عاقبة الاتباع السلامة، وعاقبة الابتداع الهلاك.

فالواجب: كمال الأدب مع كلام الله وكلام نبيه ﷺ، وعدم الاعتراض عليه بالإيرادات الفاسدة، وتطلب ما لا يمكن دركه؛ فلا يقال «كيف» في الصفات، ولا «لم» في الأفعال. ومن أقبل بكليته على كلام الله وكلام نبيه ﷺ، وتفهمه وفقهه، وجد برد اليقين، وانثلاج الصدور، وعلم أنه الحق.

وإننا، وللأسف، نجد في هذه الأزمنة من يستطيل على كلام الله وعلى كلام رسوله ﷺ، ولا يبالي! تسمع أو تقرأ لبعض السفهاء أو السفيهات من يقول: انتهى زمن «النساء ناقصات عقل ودين»! سبحان الله! على من يعترضون؟! قائل هذه الجملة محمد بن عبد الله ﷺ، في حديث صحيح: «**مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ، أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ، مِنْ إِحْدَاكُنَّ**»، فينبري أحدهم ويفغر فاه متبجحًا معترضًا على النبي ﷺ دون أن يكلف نفسه عناء فهم مراد النبي ﷺ؛ بخلاف نساء الصحابة، فإنه لما خاطبهن بذلك، قامت امرأة من سطة النساء، وقالت بأدب: يا رسول الله، ما نقصان عقلنا؟ وما نقصان ديننا؟ لم تعترض، ولم تقل: لسنا ناقصات عقل، ولسنا ناقصات دين؛ بل سألت واستفهمت، فقال النبي ﷺ: «**أَلَيْسَ شَهَادَةُ المَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟**»، قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: «**فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا**»، لم يرد النبي صلى الله عليه بقوله: «ناقصات عقل» أن النساء مجنونات مخبولات! بل أراد أنهن دون الرجال في الضبط والتثبت والتحكم بانفعالاتهن، وهذا أمر تدركه النساء ويعترفن به، فشهادة الرجل أثبت من شهادة المرأة، فلهذا، قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وقال: «**أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟**» قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: «**فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا**»، لم يرد النبي ﷺ

بقوله: «**ناقصات دين**» أن النساء فاجرات فاسقات! كما تبادر إلى أذهان هؤلاء المتعجلين والمتعجلات؛ بل أراد ما يلحقهن من نقص خِلقي من جراء الحيض، يستدعي ترك بعض شرائع الدين؛ وهو الصلاة والصوم. وهو نقص لا تلام عليه. فلا بد من تعظيم خبر الله، وخبر رسوله ﷺ، وألا يلقي المرء بالكلام على عواهنه، فربما أورده الهلاك، وربما أخرجه من دينه. فعلى العاقل أن يتبصر، ويتروى، ويسأل سؤال مستفهم مسترشد؛ كما سأل المؤمنون نبيهم ﷺ، لا سؤال معترض مستنكر.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وقصة صبيغ الذي قال يزيد بن هارون للسائل: ما أشبهك بـ صبيغ، وأحوجك إلى مثل ما فعل به، هي ما رواه يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب، أن صبيغًا التميمي أتى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: يا أمير المؤمنين! أخبرني عن: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١﴾، قال: هي الرياح، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن: ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ٢﴾، قال: هي السحاب، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن: ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ٤﴾، قال: الملائكة، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن: ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ٣﴾، قال: هي السفن، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: ثم أمر به فضرب مائة سوط، ثم جعله في بيت، حتى إذا برئ دعا به، ثم ضربه مائة سوط أخرى، ثم حمله على قتب، وكتب إلى أبي موسى الأشعري: أن حرم عليه مجالسة الناس، فلم يزل كذلك، حتى أتى أبا موسى الأشعري، فحلف بالأيمان المغلظة، ما يجد في نفسه مما كان يجده شيئًا، فكتب إلى عمر يخبره، فكتب إليه: ما إخاله إلا قد صدق، خل بينه وبين مجالسة الناس[(١)]).

(وروى حماد بن زيد عن قطن بن كعب، قال: سمعت

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه رقم (١٥٠)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٦٣٤ ـ ٦٣٦) رقم (١١٣٦ ـ ١١٤٠)، وابن حجر في الإصابة (٥/ ١٦٨ ـ ١٦٩)، وصحح بعض طرقها.

رجلًا من بني عجل يقال له: فلان ـ خِلتُه ابنَ زرعة ـ يحدث عن أبيه قال: رأيت صبيغ بن عِسل بالبصرة، كأنه بعير أجرب، يجيء إلى الحلق، فكلما جلس إلى قوم لا يعرفونه ناداهم أهل الحلقة الأخرى: عزمة أمير المؤمنين[(١)]).

(وروى حماد بن زيد أيضًا، عن يزيد بن حازم، عن سليمان بن يسار: أن رجلًا من بني تميم يقال له: صبيغ، قدم المدينة، فكانت عنده كتب، فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فبلغ ذلك عمر، فبعث إليه، وقد أعد له عراجين النخل، فلما دخل عليه جلس، فقال: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صبيغ، قال: وأنا عبد الله عمر، ثم أهوى إليه، فجعل يضربه بتلك العراجين، فما زال يضربه حتى شجه، فجعل الدم يسيل على وجهه، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب الذي كنت أجد في رأسي)[(٢)].

الشَّرح

هذه ثلاث روايات في قصة صبيغ بن عِسل، وكان شغوفًا بمتشابه القرآن، وضرب كتاب الله بعضه ببعض؛ ففي بعض الروايات أنه كان يقف لأصحاب رسول الله ﷺ في أفواه السكك ويسألهم ويعارض كلام بعضهم ببعض، حتى وقع ذلك مع عمر رضي الله عنه، كما في رواية سعيد بن المسيب. وفي رواية سليمان بن يسار أن عمر بلغه ما كان يصنع من السؤال عن المتشابه، فدعاه، وعزره. قال ابن كثير رحمه الله: (وَإِنَّمَا ضَرَبَهُ لِأَنَّهُ ظَهَرَ لَهُ من أمره فيما يسأل تعنتا وعنادًا)[(٣)].

لكن عمر رضي الله عنه لشدة حرصه على صيانة المدينة ـ شرفها الله، وعلى

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة رقم (١١٣٩).
(٢) أخرجه الدارمي في سننه رقم (١٤٦).
(٣) تفسير القرآن العظيم، ت: سلامة (٧/ ٤١٤).

ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ أن يحدث فيها شيء من هذه البدع والمقالات، نفاه نفيًّا تأديبيًّا من المدينة إلى الكوفة، أخرجه من جزيرة العرب بأكملها! مما يدل على أن جزيرة العرب يجب أن تصان عن أهل الأهواء والبدع، وكتب إلى أبي موسى الأشعري واليه على الكوفة، أن حرم عليه مجالسة الناس، فضرب عليه هذا النطاق، حتى إذا هم أن يجلس إلى قوم متحلقين لا يعرفونه، ناداهم من يليهم: عزمةَ أمير المؤمنين يذكرونهم، حتى صار منبوذًا كالبعير الأجرب، حتى أن جاء إلى أبي موسى الأشعري، وحلف الأيمان المغلظة أن قد ذهب عنه ما يجد، فرق له أبو موسى، وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن لو خليت بينه وبين كلام الناس، فقال عمر: أنت وشأنك، لكن فراسة عمر رضي الله عنه، صدقت فيه، فلما وقعت الفتنة كان من أول الخارجين، كما في بعض الروايات.

وقد يشكل ما جاء في الرواية الأولى من كونه سأل عن تفسير بعض الآيات، وقد أجاب عن ذلك الآجري رحمه الله، فقال: (فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَنْ يَسْأَلُ عَنْ تَفْسِيرِ ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢﴾، اسْتَحَقَّ الضَّرْبَ، وَالتَّنْكِيلَ بِهِ، وَالْهِجْرَةَ؟! قِيلَ لَهُ: لَمْ يَكُنْ ضَرْبُ عُمَرَ رضي الله عنه لَهُ بِسَبَبٍ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَلَكِنْ لَمَّا تَأَدَّى إِلَى عُمَرَ مَا كَانَ يَسْأَلُ عَنْهُ مِنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرَاهُ، عَلِمَ أَنَّهُ مَفْتُونٌ، قَدْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِمَا لَا يَعُودُ عَلَيْهِ نَفْعُهُ، وَعَلِمَ أَنَّ اشْتِغَالَهُ بِطَلَبِ عِلْمِ الْوَاجِبَاتِ؛ مِنْ عِلْمِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ أَوْلَى بِهِ، وَتَطَلُّبُ عِلْمِ سُنَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَوْلَى بِهِ، فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ مُقْبِلٌ عَلَى مَا لَا يَنْفَعُهُ، سَأَلَ عُمَرُ اللهَ تَعَالَى، أَنْ يُمَكِّنَهُ مِنْهُ، حَتَّى يُنَكِّلَ بِهِ، وحَتَّى يُحَذِّرُ غَيْرَهُ؛ لِأَنَّهُ رَاعٍ يَجِبُ عَلَيْهِ تَفَقُّدُ رَعِيَّتِهِ فِي هَذَا وَفِي غَيْرِهِ، فَأَمْكَنَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْهُ. وَقَدْ قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: سَيَكُونُ أَقْوَامٌ يُجَادِلُونَكُمْ بِمُتَشابَهِ الْقُرْآنِ، فَخُذُوهُمْ بِالسُّنَنِ، فَإِنَّ أَصْحَابَ السُّنَنِ أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى)[(١)].

(١) الشريعة، للآجري (١/ ٤٨٤).

وفي هذه القصة دليل على أن حاجة المجتمعات الإسلامية إلى الحجر الصحي من الأفكار الضالة، والشبهات، أعظم من حاجتها إلى الحجر الصحي من بعض الأمراض والأوبئة، فإن الأمراض والأوبئة غاية ما تصنع أن تفتك بالأبدان، ولكن الشبهات والضلالات تفتك بالأديان والإيمان، فالحجر الصحي عليها وعلى دعاتها أولى. فنسأل الله تعالى أن يوفق ولاة أمور المسلمين إلى صيانة المسلمين من منابر السوء، ودعاة الضلالة، ومقالات أهل البدع والغلو.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(أخبرنا أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى السلمي، أخبرنا محمد بن محمود الفقيه المروزي، حدثنا محمد بن عمير الرازي، حدثنا أبو زكريا يحيى بن أيوب العلاف التجيبي بمصر، حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا أشهب بن عبد العزيز، سمعت مالك بن أنس يقول: إياكم والبدع. قيل: يا أبا عبد الله، وما البدع؟ قال: أهل البدع: الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته، وكلامه وعلمه وقدرته، لا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون[(١)]).

(أخبرنا أبو الحسين أحمد بن محمد بن عمر الزاهد الخفاف، أخبرنا أبو نعيم عبد الملك بن محمد بن عدي الفقيه، حدثنا الربيع بن سليمان، قال: سمعت الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: لأن يلقى اللهَ العبدُ بكل ذنب، ما خلا الشرك، أحب إلي من أن يلقاه بشيء من الأهواء[(٢)]).

(أخبرني أبو طاهر محمد بن الفضل، حدثنا أبو عمرو الحيري، حدثنا أبو الأزهر، حدثنا قبيصة، حدثنا سفيان، عن جعفر بن برقان، قال: سأل رجل عمر بن عبد العزيز عن شيء من الأهواء، فقال: الزم دين الصبي في الكُتَّاب، والأعرابي، والْهَ عما سوى ذلك[(٣)]).

---

(١) أخرجه أبو إسماعيل الهروي في كتابه ذم الكلام وأهله رقم (٨٥٨).
(٢) آداب الشافعي ومناقبه، لابن أبي حاتم (ص١٣٧).
(٣) أخرجه الدارمي رقم (٣٠٦)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢٥٠).

﴿ (أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا محمد بن يزيد، سمعت أبا يحيى البزار يقول: سمعت العباس بن حمزة يقول: سمعت أحمد بن أبي الحواري يقول: سمعت سفيان بن عيينة يقول: كل ما وصف الله به نفسه في كتابه، فتفسيره تلاوته، والسكوت عنه)[١].

﴿ (أخبرنا أبو الحسين الخفاف، حدثنا أبو العباس محمد بن إسحاق السراج، حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا الهيثم بن خارجة، قال: سمعت الوليد بن مسلم قال: سألت الأوزاعي، وسفيان، ومالك بن أنس، عن هذه الأحاديث في الصفات والرؤية، فقالوا: أمروها كما جاءت بلا كيف)[٢].

﴿ (قال الإمام الزهري ـ إمام الأئمة في عصره، وعين علماء الأمة في وقته ـ: على الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم. وعن بَعْض السَّلَفِ[٣]: قَدَمُ الإِسْلامِ لَا تَثْبُتُ إِلا عَلَى قَنْطَرَةِ التَّسْلِيمِ)[٤].

الشَّرْح

هذه عدة آثار مروية عن السلف الكرام في بيان ما يجب على الإنسان أن يقابل به النصوص من التسليم والقبول:

١ ـ قول الإمام مالك بن أنس: تضمن التحذير من البدع، وتعريف المبتدعة بأنهم المتكلمون في أسماء الله وصفاته بغير علم؛ من تمثيل،

(١) كتاب الاعتقاد، للبيهقي (١١٨).
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي رقم (٩٣٠).
(٣) لعله يقصد بالقائل الإمام الطحاوي في العقيدة الطحاوية، وقوله هو: (ولا تثبت قدم الإسلام الا على ظهر التسليم والاستسلام).
(٤) شرح السنة، للبغوي (١/ ١٧١).

وتكييف، وتعطيل، وتحريف، ولا يسعهم ما وسع الصحابة من القبول والسكوت عن فضول القول، ومحدثات التحريف، الذي يسمونه «تأويلًا».

٢ ـ قول الإمام الشافعي: تضمن التنفير الشديد من الأهواء، وأن البدعة العقدية أعظم خطرًا من كبائر الذنوب، سوى الشرك. ذلك أن المبتدع يعتقد صواب بدعته، فيموت على سوء ظن بالله، وأما الفاسق المذنب فيعتقد خطأ نفسه، وخوف ذنبه، فهو حري بالمغفرة.

٣ ـ قول عمر بن عبد العزيز: تضمن الأمر بلزوم الفطرة التي عليها الصبي والأعرابي، وعدم التشاغل بالمحدثات من مقالات أهل الأهواء، وتكلفاتهم.

٤ ـ سفيان بن عيينة: تضمن الإيمان بما دل عليه ظاهر القرآن، الذي نزل بلسان عربي مبين. ومراده رَحِمَهُ اللهُ بقوله: «فتفسيره تلاوته»: عدم البحث والتنقير عن معانٍ مجازية خلاف ظاهره، والإمساك عن ذلك. أو المبالغة في الإثبات إلى حد التمثيل والتكييف؛ كما في رواية الدارقطني عنه: (كل ما وصف الله به نفسه في القرآن، فقراءته تفسيره؛ لا كيف ولا مثل)[(١)].

٥ ـ مقالة الأئمة: الأوزاعي، وسفيان، ومالك: تضمنت أمرين:

أحدهما: إمرار نصوص الصفات كما جاءت: وذلك يقتضي إمرارها لفظًا ومعنى.

الثاني: عدم التكييف: والاكتفاء بإثبات أصل المعنى. فإنه لا يحتاج إلى نفي الكيف إلا من يثبت أصل المعنى. فمن زعم أن مقالتهم تدل على التجهيل «التفويض» فقد غلط عليهم.

والله تعالى قد أنزل كتابه للتدبر؛ كما قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف: ٣]، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف: ٢]؛ فالقرآن كله محل للتعقل والتدبر والتفكر والتذكر، لا يستثنى من ذلك شيء. وآيات

(١) كتاب الصفات (٤١).

الصفات من أحكم المحكم، فقول السلف: أمروها كما جاءت؛ يعني: أمروا لفظها ومعناها، وليس اللفظ دون المعنى، كما يزعم المفوضة. والذي يمر اللفظ ولا يمر المعنى الذي وضعت عليه في أصل اللغة، ما أَمرها كما جاءت.

فسقطت بذلك الشبهة التي يدعيها المفوضة، ويرمون بها السلف، ويتهمونهم بما يقتضي أنهم لا يحققون ولا يدققون، وأنهم يؤمنون إيمانًا مجملًا! حتى قال قائلهم: «طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم»! فالسلف عندهم بمنزلة الأعاجم الذين لا يقرؤون الكتاب إلا أماني، ولا يفقهون ما يقرؤون. والخلف عندهم هم الذين دققوا وحققوا، وبحثوا عن المعاني المجازية اللائقة بالله، فحملوا النصوص عليها. وهذا زعم باطل، وتهمة شنيعة، ودعوى متناقضة؛ فإن السلامة ثمرة العلم والحكمة. فلا يجوز رمي السلف الصالح، أهل القرون الفاضلة، الذين هم معدن العلم حقًّا، وأهل الرواية والدراية صدقًا، بهذا الحكم الجائر، والمقالة البائرة.

٥ ـ قول الإمام الزهري: تقدم بيانه فيما مضى من الكتاب.

٦ ـ قول بعض السلف: هكذا غير منسوب، وقد ورد قريب من قولهم عبارة للإمام الطحاوي: (ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام). فمن جعل معيار قبول النصوص العقل أو الذوق، فليس بمؤمن بالكتاب.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(أخبرنا أبو طاهر بن خزيمة، حدثنا جدي الإمام، حدثنا أحمد بن نصر، حدثنا أبو يعقوب الحنيني، حدثنا كثير بن عبد الله المزني، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن هذا الدين بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**»[(١)]، قيل: يا رسول الله! ومن الغرباء؟ قال: «**الذين يحيون سنتي من بعدي، ويعلمونها عباد الله**»[(٢)].

(أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، سمعت أبا الحسن الكارزي يقول: سمعت علي بن عبد العزيز يقول: سمعت أبا عبيد القاسم بن سلام يقول: المتبع للسنة كالقابض على الجمر، وهو اليوم عندي أفضل من ضرب السيف في سبيل الله[(٣)]).

(وروي عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: دخلنا على عبد الله بن مسعود، فقال: يا أيها الناس! من علم شيئًا فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص: ٨٦][(٤)]).

(أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو العباس المعقلي،

---

(١) هكذا في الأصل، والحديث أخرج أوله مسلم رقم (١٤٥)، وغيره، بلفظ: «**بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كما بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**»

(٢) أخرجه الشهاب القضاعي في مسنده رقم: (١٠٥٢)، (١٠٥٣)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله رقم (٢٢٠)، (١٩٠٢)، وابن بطة في الإبانة الكبرى رقم (٣٧).

(٣) تاريخ بغداد (١٤/ ٣٩٢).

(٤) أخرجه البخاري رقم (٤٨٠٩).

حدثنا أحمد بن عبد الجبار العطاردي، حدثني أبي، حدثني عبد الرحمن الضبي، عن القاسم بن عروة، عن محمد بن كعب القرظي، قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز فجعلت أنظر إليه نظرًا شديدًا، فقال: إنك لتنظر إلي نظرًا ما كنت تنظره إلي وأنا بالمدينة، فقلت: لتعجبي، فقال: ومم تتعجب؟ قال: قلت: لما حال من لونك، ونحل من جسمك، ونفى من شعرك، قال: كيف لو رأيتني بعد ثلاثة في قبري، وقد سالت حدقتاي على وجنتي، وسال منخراي في فمي صديدًا، كنت لي أشد نُكرة، حدثني حديثًا كنت حدثتنيه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. قال: قلت: حدثني عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ، قال: «**إن لكل شيء شرفًا، وأشرف المجالس ما استقبل به القبلة، لا تصلوا خلف نائم ولا محدِث، واقتلوا الحية والعقرب وإن كنتم في صلاتكم، ولا تستروا الجدر بالثياب، ومن نظر في كتاب أخيه بغير إذنه، فإنما ينظر في النار. ألا أنبئكم بشراركم؟**»، قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «**الذي يجلد عبده، ويمنع رفده، وينزل وحده. أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ الذي يبغض الناس ويبغضونه. أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ الذي لا يقيل عثرة، ولا يقبل معذرة، ولا يغفر ذنبًا. أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ الذي لا يرجى خيره، ولا يؤمن شره. من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يد غيره، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله. إن عيسى عليه السلام قام في قومه فقال: يا بني إسرائيل! لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، ولا تظلموا، ولا تكافئوا ظالمًا فيبطل فضلكم عند ربكم. الأمر ثلاثة: أمر بين رشده فاتبعوه، وأمر بين غيه فاجتنبوه،**

وأمر اختلف فيه فكلوه لله ﷻ»[١].

الشَّرح

هذا حديث، وثلاثة آثار في الحث على لزوم السنة والاتباع:

١ ـ حديث الغرباء: روى مسلم، وغيره، أولَّه. وأما الزيادة بتعريف الغرباء، فقد تعددت فيها الروايات. والتعريف الذي ساقه المصنف يتضمن خصلتين:

- إحياء سنن مندثرة؛ بالعمل بها بعد هجرها.
- تعليمها الناس.

٢ ـ أثر أبي عبيد القاسم بن سلام: يدل على فضيلة المتبع للسنة، وتشبيهه بالقابض على الجمر، وتفضيل ذلك على الجهاد في سبيل الله في وقته. فكيف بما بعده من الأزمان؟!

٣ ـ أثر عبد الله بن مسعود: تضمن الحث على إفشاء العلم وبثه، وعدم كتمانه، والإمساك عن القول فيما لم يعلم، وأن الخوض فيه من التكلف المذموم.

٤ ـ حديث ابن عباس: قال عنه المزي: (هذا حديث مشهور، من رواية أبي المقدام، هشام بن زياد، عن محمد بن كعب، ورواه الناس عنه)[٢]. وقال الذهبي عند ذكره: (هشام متروك، ومحمد بن معاوية كذبه الدارقطني، فبطل الحديث)[٣]؛ فلا يصح مرفوعًا إلى النبي ﷺ، غير أن المصنف لم يسقه من طريق هشام، وفي إسناده العطاردي ضعيف، والقاسم بن عروة، غير معروف. وقال العقيلي: (وليس لهذا الحديث طريق يثبت)[٤].

---

(١) أخرج أبو داود بعض ألفاظه رقم (٦٩٤) ورقم (١٤٨٥)، وأخرج ابن ماجه بعض ألفاظه رقم (٩٥٩)، وأخرجه الحاكم في المستدرك رقم (٧٧٠٧).
(٢) تحفة الأشراف (٥/ ٢٣٥).
(٣) المستدرك على الصحيحين (٤/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠).
(٤) الضعفاء (٤/ ٣٤٠ ـ ٣٤١).

وقد تضمن الحديث أكثر من خمس عشرة جملةً، بعضها يروى حديثًا، وبعضها من الحكم، والكلام الحسن، وليس بينها رابط موضوعي، مما يدل على ضعفه. ولعل الشاهد منه قوله: (لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم)، فدل على بذل العلم لطالبه ومستحقه.





البعث بعد الموت

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(ويؤمن أهل الدين والسنة بالبعث بعد الموت، يوم القيامة، وبكل ما أخبر الله سبحانه به من أهوال ذلك اليوم الحق، واختلاف أحوال العباد فيه والخلق فيما يرونه ويلقونه هنالك، في ذلك اليوم الهائل، من أخذ الكتب بالأيمان والشمائل، والإجابة عن المسائل، إلى سائر الزلازل والبلابل(١) الموعودة في ذلك اليوم العظيم، والمقام الهائل؛ من الصراط، والميزان، ونشر الصحف التي فيها مثاقيل الذر من الخير والشر وغيرها).

الشَّرْح

لما فرغ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ من الكلام على مسائل الإيمان بالله، ثنى بالكلام على مسألة البعث، ذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كثيرًا ما يقرن ما بين الإيمان به، والإيمان باليوم الآخر؛ لعظم هذا الركن، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ [البقرة: ٦٢]، وقال: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]. فجميع الرسالات المنزلة من الله تتضمن ثلاثة أمور قطعًا، وهي: الإيمان بالله، والإيمان بالمعاد، والعمل الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ

---

(١) البلابل؛ أي: الهموم والأحزان.

ﭐلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ [البقرة: ٦٢]. فهذه ثلاث قضايا متلازمة، لا انفكاك بينها بحال، جاءت في كل دين، أنزله الله على كل نبي، لكل أمة. فالإيمان باليوم الآخر له أثر كبير على المؤمن؛ فلولاه لانفرط نظام الدين، وأطلق المرء لنفسه عنان الشهوات؛ لأنه لا يخشى بعثًا ولا نشورًا، بخلاف من علم أن من ورائه يومًا يجازى المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، فذلك يحمله على الاستقامة. قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ۝١٠﴾ [الإنسان: ٧ ـ ١٠].

ولا يتم الإيمان باليوم الآخر إلا بالإيمان بأربعة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بما يكون في القبر: وهما شيئان:

أحدهما: فتنة القبر: وهي سؤال الملكين للميت عن ثلاث مسائل: عن ربه، وعن دينه، وعن نبيه؛ فأما المؤمن فيقول: ربي الله، والإسلام ديني، ومحمد نبيي، وأما الشاك أو المرتاب فيقول: هاه! هاه! لا أدري. سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته. قال ﷺ: يقول النبي ﷺ: «**أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ مِثْلَ** ـ أَوْ **قَرِيبَ**، لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ ـ **مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، يُقَالُ: مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا المُؤْمِنُ** ـ أَوِ: **المُوقِنُ**، لَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا قَالَتْ أَسْمَاءُ ـ **فَيَقُولُ: هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالهُدَى، فَأَجَبْنَا وَاتَّبَعْنَا، هُوَ مُحَمَّدٌ ثَلَاثًا، فَيُقَالُ: نَمْ صَالِحًا، قَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ لَمُوقِنًا بِهِ. وَأَمَّا المُنَافِقُ** ـ أَوِ: **المُرْتَابُ**، لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ ـ **فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ**»[(١)].

الثاني: عذاب القبر أو نعيمه: فأما الكافر، فإنه يعذب إلى أن تقوم الساعة؛ كما قال تعالى عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر: ٤٦]. وربما أصاب بعض عصاة الموحدين عذاب في القبر بسبب سيئات بدرت منهم؛ كما دل

(١) أخرجه البخاري رقم (٨٦).

على ذلك حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ؛ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**»، ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً، فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ، فَغَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: «**لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا**»(١)، لكنه عذاب ينقطع؛ إما بسبب عمل صالح أجراه الإنسان في حياته، أو بدعوة من ولد أو أخ صالح، أو برحمة أرحم الراحمين.

الأمر الثاني: الإيمان بالبعث: وهو الاعتقاد الجازم بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخرج الناس من قبورهم، يوم القيامة، أحياء، حفاة، عراة، غرلًا، بهمًا؛ حفاة: غير منتعلين، عراة: غير مكتسين، غرلًا: غير مختونين؛ كما قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، بهمًا؛ أي: ليس معهم شيء. عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**»، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: «**الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ**»(٢).

ويجري في ذلك اليوم الهائل، من الزلازل والبلابل، أمور، منها:

- **النفخ في الصور**: قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، فالأولى نفخة الصعق، والثانية نفخة البعث.

- **النشر والحشر**: قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يس: ٥١، ٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾ [القمر: ٦، ٧].

- **دنو الشمس من العباد، وإلجامهم العرق**: قال ﷺ: «**تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ**

(١) أخرجه البخاري رقم (٢١٨)، ومسلم رقم (٢٩٢).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٥٢٧)، ومسلم رقم (٢٨٥٩).

الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ» ـ قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ؟ أَمَسَافَةَ الْأَرْضِ، أَمِ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ ـ قَالَ: «**فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حِقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا**»، قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ[1].

ـ **ورود الحوض:** وهو حوض النبي ﷺ في عرصات القيامة. وسيأتي له مزيد بيان في كلام المصنف.

ـ **نشر الدواوين، وهي صحائف الأعمال:** قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]، فآخذ كتابه بيمينه، أو شماله من وراء ظهره؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٩]، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الانشقاق: ٧ ـ ١٢]. فتلوى شماله من وراء ظهره، تبكيتًا له وترذيلًا.

ـ **نصب الموازين:** قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]. والموازين: جمع ميزان. وهو ميزان حقيقي له لسان وكِفَّتان، له الكيفية التي يعلمها الله، توزن به الأعمال؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٨٦٤).

وربما وزن العامل! فإن الصحابة رضي الله عنهم، رأوا مرة عبد الله مَسْعُودٍ، وكَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مِمَّ تَضْحَكُونَ؟**»، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ**»[(١)]. وقال النبي ﷺ: «**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، اقْرَؤُوا** ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: ١٠٥]»[(٢)].

وقد توزن صحائف الأعمال؛ كما جاء في الحديث: «**إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا؛ كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ**»، قَالَ: «**فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ**»[(٣)]، **وذلك أن هذا الرجل كان موحدًا حنيفًا، حقق لا إله إلا الله، وتخلص من الشرك أكبره وأصغره، ظاهره وخفيه، لكن بدرت منه خطايا كثيرة. فمعاصيه كثيرة كمًّا، وتوحيده ثقيل كيفًا، فثقل الكيف بالكم. فما بالك بمن عافاه الله من الخطايا، وحقق التوحيد!**

لكن العبرة بوزن الأعمال؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ـ **ورود النار، وعبور الصراط**: قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ

---

(١) أخرجه أحمد رقم (٣٩٩١).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٤٧٢٩)، ومسلم رقم (٢٧٨٥)، متفق عليه.
(٣) أخرجه الترمذي رقم (٢٦٣٩)، وابن ماجه رقم (٤٣٠٠).

رَبِّكَ حَتۡمًا مَّقۡضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ [مريم: ٧١، ٧٢]. والورود لا يستلزم الوقوع، فإن الموحدين يؤمرون بالمرور على الصراط المضروب على متن جهنم، وفي الحديث: «**أَنَّ الْجِسْرَ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ، وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ**»[١] وقال النبي ﷺ: «**مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ، فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ**»[٢]. وأما صفة المرور، فكما أخبر النبي ﷺ في حديث أبي هريرة، وحذيفة: «**وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ، فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ**» قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: «**أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ. وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا**»، قَالَ: «**وَفِي حَافَتَيِ الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنِ أُمِرَتْ بِهِ؛ فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ**» وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ، إِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا[٣].

فيجوز من سبقت له من الله الحسنى إلى موضع في طرف الصراط مما يلي الجنة يقال له: القنطرة، وهي موضع يجتمع عليه المؤمنون قبل أن يدخلوا الجنة؛ ليطهروا من الغل والإحن التي كانت بين بعضهم بعضًا في الدنيا، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس طيبة، فلا يليق أن يدخلوا الجنة وفيهم ذلك؛ فيقتص لبعضهم من بعض، ويتغافرون فيما بينهم، حتى تطيب نفوسهم؛ كما قال الله: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

الأمر الثالث: الحساب: وهو الإيمان بأن الله تعالى يحاسب الخلائق

(١) أخرجه مسلم رقم (١٨٣).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٧٤٣٩)، ومسلم رقم (١٨٣)، واللفظ له.
(٣) أخرجه مسلم: رقم (١٩٥).

يوم القيامة. والخلائق نوعان: إما كافر وإما مؤمن، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]؛ فأما حساب الكافرين فلا يكون بموازنة الحسنات والسيئات؛ لأنه لا حسنات لهم، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، ولكن يقررون بذنوبهم؛ إقامة للعدل، فيقرون بها، ثم يقذفون في جهنم.

وأما حساب المؤمنين فعلى نوعين:

أحدهما: عرض: فمن سبقت له من الله الحسنى، وأراد الله تعالى به خيرًا، كان كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «**إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ**»(١)، فما أنعمه، وما أسعده إذا قرعت سمعه هذه البشرى من لدن رحيم غفور! لقد سعد سعادة لن يشقى بعدها أبدًا. جعلنا الله وإياكم منهم.

الثاني: مناقشة: وهي محاسبة عصاة الموحدين، من أهل الكبائر؛ كالربا، والزنا، وشرب الخمور، والغيبة، والنميمة، وغيرها، ممن لم يشأ الله تعالى أن يغفر لهم. عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ إِلَّا هَلَكَ**»! قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، أَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾؟ قَالَ: «**ذَاكَ العَرْضُ؛ يُعْرَضُونَ، وَمَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ هَلَكَ**»)(٢)؛ يعني: ومن دقق معه في الحساب عذب.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ، فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟**»، قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ:**

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٤٤١)، ومسلم رقم (٢٧٦٨).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٤٩٣٩)، ومسلم رقم (٢٨٧٦).

فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ: فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»[(١)].

الأمر الرابع: الجزاء: والمراد به الجنة أو النار؛ فالجنة: هي الدار التي أعدها الله لعباده المتقين، فيها من أنواع النعيم الحسي والمعنوي ما لا يخطر ببال ولا يدور بخيال. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]»[(٢)]. وفي الحديث: «أَلَا مُشَمِّرٌ لِلْجَنَّةِ؟ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا، هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلَأْلَأُ، وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَنَهَرٌ مُطَّرِدٌ، وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ نَضِيجَةٌ، وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ، وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ فِي مَقَامٍ أَبَدًا، فِي حَبْرَةٍ وَنَضْرَةٍ، فِي دَارٍ عَالِيَةٍ سَلِيمَةٍ بَهِيَّةٍ»[(٣)].

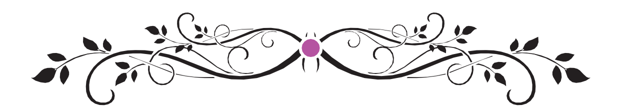
وأما النار: فهي الدار التي أعدها الله لأعدائه الكافرين، فيها من صنوف العذاب الحسي والمعنوي ما ترتجف من ذكره القلوب، وتقشعر الأبدان؛ قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج: ١٩ ـ ٢٢]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٩٦٩).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٢٤٤)، ومسلم رقم (٢٨٢٤).
(٣) أخرجه ابن ماجه رقم (٤٣٣٢).

قال النبي ﷺ: «**فأُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ**»(١)، فيعيد الله أجسادهم من جديد وينشئهم خلقًا آخر فيدخلون الجنة، فلا يبقى في النار إلا أهلها الذين أشركوا بالله؛ كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، وهذا يدلنا على خطر الشرك وأنه لا يغفره الله تعالى.



(١) أخرجه مسلم رقم (١٨٥).



الشفاعة

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

❁ (ويؤمن أهل الدين والسنة بشفاعة الرسول ﷺ لمذنبي أهل التوحيد، ومرتكبي الكبائر؛ كما ورد به الخبر الصحيح عن رسول الله ﷺ).

❁ (أخبرنا أبو سعيد بن حمدون، أنبأنا أبو حامد بن الشرقي، حدثنا أحمد بن يوسف السلمي، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن ثابت، عن أنس، عن النبي ﷺ، قال: «**شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**»[(١)]).

❁ (وأخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد، قال: أخبرنا محمد بن المسيب الأرغياني، حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عبد السلام بن حرب الملائي، عن زياد بن خيثمة، عن نعمان بن قراد، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: «**خيرت بين الشفاعة، وبين أن يدخل شطر أمتي الجنة، فاخترت الشفاعة؛ لأنها أعم وأكفى، أترونها للمؤمنين المتقين؟ لا، ولكنها للمذنبين المتلوثين الخطائين**»[(٢)]).

❁ (أخبرنا أبو محمد المخلدي، قال: أخبرنا أبو العباس السراج، قال: حدثنا قتيبة بن سعيد، قال: حدثنا عبد العزيز بن

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١٣٢٢٢)، وأبو داود رقم (٤٧٣٩)، والترمذي رقم (٢٤٣٥).
(٢) أخرجه أحمد رقم (٥٤٥١)، والترمذي رقم (٢٤٤١)، وابن ماجه رقم (٤٣١١).

محمد الدراوردي، عن عمرو بن أبي عمرو. (ح) وأخبرنا أبو طاهر بن خزيمة، قال: أخبرنا جدي الإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة، قال: حدثنا علي بن حجر، حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبي عمرو، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه قال: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث. إن أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قِبل نفسه**»[(١)].

الشَّرْح

الشفاعة هي: سؤال الخير للغير. والشفع قسيم الوتر؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾ [الفجر: ٣]. سميت بذلك لأن الشافع انضم إلى المشفوع له فصارا زوجًا بعد أن كان فردًا.

ولنبينا ﷺ يوم القيامة شفاعات متعددة؛ منها ما يختص به، ومنها ما يشاركه فيها غيره. فالشفاعات الخاصة ثلاثة:

الأولى: الشفاعة العظمى: وهي الشفاعة لأهل الموقف أن يقضى بينهم، وهي المقام المحمود الذي قال الله عنه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩]. وقد فسرها النبي ﷺ في الحديث الطويل: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ، مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّك، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللهِ، فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللهِ، وَكَلِمَتُهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ،**

(١) أخرجه البخاري رقم (٩٩).

فَيَأْتُونِي، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي»[1].

الثانية: الشفاعة لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة: فلا يدخل أهل الجنة إلا به، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ**»[2].

الثالثة: شفاعته ﷺ في عمه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب: وهذه لا نظير لها؛ لأن الله قد قال عن المشركين: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾ [المدثر: ٤٨]؛ فقد قال العباس بن عبد المطلب: (يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»)[3]، وفي رواية: «**إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ، كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا، وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا**»[4].

أما الشفاعة العامة، فهي مشتركة بين النبي ﷺ، وسائر الأنبياء، والملائكة، والصالحين، والشهداء، حتى الفرط يشفع في أبويه، والشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته، وهي الشفاعة فيمن استحق النار من عصاة الموحدين، ألا يدخلها، وفيمن دخلها أن يخرج منها: فهذه يثبتها أهل السنة والجماعة؛ للأحاديث المتواترة فيها، وينكرها المعتزلة والخوارج، بناءً على أصلهم الفاسد في إخراج مرتكب الكبيرة من حد الإيمان. وسبق قول بعض الناظمين:

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٥١٠)، ومسلم رقم (١٩٣).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٧٥١٠)، ومسلم رقم (١٩٧).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٦٢٠٨)، ومسلم رقم (٢٠٩).
(٤) أخرجه مسلم رقم (٢١٣).

مما تواتر حديث من كذب ... ومن بنى لله بيتًا واقترب

ورؤية وشفاعة والحوض ... ومسح خفين وهذي بعض

جاء في حديث الشفاعة المتقدم: «**فَيَقُولُ: انْطَلِقْ، فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ** - أَوْ: **خَرْدَلَةٍ - مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ، فَأَنْطَلِقُ، فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ**»، فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ أَنَسٍ قُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا: لَوْ مَرَرْنَا بِالحَسَنِ وَهُوَ مُتَوَارٍ فِي مَنْزِلِ أَبِي خَلِيفَةَ فَحَدَّثْنَاهُ بِمَا حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، فَأَتَيْنَاهُ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ، فَأَذِنَ لَنَا، فَقُلْنَا لَهُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فَلَمْ نَرَ مِثْلَ مَا حَدَّثَنَا فِي الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: هِيهْ، فَحَدَّثْنَاهُ بِالحَدِيثِ، فَانْتَهَى إِلَى هَذَا المَوْضِعِ، فَقَالَ: هِيهْ، فَقُلْنَا لَمْ يَزِدْ لَنَا عَلَى هَذَا، فَقَالَ: لَقَدْ حَدَّثَنِي وَهُوَ جَمِيعٌ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً، فَلَا أَدْرِي أَنَسِيَ أَمْ كَرِهَ أَنْ تَتَّكِلُوا، قُلْنَا: يَا أَبَا سَعِيدٍ، فَحَدِّثْنَا، فَضَحِكَ، وَقَالَ: خُلِقَ الإِنْسَانُ عَجُولًا، مَا ذَكَرْتُهُ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ. حَدَّثَنِي كَمَا حَدَّثَكُمْ بِهِ، قَالَ: «**ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي، لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»(١).

ثم بعد هذه الشفاعة، يقول الرب ﷻ: «**شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ**

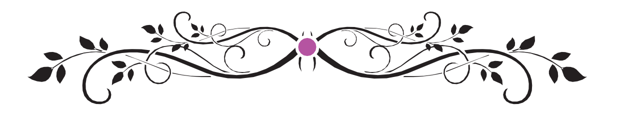
---

(١) سبق تخريجه.

الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهَرُ الْحَيَاةِ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ»[١]؛ لأن الله تكفل بالجنة بملئها، وللنار بملئها، فأما النار فلا يزال يلقى فيها؛ كما في الحديث: «**يُقَالُ لِجَهَنَّمَ: هَلِ امْتَلَأْتِ، وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، فَيَضَعُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدَمَهُ عَلَيْهَا، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ**»[٢]. وأما الجنة فيبقى فيها مجال ليس فيها أحد، «**يَبْقَى مِنَ الْجَنَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَبْقَى ثُمَّ يُنْشِئُ اللهُ تَعَالَى لَهَا خَلْقًا مِمَّا يَشَاءُ**»[٣]، فيسكنهم فيها بفضله.



(١) أخرجه البخاري رقم (٧٤٣٩)، ومسلم رقم (١٨٣)، واللفظ له.
(٢) أخرجه البخاري رقم (٤٨٤٩)، ومسلم رقم (٢٨٤٦).
(٣) أخرجه مسلم رقم (٢٨٤٨).



الحوض والكوثر

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(ويؤمنون بالحوض، والكوثر، وإدخال فريق من الموحدين الجنة بغير حساب، ومحاسبة فريق منهم حسابًا يسيرًا، وإدخالهم الجنة بغير سوء يمسهم، وعذاب يلحقهم، وإدخال فريق من مذنبيهم النار، ثم إعتاقهم وإخراجهم منها، وإلحاقهم بإخوانهم الذين سبقوهم إلى الجنة، ولا يخلدون في النار).

(فأما الكفار فإنهم يخلدون فيها، ولا يخرجون منها أبدًا، ولا يترك الله فيها من عصاة أهل الإيمان أحدًا).

الشَّرْح

مما يجب الإيمان به، مما يقع في عرصات القيامة، الحوض المورود، لنبينا ﷺ. عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا آنِيَةُ الْحَوْضِ؟ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا، أَلَا فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ، آنِيَةُ الْجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ آخِرَ مَا عَلَيْهِ، يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ، عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ، مَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى أَيْلَةَ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ**»(١)، فإذا قام الناس من قبورهم، إلى أرض المحشر، ودنت منهم الشمس قدر ميل أو ميلين، كما تقدم، لحقهم عرق شديد، ويكونون في غاية العطش، قال ﷺ:

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٣٠٠).

«**أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ**»[١]. وفرط القوم: سابقهم إلى مورد الماء؛ ليهيأه لهم. قال: «**إِنَّ حَوْضِي أَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ. لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ بِاللَّبَنِ، وَلَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ النُّجُومِ. وَإِنِّي لَأَصُدُّ النَّاسَ عَنْهُ، كَمَا يَصُدُّ الرَّجُلُ إِبِلَ النَّاسِ عَنْ حَوْضِهِ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتَعْرِفُنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ؛ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ**»[٢]، والغرة: بياض في جبين الفرس، والتحجيل: بياض في قوائمه. فمن شرب منه شربةً لم يظمأ بعدها أبدًا.

وأما الكوثر: فنهر أعطاه الله نبيه في الجنة. ويصب منه ميزابان في حوض النبي ﷺ في عرصات القيامة. قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١].

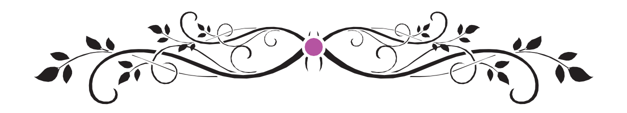
ثم إن المصنف ذكر أنواع الحساب من عرض ومناقشة، وقد تقدم بيانه. كما ذكر أن من المؤمنين من يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب، وهم السبعون ألفًا الذين قال عنهم النبي ﷺ: «**يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**»[٣].

ثم بيَّن المصنف عقيدة أهل الحديث في مرتكب الكبيرة الذي لم يغفر الله له، وأدخله النار، أنه لا يخلد فيها كسائر الكافرين؛ بل مآله إلى الجنة، بسبب حسنة الإيمان والتوحيد، فيخرج منها، ويلحق بإخوانه الموحدين في الجنة.

أما الوعيدية من الخوارج والمعتزلة، فقد أنكروا الشفاعة، وحكموا على مرتكب الكبيرة بالخلود في النار، وضربوا عرض الحائط بالأحاديث الصحيحة المتواترة الصريحة، الدالة على إخراج عصاة الموحدين من النار.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٥٧٥)، ومسلم رقم (٢٢٨٩).
(٢) أخرجه البخاري رقم (١٣٦)، ومسلم رقم (٢٤٧)، متفق عليه، واللفظ لمسلم.
(٣) أخرجه البخاري رقم (٦٤٧٢)، ومسلم رقم (٢١٨).



رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(ويشهد أهل السنة أن المؤمنين يرون ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم، وينظرون إليه على ما ورد به الخبر الصحيح عن رسول الله ﷺ في قوله: «**إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر**»[(١)]. والتشبيه وقع للرؤية بالرؤية، لا للمرئي بالمرئي، والأخبار الواردة في الرؤية مخرجة في كتاب «الانتصار» بطرقها).

الشَّرح

يعتقد أهل السنة والجماعة أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، في موضعين:

أحدهما: في عرصات القيامة: يعني: في مواقف الحساب؛ كما دل على ذلك حديث أبي هريرة، وحديث أبي سعيد في الصحيحين، وغيرهما.

الثاني: في الجنة: كما دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع.

دلالة الكتاب: من أوضح أدلته قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وذلك أن كلمة: «نظر» لها ثلاثة استعمالات في اللغة:

- إذا كانت لازمة غير متعدية، دلت على التريث والانتظار؛ كقولك: أنظرني.
- إذا تعدت بـ(في) دلت على التفكر والاعتبار؛ كقولك: نظرت في الأمر.

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٤٣٧)، ومسلم رقم (١٨٣)، متفق عليه.

ـ إذا تعدت بـ (إلى): دلت على المعاينة بالأبصار؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فكذلك قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾، دل على النظر بالأعين إلى وجه الله الكريم.

قال البيهقي رحمه الله تعالى: (بَابُ الْقَوْلِ فِي إِثْبَاتِ رُؤْيَةِ اللهِ عَجَلَّ فِي الْآخِرَةِ بِالْأَبْصَارِ. قَالَ اللهُ عَجَلَّ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ﴾؛ يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿نَّاضِرَةٌ ٢٢﴾؛ يَعْنِي: مُشرِقَةً، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وَلَيْس يَخْلُو النَّظَرُ مِنْ وُجُوهٍ:

ـ إِمَّا أَنْ يَكُونَ اللهُ عَجَلَّ عَنَى بِهِ نَظَرَ الِاعْتِبَارِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧﴾ [الغاشية: ١٧].

ـ أَوْ يَكُونَ عَنَى بِهِ نَظَرَ الِانْتِظَارِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [يس: ٤٩].

ـ أَوْ يَكُونَ عَنَى بِهِ نَظَرَ التَّعَطُّفِ وَالرَّحْمَةِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ﴾ [آل عمران: ٧٧].

ـ أَوْ يَكُونَ عَنَى الرُّؤْيَةَ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ [محمد: ٢٠].

وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللهُ سُبْحَانَهُ عَنَى بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ نَظَرَ التَّفَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ؛ لِأَنَّ الْآخِرَةَ لَيْسَتْ بِدَارِ اسْتِدْلَالٍ وَاعْتِبَارٍ، وَإِنَّمَا هِيَ دَارُ اضْطِرَارٍ.

وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَنَى نَظَرَ الِانْتِظَارِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَنَّةِ انْتِظَارٌ؛ لِأَنَّ الِانْتِظَارَ مَعَهُ تَنْغِيصٌ وَتَكْدِيرٌ. وَالْآيَةُ خَرَجَتْ مَخْرَجَ الْبِشَارَةِ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ فِيمَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ؛ مِنَ الْعَيْشِ السَّلِيمِ، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، فَهُمْ مُمَكَّنُونَ مِمَّا أَرَادُوا وَقَادِرُونَ عَلَيْهِ، وَإِذَا خَطَرَ بِبَالِهِمْ شَيْءٌ أُتُوا بِهِ مَعَ خُطُورِهِ بِبَالِهِمْ. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، لَمْ يَجُزْ أَنْ يَكُونَ اللهُ أَرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ نَظَرَ الِانْتِظَارِ؛ وَلِأَنَّ النَّظَرَ إِذَا ذُكِرَ مَعَ ذِكْرِ الْوُجُوهِ فَمَعْنَاهُ: نَظَرُ الْعَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ فِي الْوَجْهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدۡ

نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وَأَرَادَ بِذَلِكَ تَقَلُّبَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ؛ وَلِأَنَّهُ قَالَ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٣]، وَنَظَرُ الِانْتِظَارِ لَا يَكُونُ مَقْرُونًا بِـ «إِلَى»؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ عِنْدَ الْعَرَبِ أَنْ يَقُولُوا فِي نَظَرِ الِانْتِظَارِ: «إِلَى»، أَلَا تَرَى أَنَّ اللهَ ﷻ لَمَّا قَالَ: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ٤٩]، لَمْ يَقُلْ: «إِلَى»؛ إِذْ كَانَ مَعْنَاهُ الِانْتِظَارَ، وَقَالَتْ بِلْقِيسُ فِيمَا أَخْبَرَ اللهُ عَنْهَا: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل: ٣٥]، فَلَمَّا أَرَادَتِ الِانْتِظَارَ لَمْ تَقُلْ: «إِلَى».

قُلْنَا: وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَرَادَ نَظَرَ التَّعَطُّفِ وَالرَّحْمَةِ؛ لِأَنَّ الْخَلْقَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَعَطَّفُوا عَلَى خَالِقِهِمْ، فَإِذَا فَسَدَتْ هَذِهِ الْأَقْسَامُ الثَّلَاثَةُ، صَحَّ الْقِسْمُ الرَّابِعُ مِنْ أَقْسَامِ النَّظَرِ، وَهُوَ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ أَنَّهَا رَائِيَةٌ تَرَى اللهَ ﷻ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: إِلَى ثَوَابِ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ؛ لِأَنَّ ثَوَابَ اللهِ غَيْرُ اللهِ، وَإِنَّمَا قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾، وَلَمْ يَقُلْ: إِلَى غَيْرِ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ، وَالْقُرْآنُ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نُزِيلَهُ عَنْ ظَاهِرِهِ إِلَّا بِحُجَّةٍ)[١].

ومن أدلة القرآن قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]؛ عَنْ صُهَيْبٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ** ﷻ»، وزاد في رواية: «ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾»[٢].

ومن أدلة القرآن قول الله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣٥]؛ فقد وردت آثار بتفسير المزيد بتجلي الله لهم في الجنة[٣].

---

(١) الاعتقاد، للبيهقي (ص١٢٠، ١٢١).

(٢) أخرجه مسلم رقم (١٨١)، الترمذي رقم (٣١٠٥)، وأحمد رقم (١٨٩٣٥)، وابن ماجه رقم (١٨٧).

(٣) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي رقم (٨١٣)، (٨٥٢).

واستنبط الإمام الشافعي ذلك من قوله الله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المطففين: ٢٣]؛ قَالَ الرّبيع: كنت ذَات يَوْم عِنْد الشَّافِعِي، وجاءه كتاب من الصَّعِيد، يسألونه عَن قَوْله عز وَجل: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]، فَكتب: لما حجب قومًا بالسخط، دلّ عَلَى أَن قومًا يرونه بِالرِّضَا. قلت لَهُ: أَوتدين بِهَذَا يَا سَيِّدي؟ فَقَالَ: وَالله، لَو لم يُوقن مُحَمَّد بْن إِدْرِيس أَنه يرى ربه فِي الْمعَاد لما عَبده فِي الدُّنْيَا[1]. وهذا مأخذ لطيف دقيق يدل على عمق فقهه رَحِمَهُ اللَّهُ.

دلالة السنة: تواترت الأحاديث في إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة: «**أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ**»[2]، لا تُضامون؛ أي: لا يلحقكم ضيم ومذلة وقهر، أو: لا ينضم بعضكم إلى بعض وتتزاحمون. فالمؤمنون يرون ربهم يوم القيامة على هذه الحالة الكريمة، لا يُضامون ولا يتضامُّون، وهذا كما نبه المصنف من تشبيه الرؤية بالرؤية، لا المرئي بالمرئي. ليس هذا من تشبيه الله بالقمر، أو تشبيه القمر بالله ـ حاشا وكلا ـ فالله ليس كمثله شيء. وإنما من تشبيه الحال بالحال. وبيَّن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، أنه قد حشد الأدلة على إثبات الرؤية في كتابه «الانتصار»، وهذا الكتاب مفقود. وأحاديث الرؤية، بحمد الله تعالى، كثيرة ومتواترة.

وإنما أنكر الرؤية: المعتزلة، والرافضة، والزيدية، والإباضية، واستدلوا بدليلين:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، والجواب عنه: أن الإدراك هو الإحاطة؛ فنفي الإدراك لا يستلزم نفي الرؤية، فقد ترى الشيء ولا تحيط به! تنظر إلى القمر ولا تدرك تفاصيله، تنظر إلى الجبل ولا تدرك تفاصيله. وأجابت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أي لا تدركه الأبصار في الدنيا.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٨١).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٥٤)، ومسلم رقم (٦٣٣).

الثاني: بقول الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، والجواب عنه: أن المقصود لن تراني في الدنيا، فلا طاقة لك بذلك، أما في الآخرة؛ فإن الله يهب المؤمنين قوة ما تمكنهم من الاستمتاع بالنظر إلى وجه الله الكريم.

و(لن)، وإن كانت أداة نفي، لكن لا يلزم منها النفي المؤبد؛ كما قال ابن مالك في الكافية الشافية:

ومن رأى النفي بلن مؤبدًا ... فقوله اردد وسواه فاعضدا

ويشهد لذلك ما ذكره الله في قصة بني إسرائيل: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآۖ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢]، فوقعت الرؤية، ولم يقع إدراك.

بل إن هذا الدليل ينعكس عليهم، فقد قال البيهقي رحمه الله: (وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللهَ عز وجل يُرَى بِالْأَبْصَارِ قَوْلُ مُوسَى الْكَلِيمِ عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، قَدْ أَلْبَسَهُ اللهُ جِلبَابَ النَّبِيِّينَ، وَعَصَمَهُ مِمَّا عَصَمَ مِنْهُ الْمُرْسَلِينَ، يَسْأَلُ رَبَّهُ مَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ. وَإِذَا لَمْ يَجُزْ ذَلِكَ عَلَى مُوسَى عليه السلام، فَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْ رَبَّهُ مُسْتَحِيلًا[١]، وَأَنَّ الرُّؤْيَةَ جَائِزَةٌ عَلَى رَبِّنَا عز وجل. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عز وجل لِمُوسَى عليه السلام: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فَلَمَّا كَانَ اللهُ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَجْعَلَ الْجَبَلَ مُستَقِرًّا، كَانَ قَادِرًا عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي لَوْ فَعَلَهُ لَرَآهُ مُوسَى، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُرِيَ نَفْسَهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّهُ جَائِزٌ رُؤْيَتُهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ أَرَادَ بِهِ فِي الدُّنْيَا دُونَ الْآخِرَةِ، بِدَلِيلِ مَا مَضَى مِنَ الْآيَةِ؛ وَلِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾

(١) ولو كان سؤاله عليه السلام فاسدًا من أصله، لعتب الله عليه كما عتب على نوح عليه السلام حين قال: ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٤٦﴾ [هود: ٤٥، ٤٦].

[الأحزاب: ٤٤]، وَاللِّقَاءُ إِذَا أُطْلِقَ عَلَى الْحَيِّ السَّلِيمِ، لَمْ يَكُنْ إِلَّا رُؤْيَةَ الْعَيْنِ، وَأَهْلُ هَذِهِ التَّحِيَّةِ لَا آفَةَ بِهِمْ؛ وَلِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣٥]، وَقَالَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وَقَدْ فَسَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمُبَيِّنُ عَنِ اللهِ ﷻ، فَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ أَخَذُوا عَنْهُ، وَالتَّابِعِينَ الَّذِينَ أَخَذُوا عَنِ الصَّحَابَةِ، أَنَّ الزِّيَادَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَانْتَشَرَ عَنْهُ وَعَنْهُمْ إِثْبَاتُ رُؤْيَةِ اللهِ ﷻ فِي الْآخِرَةِ بِالْأَبْصَارِ)[(١)].

بل إن هذا غاية ما يتمناه المؤمن ويسعى إليه، وهو مقتضى التأله والشوق إلى الله، ومحبته. وقد أنشد ابن القيم في هذا أبياتًا لطيفة قال فيها:

فيا نظرة أهدت إلى الوجه نضرة ... أمن بعدها يسلو المحب المتيمُ
ولكننا سبي العدو فهل ترى ... نرد إلى أوطاننا ونسلم
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى ... وشطت به أوطانه فهو مغرم
وأي اغتراب فوق غربتنا التي ... أضحت لها الأعداء فينا تحكم
فحي على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المخيم

❁ ❁ ❁

(١) الاعتقاد، للبيهقي (ص١٢٢، ١٢٣).



الإيمان بالجنة والنار وأنهما مخلوقتان

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

(ويشهد أهل السنة أن الجنة والنار مخلوقتان، وأنهما باقيتان لا يفنيان أبدًا، وأن أهل الجنة لا يخرجون منها أبدًا، وكذلك أهل النار الذين هم أهلها خلقوا لها، لا يخرجون منها أبدًا، وأن المنادي ينادي يومئذ: «**يا أهل الجنة، خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت**»، على ما ورد به الخبر الصحيح عن رسول الله ﷺ(١)).

الشَّرْح

يعتقد أهل السنة والجماعة أن الجنة والنار مخلوقتان؛ أي: موجودتان الآن. والدليل على وجودهما أن الله تعالى قال عن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال عن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤]. ومعنى أعدت في الموضعين: هيئت.

ومما يدل على ذلك أيضًا، حديث صلاة الكسوف، فقد صلى النبي ﷺ الكسوف بأصحابه، فرأوه تقدم مرة، واستأخر أخرى، وبين لهم ذلك بعد انقضاء الصلاة في موعظة مؤثرة، جاء فيها: «**مَا مِنْ شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلَاتِي هَذِهِ، لَقَدْ جِيءَ بِالنَّارِ، وَذَلِكُمْ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ، مَخَافَةَ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْ لَفْحِهَا، وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَ الْمِحْجَنِ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، كَانَ يَسْرِقُ الْحَاجَّ بِمِحْجَنِهِ، فَإِنْ فُطِنَ لَهُ قَالَ: إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمِحْجَنِي، وَإِنْ غُفِلَ عَنْهُ**

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٧٣٠)، ومسلم رقم (٢٨٤٩).

ذَهَبَ بِهِ، وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَةَ الْهِرَّةِ الَّتِي رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ، حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، ثُمَّ جِيءَ بِالْجَنَّةِ، وَذَلِكُمْ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَقَدَّمْتُ حَتَّى قُمْتُ فِي مَقَامِي، وَلَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَتَنَاوَلَ مِنْ ثَمَرِهَا لِتَنْظُرُوا إِلَيْهِ، ثُمَّ بَدَا لِي أَنْ لَا أَفْعَلَ، فَمَا مِنْ شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلَاتِي هَذِهِ»(١). فالجنة والنار مخلوقتان موجودتان، خلافًا للمعتزلة الذين أنكروا ذلك بمحض العقول، زعمًا منهم أن ذلك من العبث؛ لعدم الحاجة إليهما! قال شارح الطحاوية: (اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ مَوْجُودَتَانِ الْآنَ، وَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ أَهْلُ السُّنَّةِ، حَتَّى نَبَغَتْ نَابِغَةٌ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْقَدَرِيَّةِ، فَأَنْكَرَتْ ذَلِكَ، وَقَالَتْ: بَلْ يُنْشِئُهُمَا اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ!! وَحَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَصْلُهُمُ الْفَاسِدُ الَّذِي وَضَعُوا بِهِ شَرِيعَةً لِمَا يَفْعَلُهُ اللهُ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَفْعَلَ كَذَا، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا!! وَقَاسُوهُ عَلَى خَلْقِهِ فِي أَفْعَالِهِمْ، فَهُمْ مُشَبِّهَةٌ فِي الْأَفْعَالِ، وَدَخَلَ التَّجَهُّمُ فِيهِمْ، فَصَارُوا مَعَ ذَلِكَ مُعَطِّلَةً! وَقَالُوا: خَلْقُ الْجَنَّةِ قَبْلَ الْجَزَاءِ عَبَثٌ؛ لِأَنَّهَا تَصِيرُ مُعَطَّلَةً مُدَدًا مُتَطَاوِلَةً!! فَرَدُّوا مِنَ النُّصُوصِ مَا خَالَفَ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ الْبَاطِلَةَ الَّتِي وَضَعُوهَا لِلرَّبِّ تَعَالَى، وَحَرَّفُوا النُّصُوصَ عَنْ مَوَاضِعِهَا، وَضَلَّلُوا وَبَدَّعُوا مَنْ خَالَفَ شَرِيعَتَهُمْ)(٢).

كما يعتقد أهل السنة والجماعة أنهما باقيتان لا تفنيان؛ فأهل الجنة مخلدون فيها، وأهل النار، الذين هم أهلها، لا عصاة الموحدين، قد قال الله تعالى عنهم في ثلاثة مواضع في القرآن: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾ [النساء: ١٦٩]، [الأحزاب: ٦٥]، [الجن: ٢٣].

والخبر الصحيح الذي أشار إليه المصنف، قوله ﷺ: **«يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ**

---

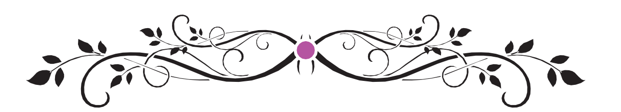
(١) أخرجه مسلم رقم (٩٠٤).

(٢) شرح الطحاوية، ت: الأرناؤوط (٢/ ٦١٥).

النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾، وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾»[١]. لمثل هذا فليعمل العاملون.



(١) سبق تخريجه.



مسألة الإيمان

قال المؤلف رحمه الله:

۞ (ومن مذهب أهل الحديث: أن الإيمان قول وعمل ومعرفة، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، قال محمد بن علي بن الحسن بن شقيق: سألت أبا عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله، عن الإيمان في معنى الزيادة والنقصان؟ فقال: حدثنا الحسن بن موسى الأشيب قال: حدثنا حماد بن سلمة، قال: حدثنا أبو جعفر الخطمي، عن أبيه، عن جده عمير بن حبيب، قال: الإيمان يزيد وينقص. فقيل: وما زيادته وما نقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله فحمدناه وسبحناه؛ فتلك زيادته، وإذا غفلنا وضيعنا ونسينا؛ فذلك نقصانه[(١)]).

۞ (أخبرنا أبو الحسن بن أبي إسحاق المزكى، قال: حدثنا أبي، حدثنا أبو عمرو الحيري، حدثنا محمد بن يحيى الذهلي، ومحمد بن إدريس المكي، وأحمد بن شداد الترمذي، قالوا: حدثنا الحميدي، قال: حدثنا يحيى بن سُليم، سألت عشرة من الفقهاء عن الإيمان، فقالوا: قول وعمل؛ سألت هشام بن حسان، فقال: قول وعمل، وسألت ابن جريج، فقال: قول وعمل، وسألت سفيان الثوري، فقال: قول وعمل، وسألت المثنى بن الصبَّاح، فقال: قول وعمل، وسألت محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان فقال: قول

---

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب السنة (ص٧٥)، والآجري في الشريعة رقم (٢١٦)، وابن أبي شيبة في الإيمان (ص٧).

وعمل، وسألت محمد بن مسلم الطائفي، فقال: قول وعمل، وسألت فضيل بن عياض، فقال: قول وعمل، وسألت نافع بن عمر الجمحي، فقال: قول وعمل، وسألت سفيان بن عيينة، فقال: قول وعمل[١].

(وأخبرنا أبو عمرو الحيري، حدثنا محمد بن يحيى، ومحمد بن إدريس، وسمعت الحميدي يقول: سمعت سفيان بن عيينة يقول: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، فقال له أخوه إبراهيم بن عيينة: يا أبا محمد، تقول: ينقص؟ فقال: اسكت يا صبي! بلى، ينقص حتى لا يبقى منه شيء[٢]).

(وقال الوليد بن مسلم: سمعت الأوزاعي، ومالكًا، وسعيد بن عبد العزيز، ينكرون على من يقول: إقرار بلا عمل؛ ويقولون: لا إيمان إلا بعمل[٣]).

(قلت: فمن كانت طاعاته وحسناته أكثر؛ فإنه أكمل إيمانًا ممن كان قليل الطاعة، كثير المعصية والغفلة والإضاعة).

(وسمعت الحاكم أبا عبد الله الحافظ يقول: سمعت أبا بكر محمد بن أحمد بن باكويه الجلاب يقول: سمعت أبا بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة يقول: سمعت أحمد بن سعيد الرباطي يقول: قال لي عبد الله بن طاهر: يا أحمد! إنكم تبغضون هؤلاء القوم جهلًا، وأنا أبغضهم عن معرفة. إن أول أمرهم أنهم لا يرون للسلطان طاعة. والثاني: أنه ليس للإيمان عندهم قدر. والله، لا

---

(١) الشريعة، للآجري رقم (٢٥٩).
(٢) الشريعة، للآجري رقم (٢٤٤).
(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي رقم (١٥٨٦)، بلفظ: (يُنْكِرُونَ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ بِلَا عَمَلٍ، وَيَقُولُونَ: «لَا إِيمَانَ إِلَّا بِعَمَلٍ، وَلَا عَمَلَ إِلَّا بِإِيمَانٍ»).

أستجيز أن أقول: إيماني كإيمان يحيى بن يحيى، ولا كإيمان أحمد بن حنبل، وهم يقولون: إيماننا كإيمان جبريل وميكائيل).

۞ (وسمعت الحاكم يقول: سمعت أبا جعفر محمد بن صالح بن هانئ يقول: سمعت أبا بكر محمد بن شعيب يقول: سمعت إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يقول: قدم ابن المبارك الري، فقام إليه رجل من العُبَّاد، الظن به أنه يذهب مذهب الخوارج، فقال له: يا أبا عبد الرحمن! ما تقول فيمن يزني، ويسرق، ويشرب الخمر؟ قال: لا أخرجه من الإيمان. فقال: يا أبا عبد الرحمن! على كبر السن، صرتَ مرجئًا، فقال: لا تقبلني المرجئة. المرجئة تقول: حسناتنا مقبولة، وسيئاتنا مغفورة، ولو علمتُ أني قبلَتْ مني حسنة، لشهدت أني في الجنة).

۞ (ثم ذكر عن ابن شوذب، عن سلمة بن كهيل، عن هزيل بن شرحبيل، قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح)[(١)].

۞ (سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن زكريا الشيباني، يقول: سمعت يحيى بن منصور القاضي، يقول: سمعت محمد بن إسحاق بن خزيمة يقول: سمعت الحسين بن حرب ـ أخا أحمد بن حرب الزاهد ـ يقول: أشهد أن دين أحمد بن حرب الذي يدين الله به: أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص).

الشَّرح

هذا الفصل يتعلق بمسألة شريفة، وهي «مسألة الإيمان». والكلام عن الإيمان إما أن يتعلق بأركانه، وإما أن يتعلق بحقيقته. فإذا قيل: الإيمان هو

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٨٠ ـ ١٨١)، بسند صحيح.

الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، فهذا تعريف الإيمان باعتبار أركانه. وإذا قيل: الإيمان قول وعمل، فهذا تعريف الإيمان باعتبار حقيقته وحده وماهيته. وهذا الذي أراده المصنف هنا.

يعتقد أهل السنة والجماعة أن الإيمان له حقيقة مركبة من قول وعمل؛ فالإيمان ليس قولًا فقط، وليس عملًا فقط؛ بل مجموع الأمرين؛ الإيمان قول وعمل؛ قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، فتلك خمسة بنود:

ـ **قول القلب**: اعتقاده وتصديقه، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: ١٤]، وهو الذي دل عليه حديث جبريل: (قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، «**قَالَ**: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»)[1].

ـ **قول اللسان**: الاستعلان بالشهادتين؛ أي: أن يشهد ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله شهادة علانية. قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا، وَصَلَّوْا صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا، وَذَبَحُوا ذَبِيحَتَنَا، فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ**»[2]. ونظائر ذلك كثير.

فلو امتنع عن الشهادتين، مع القدرة والإرادة، فإننا لا نحكم بإيمانه؛ لا ظاهرًا ولا باطنًا، باتفاق أهل السنة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فَأَمَّا «الشَّهَادَتَانِ» إذَا لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِمَا مَعَ الْقُدْرَةِ فَهُوَ كَافِرٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ كَافِرٌ بَاطِنًا وَظَاهِرًا عِنْدَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا وَجَمَاهِيرِ عُلَمَائِهَا)[3].

(١) أخرجه مسلم رقم (٨).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٩٢).
(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٠٩).

ـ **عمل القلب**: ما يتحرك به القلب من النيات والإرادات؛ كالمحبة، والخوف، والرجاء، والتوكل، والأنس بالله، والشوق إليه، ونحو ذلك. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

ـ **عمل اللسان**: ما يلهج به اللسان من الكلم الطيب؛ من تسبيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، ودعوة إلى الله، وتلاوة قرآن.

ـ **عمل الجوارح**: ما تتحرك به الأعضاء من الطاعات؛ من قيام، وقعود، وركوع، وسجود، ووقوف بعرفة، وطواف بالبيت، وسعي بين الصفا والمروة، وإماطة الأذى عن الطريق، وسعي على الأرملة والمسكين، ونحو ذلك. وقد سمى الله الصلاة إيمانًا، فقال بعد حادث تحويل القبلة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ أي: صلاتكم.

ومن الأحاديث الجامعة لحقيقة الإيمان قوله ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ ـ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ ـ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»[(١)]، فقوله: «**فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» يتناول قول القلب، وقول اللسان، وقوله: «**وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ**» يدل على عمل الجوارح. وقوله: «**وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**» يدل على عمل القلب؛ لأن الحياء عمل قلبي.

وربما عبر السلف بألفاظ متقاربة؛ فزادوا ونقصوا، وفصلوا وبينوا؛ لاعتبارات معينة، وكلها تؤول إلى حقيقة واحدة؛ أن الإيمان قول وعمل. قال شيخ الإسلام موفقًا بين الأقوال: (وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ مَنْ قَالَ مِنْ السَّلَفِ: الْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، أَرَادَ قَوْلَ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلَ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ. وَمَنْ أَرَادَ الِاعْتِقَادَ رَأَى أَنَّ لَفْظَ الْقَوْلِ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ إِلَّا الْقَوْلُ الظَّاهِرُ، أَوْ خَافَ ذَلِكَ، فَزَادَ الِاعْتِقَادُ بِالْقَلْبِ. وَمَنْ قَالَ: قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ، قَالَ: الْقَوْلُ يَتَنَاوَلُ

(١) أخرجه مسلم رقم (٣٥).

الِاعْتِقَادَ، وَقَوْلَ اللِّسَانِ، وَأَمَّا الْعَمَلُ فَقَدْ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ النِّيَّةُ، فَزَادَ ذَلِكَ. وَمَنْ زَادَ: اتِّبَاعَ السُّنَّةِ، فَلِأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لَا يَكُونُ مَحْبُوبًا للهِ إِلَّا بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ. وَأُولَئِكَ لَمْ يُرِيدُوا كُلَّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، إِنَّمَا أَرَادُوا مَا كَانَ مَشْرُوعًا مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ، وَلَكِنْ كَانَ مَقْصُودُهُمْ الرَّدَّ عَلَى الْمُرْجِئَةِ الَّذِينَ جَعَلُوهُ قَوْلًا فَقَطْ، فَقَالُوا: بَلْ هُوَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ. وَالَّذِينَ جَعَلُوهُ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ فَسَّرُوا مُرَادَهُمْ؛ كَمَا سُئِلَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ التستري عَنْ الْإِيمَانِ مَا هُوَ؟ فَقَالَ: قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ وَسُنَّةٌ، لِأَنَّ الْإِيمَانَ إذَا كَانَ قَوْلًا بِلَا عَمَلٍ فَهُوَ كُفْرٌ، وَإِذَا كَانَ قَوْلًا وَعَمَلًا بِلَا نِيَّةٍ فَهُوَ نِفَاقٌ، وَإِذَا كَانَ قَوْلًا وَعَمَلًا وَنِيَّةً بِلَا سُنَّةٍ فَهُوَ بِدْعَةٌ)[(١)].

وقد خالف في حقيقة الإيمان فريقان:

أولًا: المرجئة: وهم الذين أرجؤوا العمل عن مسمى الإيمان؛ أي: أخروه، وأخرجوه، ولم يجعلوه داخلًا في حده وتعريفه. فكل من أخرج العمل عن مسمى الإيمان فهو مرجئ. وهم ثلاث طبقات:

١ ـ الجهمية: المنسوبون إلى الجهم بن صفوان السمرقندي، زعموا أن الإيمان معرفة القلب، وحسب! فمن عرف بقلبه فهو مؤمن كامل الإيمان، إيمانه كإيمان جبرائيل وميكائيل، وأبي بكر وعمر؛ لأن المعرفة واحدة، لا تزيد ولا تنقص، ولا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة. ومذهب هؤلاء المفرطين المتساهلين ظاهر التهافت؛ لمناقضته للحقيقة الشرعية للإيمان، ولما يترتب عليه من لوازم فاسدة، لا محيد لهم عنها، وفساد اللازم يدل على فساد الملزوم، فمن ذلك:

ـ أن يكون مشركو العرب مؤمنين؛ لأنهم عرفوا وأقروا! كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٦١﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٨٧﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٧١).

تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩]. فلم تغن عنهم معرفتهم شيئًا.

ـ أن يكون أهل الكتاب الذين أكفرهم الله في كتابه مؤمنين؛ لكونهم عارفين! قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦].

ـ أن يكون فرعون وقومه مؤمنين؛ لكونهم عارفين مستيقنين! قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]، وقال موسى لفرعون: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢].

ـ أن يكون إبليس مؤمنًا؛ لمعرفته بالله، كما قال: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٢]، وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: ٨٢].

٢ ـ الكرامية: المنسوبون إلى محمد بن كرام السجستاني، زعموا أن الإيمان قول اللسان فقط! ومجرد تصور هذه المقالة كافٍ لإسقاطها، فذلك يقتضي تسمية المنافقين مؤمنين، وهم يقولون بذلك! كيف وقد أكذبهم الله وأكفرهم، فقال: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١].

ـ **مرجئة الفقهاء:** وهم فقهاء الكوفة، أصحاب حماد بن أبي سليمان، وأبي حنيفة النعمان، رحمهما الله. يقولون: الإيمان قول باللسان، وتصديق بالجنان، ولا يدخلون العمل في مسماه، ولا يقولون بالزيادة والنقصان. وبعضهم يجعل قول اللسان شرطًا لإجراء الأحكام الظاهرة فقط.

أوجه الاتفاق بين مرجئة الفقهاء وجمهور أهل السنة والجماعة:

ـ لله تعالى على عباده أن يطيعوا أمره، ويجتنبوا نهيه، ويصدقوا خبره.

ـ المطيع محمود في الدنيا، مثاب في الآخرة.

ـ العاصي مذموم في الدنيا، مستحق للعقوبة في الآخرة.

ـ مرتكب الكبيرة لا يخرج عن مسمى الإيمان، وفي الآخرة تحت المشيئة والإرادة.

ـ مرتكب الكبيرة لا يخلد في النار.

ونظرًا لهذا التوافق الكبير في الأحكام، ذهب من ذهب من العلماء إلى أن الخلاف بين الفريقين خلاف لفظي صوري. والحق أن منه ما هو حقيقي، ومنه ما هو صوري؛ للفروقات التالية:

أوجه الاختلاف بين مرجئة الفقهاء وجمهور أهل السنة والجماعة:

ـ العمل جزء مسمى الإيمان، وداخل في حده وتعريفه عند الجمهور، وغير داخل في مسمى الإيمان عند مرجئة الفقهاء؛ بل هو ثمرة له.

ـ الإيمان يتفاضل، ويزيد وينقص عند الجمهور، وهو شيءٌ واحد لا يتفاضل، ولا يزيد ولا ينقص عند مرجئة الفقهاء، إما أن يوجد كله، أو يعدم كله.

ـ المؤمنون متفاضلون عند الجمهور، وهم متساوون في إيمانهم عند مرجئة الفقهاء؛ فإيمان أفجر الناس كإيمان أتقى الناس.

ـ الولاية تتفاضل بين المؤمنين عند الجمهور؛ تبعًا لتفاضل الإيمان، وهي شيءٌ واحد عند مرجئة الفقهاء؛ لا تفاضل في موالاة المؤمنين.

ـ الاستثناء في الإيمان واجب عند الجمهور، خوف تزكية النفس، وادعاء استكمال خصال الإيمان، وممنوع عند مرجئة الفقهاء، باعتباره شكًا في الإيمان، الذي هو التصديق عندهم.

ـ الكفر عند الجمهور يتعلق بالقلب واللسان والجوارح، والكفر عند مرجئة الفقهاء يختص بالجحود والاستحلال القلبي.

ـ الكفر عند الجمهور كفران: اعتقادي وعملي؛ فكل ما سماه الشارع كفرًا فهو كفر، لكن منه أكبر مخرج عن الملة، وأصغر لا يخرج منها. والكفر عند مرجئة الفقهاء كفر واحد؛ اعتقادي. وما سماه الشارع كفرًا من الأمور العملية فهو من باب المجاز لا الحقيقة.

ثانيًا: الوعيدية: وهم الخوارج والمعتزلة، سموا بذلك لقولهم بإنفاذ الوعيد، وإنكار الشفاعة في عصاة الموحدين. وقد أقروا بأن الإيمان قول وعمل، لكنهم أفسدوا ذلك أيما إفساد بقولهم بكفر مرتكب الكبيرة. فالإخلال بواجب من الواجبات، وارتكاب محرم من المحرمات يهدم الإيمان كله، ويخرج صاحبه من مسماه. فالإيمان عندهم شيء واحد؛ إما أن يوجد كله، أو يعدم كله، ثم اختلفوا:

- **الخوارج:** أزالوا عن الفاسق الملِّي اسم الإيمان، وأدخلوه في الكفر؛ لأن من لم يكن مؤمنًا فهو كافر، كما قال الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وهذا حق، لكنهم أخطؤوا في تكفيره.

- **المعتزلة:** جاؤوا بقول لم يُسبقوا إليه، فقالوا: إن مرتكب الكبيرة خرج من الإيمان، ولم يدخل في الكفر، فهو في منزلة بين منزلتين؛ لا مؤمن ولا كافر! وأجمع الفريقان على أنه خالد مخلد في النار، وردوا أحاديث الشفاعة.

وقد ساق المصنف عدة آثار عن جمع من السلف المتقدمين:

١ ـ **أثر عمير بن حبيب** رضي الله عنه: وفيه النص على أن الإيمان يزيد وينقص، وبيان سبب زيادته بالذكر ونقصانه بالغفلة. وهذا أمر وجْدي؛ فحين يجلس المرء في مجالس الذكر والعلم، أو يصلي، يزداد إيمانه، ويصفو قلبه، وحين يستغرق في الغفلات والشهوات يقسو قلبه، وكأن على عينيه غشاوة، وفي أذنيه وقر، وعلى قلبه أكنة، حتى يذكر الله فينجلي.

وقد دل على زيادة الإيمان ونقصانه ست آيات في كتاب الله، وهي:

- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [آل عمران: ١٧٣].

- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ

إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: ١٢٤].

- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

- قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ [الفتح: ٤].

- قوله تعالى: ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗاۙ﴾ [المدثر: ٣١].

والزيادة والنقصان أمران متلازمان؛ فما زاد كان أنقص منه قبل أن يزيد.

وأما من حيث المعنى؛ فإن أهل السنة يرون أن الإيمان له خصال عديدة؛ كما تقدم من قوله ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ ـ أَوْ: بِضْعٌ وَسِتُّونَ ـ شُعْبَةً**». فالإيمان يتفاضل بتفاضل خصاله؛ فمن استكمل خصال الإيمان فهو كامل الإيمان، ومن نقص منها نقص من إيمانه الكامل أو الواجب بقدر ما نقص. ولهذا، فاضل الله بين أطباق المؤمنين، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [فاطر: ٣٢]. فكل هؤلاء «مصطفون» لكن ليسوا سواءً؛ فأما الظالم لنفسه: فهو الذي ترك بعض الواجبات، أو فعل بعض المحرمات، والمقتصد: هو الذي فعل الواجبات وترك المحرمات، فقط، فقد (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرَ الرَّأْسِ، نَسْمَعُ دَوِيَّ صَوْتِهِ، وَلَا نَفْقَهُ مَا يَقُولُ، حَتَّى دَنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ، وَاللَّيْلَةِ**» فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُنَّ؟ قَالَ: «**لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ، وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ**»، فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ فَقَالَ: «**لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ**»، وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الزَّكَاةَ، فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «**لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ**»، قَالَ: فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ، وَهُوَ يَقُولُ: وَاللهِ، لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا، وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ**»)[١]. والسابق

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٦)، ومسلم رقم (١١).

بالخيرات: الذي فعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات. فهذا دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، وأن أهل الإيمان يتفاضلون في إيمانهم.

وقد أنكر طرفا الضلالة في باب الإيمان، زيادة الإيمان ونقصانه، وزعموا أن الإيمان شيء واحد؛ إما أن يوجد كله، أو يذهب كله! لكنهم اختلفوا في المأخذ:

ـ **فالمرجئة**: أنكرت الزيادة والنقصان، بناءً على أن الإيمان هو التصديق، والكفر هو الجحود، فلا يحتمل الأمر بزعمهم تفاضلًا، ولا زيادةً ولا نقصانًا. والرد عليهم:

ـ أن الإيمان ليس هو التصديق فقط؛ بل يدخل فيه قول اللسان، وعمل الجوارح.

ـ أن التصديق نفسه يتفاوت؛ فخبر الواحد ليس كخبر الاثنين والثلاثة فما فوق. وليس الخبر كالعيان.

ـ **والوعيدية**: أنكرت الزيادة والنقصان، بناءً على أن ارتكاب الكبيرة يزيل وصف الإيمان، ولا ينقصه. واستدلوا بقول النبي ﷺ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً، يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»(١). والجواب عنه: أن الإيمان الذي نفاه النبي ﷺ عن الزاني والسارق والشارب ونحوهم، هو الإيمان الواجب، لا أصل الإيمان. ولو كان المنفي أصل الإيمان لما اكتفي بجلد شارب الخمر، ولا بقطع يد السارق، ولا برجم الزاني غير المحصن، ولكان حقهم القتل ردة. لكن لما كان أصل الإيمان باقيًا، صارت هذه الحدود عقوبةً لهم وكفارات.

٢ ـ الآثار عن الفقهاء العشرة: قد ذكر الراوي، يحيى بن سليم، أنه

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٤٧٥)، ومسلم رقم (٥٧).

سأل عشرة، ثم ساق الجواب عن تسعة فقط! فلعله سقط سهوًا، أو قصد جبر العدد. وأجوبتهم متطابقة أن الإيمان قول وعمل.

٣ ـ أثر الوليد بن مسلم: تضمن إنكار ثلاثة من أئمة أتباع التابعين، وهم: الأوزاعي، ومالك، وسعيد بن عبد العزيز، على من أخرج العمل عن مسمى الإيمان.

٤ ـ أثر عبد الله بن طاهر: وقد أفصح أنه يبغض المرجئة عن دراية؛ لسببين:

- أنهم لا يرون للسلطان طاعة.
- اعتقادهم استواء الناس في الإيمان، باعتباره شيئًا واحدًا لا يزيد ولا ينقص.

٥ ـ قصة ابن المبارك: لما شغب عليه خارجي، يرى كفر مرتكب الكبيرة، واتهمه بالإرجاء، فدفع ذلك بمخالفتهم في دعواهم أن حسناتهم مقبولة، وسيئاتهم مغفورة، بناءً على أصلهم الفاسد: لا يضر مع الإيمان شيء، وأن لازم ذلك القطع بالجنة.

٦ ـ أثر عمر رضي الله عنه: المتضمن رجحان إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض، مما يدل على اعتقاد الصحابة بتفاضل الإيمان، وتفاضل أهله فيه.

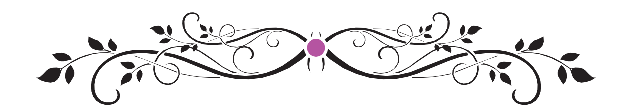
٧ ـ أثر أحمد بن حرب: ويتضمن أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص.

ونختم هذا المبحث بهذا التقرير الجلي لابن القيم رحمه الله: (وهاهنا أصل آخر: وهو أن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل. والقول قسمان: قول القلب: وهو الاعتقاد، وقول اللسان: وهو التكلم بكلمة الإسلام. والعمل قسمان: عمل القلب: وهو نيته وإخلاصه، وعمل الجوارح. فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله. وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء؛ فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة. وإذا زال عمل القلب، مع

اعتقاد الصدق، فهذا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السنة. فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب، وهو محبته وانقياده؛ كما لم ينفع إبليس، وفرعون وقومه، واليهود، والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول؛ بل ويقرون به سرًّا وجهرًا، ويقولون: ليس بكاذب، ولكن لا نتبعه، ولا نؤمن به)[١].



(١) الصلاة وحكم تاركها، ت: تيسير زعيتر (ص٥٤).



حكم مرتكب الكبيرة في الدنيا والآخرة

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

۞ (ويعتقد أهل السنة: أن المؤمن، وإن أذنب ذنوبًا كثيرة؛ صغائر وكبائر، فإنه لا يكفر بها. وإن خرج عن الدنيا غير تائب منها، ومات على التوحيد والإخلاص، فإن أمره إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ إن شاء عفا عنه، وأدخله الجنة يوم القيامة، سالمًا غانمًا، غير مبتلى بالنار، ولا معاقب على ما ارتكبه واكتسبه، ثم استصحبه إلى يوم القيامة من الآثام والأوزار، وإن شاء عاقبه وعذبه مدة بعذاب النار. وإذا عذبه لم يخلده فيها؛ بل أعتقه وأخرجه منها إلى نعيم دار القرار).

۞ (وكان شيخنا سهل بن محمد رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: المؤمن المذنب وإن عذب بالنار، فإنه لا يلقى فيها إلقاء الكفار، ولا يبقى فيها بقاء الكفار، ولا يشقى فيها شقاء الكفار).

۞ (ومعنى ذلك: أن الكافر يسحب على وجهه إلى النار، ويلقى فيها منكوسًا في السلاسل والأغلال والأنكال الثقال. والمؤمن المذنب إذا ابتلي بالنار، فإنه يدخل النار كما يدخل المجرم في الدنيا السجنَ على الرِّجل؛ من غير إلقاء وتنكيس).

۞ (ومعنى قوله: «لا يلقى في النار إلقاء الكفار»: أن الكافر يحرق بدنه كله؛ كلما نضج جلده بدل جلدًا غيره؛ ليذوق العذاب؛ كما بينه الله في كتابه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ

نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، وأما المؤمنون فلا تلفح وجوههم النار، ولا تحرق أعضاء السجود منهم؛ إذ حرم الله على النار أعضاء سجوده).

(ومعنى قوله: «لا يبقى في النار بقاء الكفار»: أن الكافر يخلد فيها، ولا يخرج منها أبدًا، ولا يخلد الله من مذنبي المؤمنين في النار أحدًا).

(ومعنى قوله: «ولا يشقى في النار شقاء الكفار»: أن الكفار يؤيسون فيها من رحمة الله، ولا يرجون راحة بحال. وأما المؤمنون فلا ينقطع طمعهم من رحمة الله في كل حال. وعاقبة المؤمنين كلهم الجنة؛ لأنهم خلقوا لها، وخلقت لهم، فضلًا من الله ومنة).

الشَّرْح

تضمن هذا التقرير بيان عقيدة أهل السنة والجماعة في مرتكب الكبيرة، في الدنيا والآخرة؛ فلا يكفرونه في الدنيا بمطلق الكبائر، ولا يخلدونه في الآخرة في النار. ويرون أن مرتكب الكبيرة، الذي مات مصرًّا عليها، غير تائب منها، تحت المشيئة والإرادة يوم القيامة؛ فإن شاء الله تعالى عفا عنه، وغفر له، وأدخله الجنة دون سابق عذاب، بفضله ورحمته ومنه وكرمه، وإن شاء عذبه بقدر ذنبه، عذابًا يتفاوت طوله وقصره، ثم بعد ذلك يخرجه من النار؛ إما بشفاعة الشافعين أو برحمة أرحم الراحمين، إلى الجنة.

ولا ريب أن الذنوب تنقسم إلى كبائر، وصغائر؛ وهي اللمم؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]. وقد تنوعت عبارات العلماء في تعريف الكبيرة، وأحسن وأجمع ما قيل فيها، ما رجحه شارح الطحاوية: (إِنَّهَا مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا حَدٌّ أَوْ تُوُعِّدَ عَلَيْهَا بِالنَّارِ، أَوِ اللَّعْنَةِ، أَوِ الْغَضَبِ، وَهَذَا أَمْثَلُ

الْأَقْوَالِ»[(١)]. والصغيرة ما دون ذلك.

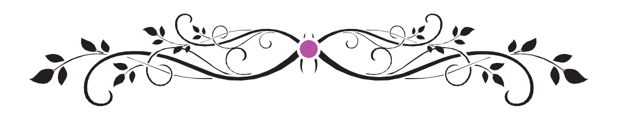
ثم ساق كلامًا لشيخه أبي سهل بن محمد الصعلوكي رَحِمَهُ اللَّهُ، تضمن الفرق بين عذاب عصاة الموحدين، وعذاب الكافرين، وشرحه شرحًا بيِّنًا، لا مزيد عليه. وقد دل عليه قوله ﷺ: «**أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ** ـ أَوْ قَالَ: **بِخَطَايَاهُمْ ـ فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ**»[(٢)].

أما من تداركه الله برحمته، ووفقه للتوبة النصوح في الدنيا، فإن الله يتوب عليه؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧١]. فما أعظم التوبة، وأحسن أثرها! وهي «التوبة النصوح» التي يقترن بها الإيمان والعمل الصالح. وهذا التلازم الثلاثي تكرر في القرآن العظيم في أربعة مواضع، هذا أحدها، وبقيتها:

- قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ [مريم: ٦٠].
- وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢].
- وقوله: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [القصص: ٦٧]. فينبغي للموفق اللبيب أن يتحقق من توافر هذه الأوصاف في توبته.

---

(١) شرح الطحاوية، ت: الأرناؤوط (٢/ ٥٢٥).
(٢) أخرجه مسلم رقم (١٨٥).



حكم تارك الصلاة

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(واختلف أهل الحديث في ترك المسلم صلاة الفرض متعمدًا، فكفَّره بذلك أحمد بن حنبل وجماعة من علماء السلف رحمهم الله، وأخرجوه به من الإسلام؛ للخبر الصحيح: «**بين العبد والشرك ترك الصلاة، فمن ترك الصلاة فقد كفر**»[(١)]).

(وذهب الشافعي وأصحابه، وجماعة من علماء السلف ـ رحمة الله عليهم أجمعين ـ إلى أنه لا يكفر ما دام معتقدًا لوجوبها، وإنما يستوجب القتل كما يستوجبه المرتد عن الإسلام. وتأولوا الخبر: من ترك الصلاة جاحدًا لها؛ كما أخبر سبحانه عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يوسف: ٣٧]، ولم يك تلبَّس بكفر ففارقه، ولكن تركه جاحدًا له).

الشَّرْح

هذه المسألة من المسائل القلال التي اختلف فيها السلف، مما له صلة بأمر الاعتقاد، وهي مسألة كفر تارك الصلاة تهاونًا وتكاسلًا، مع إجماعهم على كفر من جحد وجوبها، وتخليده في النار. فإن الصلاة عمود الدين، وأعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وفرضيتها من المعلوم من الدين

(١) أخرجه مسلم رقم (٨٢).

بالضرورة، فمن جحد وجوبها فهو كافر قطعًا لا يختلف في هذا أهل الإسلام، وإنما وقع الخلاف فيمن ترك الصلاة تهاونًا وكسلًا، معتقدًا وجوبها.

وقد أشبع ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ هذه المسألة بحثًا، فقال: (لا يختلف المسلمون أن ترك الصلاة المفروضة عمدًا من أعظم الذنوب، وأكبر الكبائر، وأن إثمه عند الله أعظم من إثم قتل النفس، وأخذ الأموال، ومن إثم الزنا والسرقة وشرب الخمر، وأنه متعرض لعقوبة الله وسخطه وخزيه في الدنيا والآخرة)، إلى أن قال:

(وأما المسألة الثالثة: وهو أنه هل يقتل حدًّا كما يقتل المحارب والزاني، أم يقتل كما يقتل المرتد والزنديق؟ هذا فيه قولان للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد.

إحداهما: يقتل كما يقتل المرتد. وهذا قول سعيد بن جبير، وعامر الشعبي، وإبراهيم النخعي، وأبي عمر، الأوزاعي، وأيوب السختياني، وعبد الله بن المبارك، وإسحاق بن راهويه، وعبد الملك بن حبيب من المالكية، وأحد الوجهين في مذهب الشافعي، وحكاه الطحاوي عن الشافعي نفسه، وحكاه أبو محمد بن حزم عن عمر بن الخطاب، ومعاذ بن جبل، وعبد الرحمن بن عوف، وأبي هريرة، وغيرهم من الصحابة.

والثانية: يقتل حدًّا لا كفرًا. وهو قول مالك، والشافعي، واختار أبو عبد الله بن بطة هذه الرواية)، ثم ساق أدلة الفريقين، وأدار رحى السجال بين الفريقين، واجتهد في الاستدلال لكل فريق، وتوجيه أدلته، كعادته عند ذكر الخلاف، ثم حرر صلة الصلاة بمسألة الإيمان، وأنه قول وعمل، فقال:

(وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب، فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح، ولا سيما إذا كان ملزومًا لعدم محبة القلب وانقياده، الذي هو ملزوم لعدم التصديق الجازم، كما تقدم تقريره، فإنه يلزمه من عدم طاعة القلب، عدم طاعة الجوارح؛ إذ لو أطاع القلب وانقاد، أطاعت الجوارح وانقادت. ويلزم من عدم طاعته وانقياده، عدم التصديق المستلزم

للطاعة، وهو حقيقة الإيمان، فإن الإيمان ليس مجرد التصديق، كما تقدم بيانه، وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد). ثم خلص إلى القول:

(ومن العجب أن يقع الشك في كفر من أصر على تركها، ودعي إلى فعلها على رؤوس الملأ، وهو يرى بارقة السيف على رأسه، ويشد للقتل، وعصبت عيناه، وقيل له: تصلي وإلا قتلناك! فيقول: اقتلوني، ولا أصلي أبدًا!

ومن لا يكفر تارك الصلاة يقول: هذا مؤمن مسلم، يغسل، ويصلى عليه، ويدفن في مقابر المسلمين! وبعضهم يقول: إنه مؤمن كامل الإيمان! إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل! أفلا يستحيي مَن هذا قوله من إنكاره تكفير من شهد بكفره الكتاب والسنة، واتفاق الصحابة. والله الموفق)[(١)].

وقد اكتفى المصنف بدليل واحد للقائلين بكفر تاركها، وهو قوله ﷺ: «**بين العبد والشرك ترك الصلاة، فمن ترك الصلاة فقد كفر**»، ومثله قوله: «**العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»[(٢)]، وذكر تأويل القائلين بعدم كفره بأن الترك بمعنى الجحود.

وللقائلين بكفر تارك الصلاة أدلة أخرى، ذكر ابن القيم رحمه الله عشرة أدلة من الكتاب، واثني عشر دليلًا من السنة، ثم حكى الإجماع[(٣)]. فمنها:

- قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [التوبة: ٥]، وإنما يخلى سبيل من آمن، وأما الحربي غير المؤمن، فلا يخلى سبيله، فدل ذلك على أن من لم يقم الصلاة فليس من جملة المؤمنين.

- قول الله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى

(١) الصلاة وحكم تاركها، ت: تيسير زعيتر، في المواضع التالية تباعًا: (ص١٦، ٣٣، ٦٣).
(٢) أخرجه أحمد رقم (٢٢٩٣٧)، والترمذي رقم (٢٦٢١)، وابن ماجه رقم (١٠٧٩).
(٣) الصلاة وحكم تاركها، ت: تيسير زعيتر (٣٧ ـ ٥١).

ٱلدِّينِۗ﴾ [التوبة: ١١]، فمن لم يكن كذلك فليس أخًا لنا في الدين.

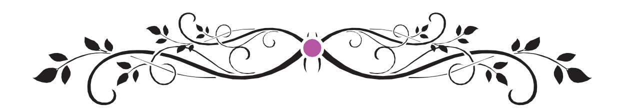
فإن قال قائل: فما بال الزكاة؟ فالجواب: أن الزكاة خصها الحديث الطويل في وعيد مانعي الزكاة، وفيه: «**ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ**»[(١)].

- أن النبي ﷺ لما ذكر أئمة الجور، قال له أصحابه: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ مرةً: «**لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ**»[(٢)]، وقال مرةً: «**لا، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ**»[(٣)]، فلما أجاب في مسألة واحدة بجوابين، فسر جوابه الأول بجوابه الثاني، ودل على أن عدم إقام الصلاة يعد كفرًا بواحًا عندنا فيه من الله برهان.

فترك الصلاة خطر عظيم، ومجازفة شديدة. ويترتب على الحكم بكفره أحكام دنيوية وأخروية: فينفسخ عقد نكاحه، وتسقط جميع ولاياته على أبنائه وبناته، ولا يرث ولا يُورث، وإذا مات لا يغسل، ولا يكفن، ولا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين. ويوم القيامة يحشر مع فرعون، وهامان، وقارون، وأبي بن خلف، ويكون في الدرك الأسفل من النار.



(١) أخرجه مسلم رقم (٩٨٧).
(٢) أخرجه مسلم رقم (١٨٥٥).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٧٠٥٥)، ومسلم رقم (١٨٤٠).



خلق أفعال العباد

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(ومن قول أهل السنة والجماعة في أكساب العباد: أنها مخلوقة لله تعالى؛ لا يمترون فيه، ولا يعدُّون من أهل الهدى ودين الحق من ينكر هذا القول وينفيه).

الشَّرْح

هذا شروع من المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في الكلام على مسألة القدر. والإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان، لا يتم الإيمان إلا به. ولا يتم الإيمان بالقدر إلا بتحقيق أربع مراتب:

المرتبة الأولى: الإيمان بعلم الله المحيط بكل شيء؛ جملة وتفصيلًا، كليًّا وجزئيًّا، ما كان من أفعاله، وما كان من أفعال عباده؛ فقد علم بعلمه القديم الذي لم يزل سبحانه متصفًا به، ولا يزال: ما كان، وما يكون، وما سوف يكون، وما لم يكن كيف لو كان يكون؛ من الآجال والأرزاق، والطاعات والمعاصي، لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض. والنصوص الدالة على علم الله، وإحاطته بكل شيء، أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر.

المرتبة الثانية: الإيمان بكتابة الله تعالى للمقادير في اللوح المحفوظ، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. فعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**»[1]. وقد جمع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين العلم والكتابة في آية

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٦٥٣).

واحدة، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ [الحج: ٧٠].

المرتبة الثالثة: الإيمان بمشيئة الله التامة، وقدرته النافذة؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يكون في ملكه ما لا يريد، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا راد لما قضى. قال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وأمثال هذا كثير.

المرتبة الرابعة: الإيمان بخلق الله تعالى لجميع الأشياء؛ ذواتها، وصفاتها، وحركاتها، فالله الخالق وما سواه مخلوق. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، [الزمر: ٦٢]، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ٢].

فلا يتم إيمان امرئ بالقدر حتى يؤمن بهذه الأربع: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق؛ فمن أخل بواحدة منها فليس بمؤمن بالقدر. وقد كان سبب رواية ابن عمر لحديث جبريل المشهور مسألة القدر؛ فعَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ، قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ ـ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ ـ فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي؛ أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَؤونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ، قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ، لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، فَأَنْفَقَهُ، مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ. ثُمَّ ذكر الحديث، وفيه: (قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ،**

وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[(١)]). وهذا موضع الشاهد. فلما ظهرت هذه البدعة الصلعاء أنكرها من أدركها من صغار الصحابة الكرام؛ كابن عمر، وابن عباس، وجابر بن عبد الله، وواثلة بن الأسقع رضي الله عنهم.

وما ذكره المصنف رحمه الله يتعلق بالمرتبة الرابعة؛ وهي مرتبة الخلق، فقد كانت القدرية الأوائل، ثم من بعدهم المعتزلة، ينكرون خلق أفعال العباد، ويزعمون أن العبد يخلق فعل نفسه. فبَيَّن أن من قول أهل السنة والجماعة التي لا يختلفون فيها، أن أكساب العباد مخلوقة لله. وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال ابن القيم رحمه الله: (أما الكسب، فأصله في اللغة: الجمع، قاله الجوهري. قال: وهو طلب الرزق؛ يقال: كسبت شيئًا واكتسبته بمعنى، وكسبت أهلي خيرًا، وكسبت الرجل مالًا فكسبه. وهذا مما جاء على فعلته ففعل. والكواسب: الجوارح. وتكسَّب: تكلف الكسب. انتهى[(٢)]. والكسب قد وقع في القرآن على ثلاثة أوجه: أحدها: عقد القلب وعزمه؛ كقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾؛ أي: بما عزمتم عليه وقصدتموه...

الوجه الثاني من الكسب: كسب المال من التجارة؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ فالأول للتجارة، والثاني للزرع.

والوجه الثالث من الكسب: السعي والعمل؛ كقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾، وقوله: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾، وقوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، فهذا كله للعمل. واختلف الناس في

---

(١) أخرجه مسلم: رقم (٨).

(٢) انظر: مختار الصحاح (١/ ٢١٢، ٢١٣).

الكسب والاكتساب، هل هما بمعنى واحد أم بينهما فرق؟ فقالت طائفة: معناهما واحد. قال أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، وهو صحيح عند أهل اللغة، ولا فرق بينهما. قال ذو الرمة: ألفى أباه بذاك الكسب يكتسب.

وقال آخرون: الاكتساب أخص من الكسب؛ لأن الكسب ينقسم إلى كسبه لنفسه ولغيره، ولا يقال: يكتسب لأهله[(١)]. قال الحطيئة:

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر هداك مليك الناس يا عمر

قلت: والاكتساب افتعال، وهو يستدعي اهتمامًا وتعمُّلًا واجتهادًا. وأما الكسب فيصح نسبته بأدنى شيء؛ ففي جانب الفضل جعل لها ما لها فيه أدنى سعي، وفي جانب العدل لم يجعل عليها إلا ما لها فيه اجتهاد واهتمام)[(٢)].

فأكساب العباد: هو المعنى الثالث؛ أي: ما يقع من الإنسان من أعمال صالحات، أو ما يبدر منه من معاصٍ ومنكرات. فكل ذلك مخلوق، قد سبق به علمه، وكتابته، وجرى بمشيئته وخلقه، وليس مستأنفًا على الله تعالى؛ بل قضاه الله وقدره منذ الأزل، لكنه أخفاه عن عباده. ولا يجوز أن يقال: أن العبد يخلق فعل نفسه! فإن ذلك شرك في الربوبية؛ لأن الله خالق كل شيء. ولم يُثبت أحدٌ من بني آدم خالقًا مع الله، إلا الثنوية من المجوس، الذين زعموا أن للكون خالقين؛ إله النور يخلق الخير، وإله الظلمة يخلق الشر. وعامة بني آدم مفطورون على أن الله تعالى هو الخالق، المالك، المدبر، وأنه ﷻ رب العالمين.

والناس في باب أفعال العباد طرفان ووسط:

الطرف الأول: القدرية النفاة: الذين غلوا في إثبات فعل العبد، حتى قالوا: العبد يخلق فعل نفسه. وهم طبقتان:

- **القدرية الغلاة**: أصحاب معبد الجهني، ثم غيلان الدمشقي: وقد

---

(١) في بعض النسخ: ولا يقال: أهله!، وفي أخرى: ولا يقال: يكتسب، ولعل الصواب مجموعهما كما أثبتنا، وكما دل عليه كلام الجوهري: كسبت أهلي خيرًا.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (٢/ ٧٤٩ ـ ٧٥٢).

أنكروا مراتب القدر الأربعة، وقالوا: «الأمر أنف». وقد أجمع السلف على تكفيرهم. وربما انقرضت مقالتهم لشناعتها، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الواسطية»: (فَهَذَا الْقَدَرُ قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غُلَاةُ الْقَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَمُنْكِرُهُ الْيَوْمَ قَلِيلٌ)(١).

ـ **المعتزلة**: فقد أثبتوا العلم والكتابة، وأنكروا المشيئة والخلق، وسموا عقيدتهم هذه «عدلًا»! قال شيخ الإسلام في «الواسطية»: (وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنْ الْقَدَرِ: يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ)(٢).

الطرف الثاني: الجبرية: الذين غلوا في إثبات فعل الرب، حتى سلبوا العبد فعله ومشيئته، وأنكروا الحكمة والتعليل في أفعال الرب، وجعلوها لمحض المشيئة.

وهم طبقتان:

ـ **الجبرية الغلاة**: القائلون: «العبد مجبور على فعله»؛ كالريشة في مهب الريح، والقشة فوق ظهر الماء! وحركاته كحفيف الأشجار، وجريان الماء في الأنهار! ويستغرقون في الشهود الكوني، ولو على حساب الأمر الشرعي؛ كما قال قائلهم:

أصبحت منفعلًا لما تختاره ... مني ففعلي كله طاعات

ولهم في ذلك طوام، ودواهٍ عظام. ويمثلهم غلاة الصوفية.

ـ **الأشاعرة**: القائلون بنظرية «الكسب». وهو معنى لا يمت للمعاني القرآنية الثلاثة السابقة بصلة؛ بل هي نظرية كلامية اضطربت أقوال أصحابها في تعريفها وتقريبها للأفهام، على نحو عشرة أقوال، لعل من أمثلها قول الصاوي في شرح «جوهرة التوحيد»: (هو تعلق قدرة العبد وإرادته بالفعل. فإذا تعلقت قدرة العبد وإرادته بالفعل، فمن عظيم قدرة الله تعالى: إيجاد الفعل عند قدرة العبد، لا بقدرته وإرادته! وذلك كقطع السكين مثلًا؛ فإن القطع عند مرور السكين، لا بالسكين! فإنه يمكن تخلفه. فمقارنة قدرة العبد

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٠).

وإرادته لإيجاد الله هو المسمى بالكسب)[(١)]. ولا يدري المرء أيعجب من التعريف أم من المثال! فإن ذلك يعني سلب جميع الذوات خصائصها، وتأثيراتها، وألوانها، وطعومها التي أودعها الله فيها. وقد قيل:

مما يقال ولا حقيقة عنده معقولة تدنو إلى الأفهام
الكسب عند الأشعري والحال عند البهشمي وطفرة النظَّام

الوسط: وهم أهل السنة والجماعة، فقد أثبتوا القدر السابق بمراتبه الأربعة، وأثبتوا للعبد مشيئة وفعلًا حقيقيين مؤثرين، بهما يأتي، وبهما يذر، ويترتب عليهما الثواب والعقاب؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠]. ولا تعارض عندهم بين فعل العبد، وقدر الرب، فهي فعل العبد، ومفعول الرب. فإن أفعال العباد واقعة بقدره، مع مشيئتهم وكسبهم لها حقيقة. وإذا لم يشأ الرب الفعل لم تنفذ مشيئة العبد؛ كما قال: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، فقد تضمنت هاتان الآيتان ثلاث حقائق:

أحدها: إثبات مشيئةٍ للعباد: لقوله: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ﴾.

الثانية: إثبات أفعال للعباد: لقوله: ﴿أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾.

الثالثة: أن مشيئة العباد داخلة تحت مشيئة الرب: لقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٩﴾.

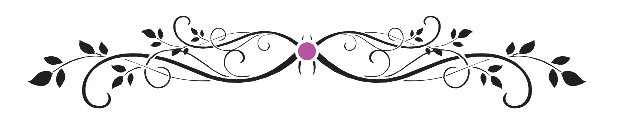
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللهُ خَالِقُ أَفْعَالِهِمْ؛ وَالْعَبْدُ هُوَ الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ وَالْمُصَلِّي وَالصَّائِمُ؛ وَلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَلَهُمْ إِرَادَةٌ؛ وَاللهُ خَالِقُهُمْ وَخَالِقُ قُدْرَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ)[(٢)].

وإذا قيل: هل العبد مسير أم مخير؟ فالجواب: العبد ميسر، وهي كلمة لا يقوم غيرها مقامها؛ قال تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾، وقال: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾، وقال نبيه ﷺ: «**اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**».

---

(١) شرح الصاوي على جوهرة التوحيد (ص١٤٩، ١٥٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٠).



مسألة الهدى والضلال

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(ويشهدون أن الله تعالى يهدي من يشاء لدينه، ويضل من يشاء عنه، لا حجة لمن أضله الله عليه، ولا عذر له لديه، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣] الآية، وقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾ [الأعراف: ١٧٩] الآية).

الشَّرح

مسألة الهدى والضلال من المسائل الكبار التي يتكرر ذكرها في القرآن. وهي أصل في باب القدر. فيعتقد أهل السنة والجماعة أن الله يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، وأن الله تعالى قسم العباد؛ كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾ [التغابن: ٢]، وأنه سبق في علم الله من هم أهل الجنة، ومن هم أهل النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١].

عَنْ أَبِي نَضْرَةَ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يُقَالُ لَهُ: أَبُو عَبْدِ اللهِ، دَخَلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ يَعُودُونَهُ وَهُوَ يَبْكِي، فَقَالُوا لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ أَلَمْ يَقُلْ لَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خُذْ مِنْ شَارِبِكَ، ثُمَّ أَقِرَّهُ حَتَّى تَلْقَانِي؟**»، قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ قَبَضَ بِيَمِينِهِ قَبْضَةً، وَأُخْرَى بِالْيَدِ**

الْأُخْرَى، وَقَالَ: هَذِهِ لِهَذِهِ، وَهَذِهِ لِهَذِهِ، وَلَا أُبَالِي»، فَلَا أَدْرِي فِي أَيِّ الْقَبْضَتَيْنِ أَنَا(١).

وليس في هذا التقدير السابق حجة لأحد على معصية الله، فقد يتعلل بعض الناس ويقول: ما دام الله قد قدر وقضى منذ الأزل أهل الجنة وأهل النار، فكيف يعذب بأمر قد قضاه؟ ولعمر الله، إنها لمحنة القدرية والجبرية على حدٍّ سواء؛ فقد حملت القدرية على إنكار القدر، تنزيهًا لله عن الظلم، وحملت الجبرية على الغلو في القدر، تنزيهًا لله عن الجهل والعجز، زعموا! والواقع أن كل فريق وقع فيما فرَّ منه الآخر، ولم يهتدِ إلى الجمع بين القضيتين.

وسر المسألة أن الله تعالى قدر المقادير كما تقتضيه ربوبيته، وعلمه، ومشيئته، وخلقه، وأخفى عن خلقه القدر، وأظهر لهم الشرع، وقال: اعملوا! فمن أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني دخل النار. وأعطاهم من الأدوات، والقدرات، والآلات ما يتمكنون به من الفعل أو الترك. ولو عرض لأحدهم عارض من جهل أو مرض أو نسيان أو عجز أو خطأ لعذرهم ولم يؤاخذهم. ولو فعلوه بمحض إرادتهم، وسبق إصرارهم وعمدهم، ثم تابوا قبل توبتهم. فلم تبق حجة للخلق على الله ﷻ.

وقد شبه المشركون الأوائل بهذه الشبهة، واحتجوا بالقدر؛ كما حكى الله تعالى ذلك عنهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وصحيح أنه لو شاء الله ما أشركوا، ولا آباؤهم، ولا حرموا من شيء، لكن هل لهم حجة بهذا القدر السابق على ما ارتكبوه وفعلوه؟ الجواب: كلا، فقد رد الله عليهم إثرها بثلاثة ردود قاطعة:

- فقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، فسمى الله مقالتهم كذبًا، والكذب مخالفة الخبر للواقع.

- ثم قال: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾، ولو كان لهم في القدر حجة ما أذاقهم الله بأسه؛ لأن الله حكم عدل مقسط، لا يظلم مثقال ذرة.

---

(١) مسند أحمد، ط الرسالة (٢٩/ ١٣٤)، وهو حديث صحيح.

- ثم قال: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ﴾؛ أي: هل اطلعتم على كتابكم، ووجدتم في اللوح المحفوظ أنكم تشركون، وتحرمون، ففعلتم ما فعلتم بناء على علم سابق؟ فأخرجوه، وهاتوا برهانكم!

لكن حقيقة الأمر: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨﴾ [الأنعام: ١٤٨]. ولهذا، قال: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام: ١٤٩]؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٢٠﴾ [الزخرف: ٢٠]. فالله سبحانه وتعالى الملك الرب المدبر، يحكم ما يشاء، ويقضي ما يريد، ونحن عبيده يفعل بنا ما يشاء، وليس لأحد حجة عليه.

وربما عرض هذا الخاطر لصالحي المؤمنين، فلا غضاضة في السؤال، ودفع الشبهة، ورفع الإشكال. عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فِي جَنَازَةٍ، فَأَخَذَ شَيْئًا، فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الأَرْضَ، فَقَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ العَمَلَ؟ قَالَ: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ؛ أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦﴾ الآيَةَ[1].

وبهذا، يتبين أنه لا حجة لهؤلاء المغالطين، الذي إذا قيل لهم: اتقوا الله، ودعوا ما أنتم فيه من المعاصي، قالوا: هذا أمر مكتوب، كل شيء بقدر! فيحتجون بقدر الله، على فعل المحرمات وترك الواجبات. فيقال لهم: لا حجة لكم في ذلك؛ لأنكم لم تعلموا أن هذا قد كتب عليكم، وقدر لكم، إلا بعد صدور الفعل منكم. ولو كنتم تعلمون مقاديركم قبل صدورها منكم لكنتم معذورين.

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٩٤٩)، ومسلم رقم (٢٦٤٧).

ثم إنهم في أمورهم الدنيوية لا يحتجون بالقدر، فلو قيل لأحدهم: اقعد في بيتك، ولا تتعرض لطلب الرزق، فإن كان الله كتب لك رزقًا فسيأتيك ولو في قعر بيتك، لقال: إليك عني! فتجده يخرج في الصباح الباكر في شدة البرد، أو في نحر الظهيرة في شدة الحر، يطلب رزقه، ويتذرع بالأسباب ولا يتكل على القدر. فيقال: كما تفعل الأسباب في الأمور الدنيوية، فافعلها أيضًا في الأمور الدينية. فإن سلعة الله الجنة لا تنال ـ بعد رحمة الله ـ إلا بعمل؛ قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢].

فالواجب على العبد أن يعمل بطاعة الله، ويفعل ما يحبه الله ويرضاه، ويتجنب ما يسخطه ويأباه، ويحسن الظن بربه، ويعظم الطمع في فضله، ولا يقنط من رحمته بناءً على سوء ظن وتخمين، وقول «ربما» و«لعل» و«قد» إلى آخر هذه الاحتمالات التي لا تغني عنه شيئًا. فالعقل والحزم أن يقبل الإنسان على أمر دينه، ويتوسل بجميع الوسائل الموصلة إلى رضا ربه، ولا يضيع عمره بالأوهام.

۞ ۞ ۞

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(سبحانه، خلق الخلق بلا حاجة إليهم، فجعلهم فريقين: فريقًا للنعيم فضلًا، وفريقًا للجحيم عدلًا، وجعل منهم غويًّا ورشيدًا، وشقيًّا وسعيدًا، وقريبًا من رحمته وبعيدًا، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء:٢٣]، وقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ [الأعراف:٢٩، ٣٠]، وقال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الأعراف:٣٧]. قال ابن عباس: هو ما سبق لهم من السعادة والشقاوة)[(١)].

الشَّرح

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ١٥ ـ ١٧]. فالله تعالى لا يستكثر بعباده من قلة، ولا يستعز بهم من ذلة؛ بل هو الغني الحميد. وإنما خلقهم لعبادته وتوحيده. وهو الرب المالك المدبر، لا يسأل عما يفعل، ولا معقب لحكمه، يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، ولا يهلك عليه إلا هالك. لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا راد لما قضى. فمن رضي بذلك وأخبت وارعوى، كان حريًّا بأن يدخله الجنة، ومن أبى واستكبر وطغى، كان حقيقًا أن يدخله النار، وكل شيء عنده بمقدار. قد فرغ من العباد، وجرى بحكمه سابق الكتاب. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد: ٣٦].

(١) تفسير الطبري (٨/ ١٦٩).

روى عبد الله بن الإمام أحمد، قال: حَدَّثَنِي أَبِي، نا مُؤَمَّلٌ، نا حَمَّادٌ؛ يَعْنِي: ابْنَ سَلَمَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو جَعْفَرٍ الْخَطْمِيُّ، قَالَ: شَهِدْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَقَدْ دَعَا غَيْلَانَ لِشَيْءٍ بَلَغَهُ فِي الْقَدَرِ، فَقَالَ لَهُ: وَيْحكَ يَا غَيْلَانُ، مَا هَذَا الَّذِي بَلَغَنِي عَنْكَ؟ قَالَ: يُكْذَبُ عَلَيَّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُقَالُ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ؟ قَالَ: مَا تَقُولُ فِي الْعِلْمِ؟ قَالَ: قَدْ نَفِدَ الْعِلْمُ، قَالَ: فَأَنْتَ مَخْصُومٌ، اذْهَبِ الْآنَ فَقُلْ مَا شِئْتَ، وَيْحَكَ يَا غَيْلَانُ، إِنَّكَ إِنْ أَقْرَرْتَ بِالْعِلْمِ خُصِمْتَ وَإِنْ جَحدْتَهُ كَفَرْتَ، وَإِنَّكَ إِنْ تُقِرَّ بِهِ فَتُخْصَمَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجْحَدَهُ فَتُكَفَّرَ. ثُمَّ قَالَ: تَقْرَأُ يَاسِين؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: اقْرَأْ ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾، فَقَرَأَ ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧﴾، قَالَ: قِفْ، كَيْفَ تَرَى؟ قَالَ: كَأَنِّي لَمْ أَقْرَأْ هَذِهِ الْآيَةَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: زِدْ، فَقَرَأَ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝٩﴾، قَالَ: قَالَ عُمَرُ رَحِمَهُ اللهُ: قُلْ: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٠﴾، قَالَ: كَيْفَ تَرَى؟ قَالَ: كَأَنِّي لَمْ أَقْرَأْ هَذِهِ الْآيَاتِ قَطُّ، وَإِنِّي لَأُعَاهِدُ اللهَ أَنْ لَا أَتَكَلَّمَ فِي شَيْءٍ مِمَّا كُنْتُ أَتَكَلَّمُ فِيهِ أَبَدًا، قَالَ: اذْهَبْ، فَلَمَّا وَلَّى، قَالَ: اللهُمَّ إِنْ كَانَ كَاذِبًا فِيمَا قَالَ، فَأَذِقْهُ حَرَّ السِّلَاحِ، قَالَ: فَلَمْ يَتَكَلَّمْ زَمَنَ عُمَرَ رَحِمَهُ اللهُ، فَلَمَّا كَانَ زَمَنَ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، جَاءَ رَجُلٌ لَا يَهْتَمُّ لِهَذَا، وَلَا يَنْظُرُ فِيهِ، فَتَكَلَّمَ غَيْلَانُ، فَلَمَّا وُلِّيَ هِشَامٌ، أَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَلَيْسَ قَدْ عَاهَدْتَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لِعُمَرَ أَنْ لَا تَتَكَلَّمَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ أَبَدًا؟ قَالَ: أَقِلْنِي، فَوَاللهِ لَا أَعُودُ، قَالَ: لَا أَقَالَنِي اللهُ إِنْ أَقَلْتُكَ، هَلْ تَقْرَأُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَاقْرَأْ، فَقَرَأَ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾، قَالَ: قِفْ! عَلَامَ اسْتَعَنْتَهُ؟ عَلَى أَمْرٍ بِيَدِهِ لَا تَسْتَطِيعُهُ إِلَّا بِهِ، أَوْ عَلَى أَمْرٍ فِي يَدِكَ أَوْ بِيَدِكَ؟ اذْهَبُوا بِهِ، فَاقْطَعُوا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، وَاضْرِبُوا عُنُقَهُ، وَاصْلُبُوهُ[1].

۞ ۞ ۞

(١) السنة، لعبد الله بن أحمد (٢/ ٤٢٩).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(أخبرنا أبو محمد المخلدي، أخبرنا أبو العباس السراج، حدثنا يوسف بن موسى، أخبرنا جرير، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الله بن مسعود، قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: **«أن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك بأربع كلمات: رزقِه وعملِه وأجلِه وشقي أو سعيد، فوالذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، ثم يدركه ما سبق له في الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، ثم يدركه ما سبق له في الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»**[(١)]).

(وأخبرنا أبو محمد المخلدي، أنبأنا أبو العباس السراج، حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي ـ هو ابن راهويه ـ، قال: أنبأنا عبد الصمد بن عبد الوارث، قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة، وإنه لمكتوب في الكتاب أنه من أهل النار، فإذا كان عند موته تحوَّل فعمل بعمل أهل النار، فمات فدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، وإنه لمكتوب في الكتاب أنه من أهل الجنة، فإذا كان قبل موته عمل بعمل أهل الجنة، فمات فدخل الجنة»**[(٢)]).

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٢٠٨)، ومسلم رقم (٢٦٤٥)، قريبًا منه. واللفظ للبخاري.
(٢) أخرجه أحمد رقم (١٣٦٩٤).

الشَّرح

هذا حديث عظيم مشهور ثابت في الصحيحين، وهو حديث الصادق المصدوق، يخبر فيه النبي ﷺ عن مراحل تخليق الجنين، وكتابة الملك لرزقه، وعمله، وأجله، وشقاوته أو سعادته. وهذا الذي يكتبه الملك مستنسخ عما في اللوح المحفوظ؛ لأن الله تعالى قد كتب في الذكر كل شيء، ثم فصل هذا الإجمال بحسب ما تقتضيه الأحوال؛ وهي أربعة تقديرات:

١ ـ **التقدير العام:** الذي في اللوح المحفوظ؛ قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾ [يس: ١٢].

٢ ـ **التقدير الجنيني:** وهو ما يبعث به الملك إلى الجنين في بطن أمه.

٣ ـ **التقدير الحولي:** وهو ما يقع ليلة القدر؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان: ٤]، فيكتب في ليلة القدر ما يقع في ذلك العام؛ من حياة وموت، وصحة ومرض، وعز وذل، إلى آخره.

٤ ـ **التقدير اليومي:** الذي دل عليه قول الله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ۝٢٩﴾ [الرحمن: ٢٩].

فهذه التقديرات التفصيلية لا تنافي ما في اللوح المحفوظ؛ بل هي مستنزلة منه. وقد تضمن هذا الحديث أن كل أحد يدركه ما كتب عليه منذ الأزل، ويختم له بما سبق في الكتاب. ونضرب لذلك مثالين:

١ ـ كان من أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلٌ لَا يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً إِلَّا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، فَقَالُوا: مَا أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلَانٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ أَبَدًا، قَالَ: فَخَرَجَ مَعَهُ، كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ، قَالَ: فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «**وَمَا ذَاكَ؟**»، قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ،

فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ حَتَّى جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ وَذُبَابُهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: **«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»**(١).

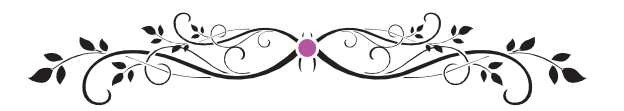
٢ ـ رجل من الأنصار يقال له: أصيرم بني عبد الأشهل، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أُحُدٍ، بَدَا لَهُ فِي الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ أَخَذَ سَيْفَهُ، فَغدَا، حَتَّى دَخَلَ فِي عُرْضِ النَّاسِ، فَقَاتَلَ حَتَّى أَثْبَتَتْهُ الْجِرَاحَةُ. قَالَ: فَبَيْنَا رِجَالٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ يَلْتَمِسُونَ قَتَلَاهُمْ فِي الْمَعْرَكَةِ، إِذَا هُمْ بِهِ، فَقَالُوا: وَاللهِ إِنَّ هَذَا لَلْأُصَيْرِمُ، مَا جَاءَ بِهِ؟ لَقَدْ تَرَكْنَاهُ وَإِنَّهُ لِمُنْكِرٍ لِهَذَا الْحَدِيثِ، فَسَأَلُوهُ مَا جَاءَ بِهِ، فَقَالُوا: مَا جَاءَ بِكَ يَا عَمْرُو؟ أَحَدَبٌ عَلَى قَوْمِكَ، أَمْ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ؟ قَالَ: بَلْ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ، آمَنْتُ بالله وَبِرَسُولِهِ وَأَسْلَمْتُ، ثُمَّ أَخَذْتُ سَيْفِي، فَغَدَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَاتَلْتُ حَتَّى أَصَابَنِي مَا أَصَابَنِي، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ فِي أَيْدِيهِمْ. فَذَكَرُوهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ: **«إِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»**(٢). حتى كان أبو هريرة يلغز: ما الرجل دخل الجنة لم يركع لله ركعة؛ يشير به إلى أصيرم بني عبد الأشهل.

وأما حديث عائشة، فإنه حديث صحيح موافق لحديث ابن مسعود رضي الله عنهما في الدلالة على القدر السابق، وأن الأعمال بالخواتيم، وأنه سبحانه أعلم بمن خلق.

ومثل هذه الأحاديث، وإن كانت تثير لدى المؤمن قلقًا، لكنه قلقٌ مبارك، يحمله على الخوف والرجاء؛ فيوجب له خوفًا من مكر الله، وطمعًا في رحمة الله. وهكذا الإيمان، فإنه يقوم على الحب والخوف والرجاء.

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٨٩٨)، ومسلم رقم (١١٢).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٩٠).



مسألة الخير والشر

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(ويشهد أهل السنة ويعتقدون: أن الخير والشر، والنفع والضر، بقضاء الله وقدره، لا مرد لهما ولا محيص ولا محيد عنهما، ولا يصيب المرء إلا ما كتبه له ربه، ولو جهد الخلق أن ينفعوا المرء بما لم يكتبه الله له لم يقدروا عليه، ولو جهدوا أن يضروه بما لم يقضه الله لم يقدروا، على ما ورد به خبر عبد الله بن عباس، عن النبي ﷺ. قال الله ﷻ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ [يونس: ١٠٧]).

الشَّرح

من أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة المتعلق بالقدر، أن الخير والشر من الله ﷻ، يبتلي بهما عباده. قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء: ٧٨]، والحسنة والسيئة هنا ليستا الطاعات والمعاصي، كما توهم القدرية والمعتزلة؛ بل النعم والمصائب، فهي من حيث خلقها وتكوينها من عند الله. وأما من حيث وجود سبب وجودها فتابعة لسنن الله الكونية؛ من كون الإيمان والعمل الصالح سببًا للحياة الطيبة الحسنة بتوفيق الله، وكون الكفر والمعاصي سببًا للضلالة والشقاء. ولهذا، أتبعها بقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: ٧٩].

وخبر ابن عباس الذي أشار إليه المصنف، قوله ﷺ: «**يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**»(١)؛ فالنفع والضر، والخير والشر من الله تعالى.

وثمرة الإيمان بذلك، ما قال سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]؛ أي: لكي لا تحزنوا على فوات حظوظ الدنيا، ولا تفرحوا فرح أشر وبطر بما قسم لكم، فالأمر في كلا الحالين من المنع والعطاء محض ابتلاء. وفي حديث صهيب الرومي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(٢). فتستحيل النقمة في حق المؤمن إلى نعمة، والمحنة إلى منحة؛ لأنه يقابل الضراء بالصبر والاستعانة؛ كحال يعقوب عليه السلام، حين فقد ابنه، فقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ [يوسف: ١٨]، ويقابل السراء بالشكر والثناء، كحال سليمان عليه السلام، حين رأى عرش ملكة سبأ مستقرًّا عنده قبل أن يرتد إليه طرفه: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠]. فيصبح ذلك في حقه كله خير، وهذا لا يتأتى إلا للمؤمن.

أما غير المؤمن؛ فإنه إن أصابته سراء فرِح فرَح أشرٍ وبطر؛ كقارون الذي قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨]، وإن أصابته ضراء

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٢٥١٦). (٢) أخرجه مسلم رقم (٢٩٩٩).

أصابه السخط والضجر، واتهم ربه في قضائه؛ كما وصف حال بعضهم بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١].

فينبغي للمؤمن أن يعلم أنه لا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يدفع السيئات إلا الله، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ﴾ [يونس: ١٠٧].



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(ومن مذهب أهل السنة وطريقتهم ـ مع قولهم بأن الخير والشر من الله وبقضائه ـ أنه لا يضاف إلى الله تعالى ما يتوهم منه نقص على الانفراد؛ فيقال: يا خالق القردة والخنازير، والخنافس والجعلان ـ وإن كان لا مخلوق إلا والرب خالقه ـ، وفي ذلك ورد قول رسول الله ﷺ في دعاء الاستفتاح: «**تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»)[1].

(ومعناه ـ والله أعلم ـ: والشر ليس مما يضاف إليك إفرادًا وقصدًا، حتى يقال لك في المناداة: يا خالق الشر! ويا مقدر الشر! ـ وإن كان هو الخالق والمقدر لهما جميعًا ـ. لذلك، أضاف الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إرادة العجز إلى نفسه، فقال فيما أخبر الله عنه في قوله: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، ولما ذكر الخير والبر والرحمة، أضاف إرادتها إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]. ولذلك، قال مخبرًا عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أنه قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٨٠]؛ فأضاف المرض إلى نفسه، والشفاء إلى ربه، وإن كان الجميع منه).

الشَّرْح

هذه المسألة تتمة أدبية للمسألة السابقة الدالة على أن الخير والشر من الله. فقد نبه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا يضاف إليه سبحانه، ما يوهم نقصًا بسبب إفراده بالإضافة؛ بخلاف ما خرج مخرج الاقتران والمقابلة، فلا يقال

(١) أخرجه مسلم رقم (٧٧١).

على سبيل المناداة والمناجاة: يا خالق الشر! يا خالق المرض! يا خالق الحروب! يا خالق الذباب والصراصر والخنافس والقردة والخنازير! ونحو ذلك مما لا يليق إفراده بالذكر، وإن كان الله خالق كل شيء؛ لما يوهمه ذلك من التهمة، والمذمة، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. فإن الله ﷻ لم يرد هذه المذكورات لذاتها، وإنما لمآلاتها، فلا يسوغ أن تضاف إليه استقلالًا. فالله تعالى ـ مثلًا ـ خلق إبليس لا لذات إبليس، ولكن لما يترتب على خلق إبليس من الحكم والمصالح الغائية؛ فلولا خلق إبليس ما تميز المؤمنون من الكفار، ولا الأبرار من الفجار، ولا قام سوق الجنة والنار، ولا عبد بالتوبة والاستغفار، ولا رفع علم الجهاد، ولا وجد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا عُرِفَ الله بمعاني أسمائه وصفاته من معاني الجلال والكمال والجمال.

فعلى الإنسان أن يحسن الظن بالله تعالى في قدره، كما يحسن الظن به في شرعه، وينفي كل شائبةِ سوءِ ظنٍّ، ووهم فاسدٍ، وأن يكون في طويته أن الله تعالى له المثل الأعلى، فلا يظن بالله إلا خيرًا، ولهذا، قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧﴾ [الصافات: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾ [فصلت: ٢٣]، وفي الحديث القدسي: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ عَبْدِي مَا شَاءَ**»[1].

وقد ضرب المصنف رحمه الله ثلاثة أمثلة لعدم إضافة الشر إلى الله تعالى:

أحدها: قول النبي ﷺ في مناجاته لربه: «**وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»؛ أي: لا ينسب ولا يضاف إليك، ولم يقل: ليس من خلقك؛ كما تعبر القدرية.

الثاني: أن الخضر، صاحب موسى عليه السلام، أضاف العيب إلى نفسه، فقال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، ولم ينسبه إلى ربه، وأضاف الخير إلى ربه، فقال: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، فهذا من كمال الأدب مع الله تعالى.

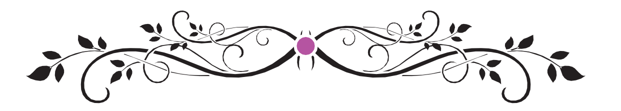
(١) أخرجه أحمد رقم (١٦٠١٦).

الثالث: ما ذكره الله من قول خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء: ٨٠]؛ فقد أضاف المرض إلى نفسه، والشفاء إلى ربه، وهذا يدلنا على وجوب التأدب مع الله تعالى في الألفاظ.

ويمكن أن نضيف مثالين آخرين:

الأول: قول فتى موسى عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣]، فنسب إنساء ما أمر به إلى الشيطان، ولم يقل: وما أنسانيه إلا الله، مع أن كل شيء بقدر.

الثاني: قول مؤمني الجن، رحمهم الله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن: ١٠]؛ فلما ذكروا الشر أتوا بالفعل الذي لم يسمَّ فاعله: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾، ولما ذكروا الرشد صرحوا بالاسم الظاهر، فقالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾.



إرادة الله

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(ومن مذهب أهل السنة والجماعة: أن الله عَزَّ وَجَلَّ مريد لجميع أعمال العباد؛ خيرها وشرها، ولم يؤمن أحد إلا بمشيئته، ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ولو شاء أن لا يعصى ما خلق إبليس، فكُفر الكافرين وإيمان المؤمنين بقضائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقدره وإرادته ومشيئته، أراد كل ذلك وشاءه وقضاه، ويرضى الإيمان والطاعة، ويسخط الكفر والمعصية؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ [الزمر: ٧]).

الشَّرح

تضمنت هذه القطعة من كلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إثبات مرتبة المشيئة، من مراتب الإيمان بالقدر؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لا يكون في ملكه ما لا يريد. فجميع أعمال العباد؛ من الطاعات والمعاصي، وسواها، واقعة بمشيئته. وذلك مقتضى الربوبية. قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ﴾ [هود: ١١٨]، وقال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ﴾ [يونس: ٩٩]. أراد بهذا أن يُبين أن ليس كل ما يخلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يكون محبوبًا له، فقد يشاء ما لا يحب؛ كخلق إبليس، والكفر والفسوق والعصيان، وقد يحب ما لا يشاء؛ كإيمان الكافر، وطاعة العاصي. فلا تلازم بين المشيئة والمحبة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: فَهُوَ مَشِيئَةُ اللهِ النَّافِذَةُ وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ حَرَكَةٍ وَلَا سُكُونٍ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ،

لَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ إِلَّا مَا يُرِيدُ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ مِنْ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ. فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ إِلَّا اللهُ خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ لَا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَمَعَ ذَلِكَ، فَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ. وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَى عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَلَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، وَلَا يَرْضَى عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، وَلَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَلَا يُحِبُّ الْفَسَادَ)(١).

وسر الأمر: الفرق بين إرادة الله الكونية، وإرادة الله الشرعية، وذلك من وجوه:

١ ـ الكونية: بمعنى «المشيئة»، والشرعية: بمعنى «المحبة».

٢ ـ الكونية: لا بد من وقوعها. والشرعية: قد تقع وقد لا تقع.

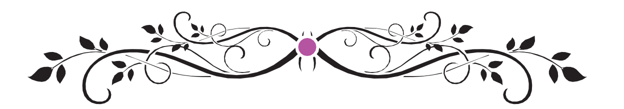
٣ ـ الكونية: قد يحبها الله ويرضاها، وقد لا يحبها ولا يرضاها. والشرعية: يحبها دومًا ويرضاها.

٤ ـ الكونية: قد تكون مقصودة لذاتها، وقد تكون مقصودة لمآلاتها. والشرعية: مقصودة دومًا لذاتها.

ومن لم يفرق بين الإرادتين وقع في أمر مريج، وصار إلى أحد طرفي الضلالة؛ من القدرية أو الجبرية. ولا يتم الجمع بينهما إلا للمؤمن التقي.



(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٩).



عواقب العباد

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

❁ (ويعتقد ويشهد أصحاب الحديث: أن عواقب العباد مبهمة؛ لا يدري أحد بم يُختم له، ولا يحكمون لواحد بعينه أنه من أهل الجنة، ولا يحكمون على أحد بعينه أنه من أهل النار؛ لأن ذلك مغيب عنهم، لا يعرفون على ما يموت عليه الإنسان، ولذا يقولون: إنا مؤمنون إن شاء الله؛ أي: من المؤمنين الذين يختم لهم بخير إن شاء الله).

❁ (ويشهدون لمن مات على الإسلام أن عاقبته الجنة؛ فإن الذين سبق القضاء عليهم من الله أنهم يعذبون بالنار مدة بذنوبهم التي اكتسبوها، ولم يتوبوا منها؛ فإنهم يردون أخيرًا إلى الجنة، ولا يبقى أحد في النار من المسلمين؛ فضلًا من الله ومنة، ومن مات ـ والعياذ بالله ـ على الكفر، فمرده إلى النار لا ينجو منها، ولا يكون لمقامه فيها منتهى).

الشَّرْح

العواقب المبهمة هي المجهولة، فلا يحكم أهل السنة والجماعة وأصحاب الحديث لمعين بجنة ولا نار؛ لأن ذلك غيب علمه عند الله عَزَّ وَجَلَّ. فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو العليم وحده بما يختم للإنسان، إلا من شهد له النبي ﷺ أو عليه؛ لكن نقول من حيث الجملة: المسلمون في الجنة، والكافرون في النار. أما المعين، فلا نقطع له بجنة ولا نار إلا بدليل؛ فنقول: أبو لهب وامرأته في

النار؛ لأن الله تعالى قال: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد: ٣ ـ ٥]، كما نقول: العشرة المبشرون في الجنة؛ لورود الخبر بذلك، كما سيأتي. وأما ما سوى ذلك فلا؛ لكننا نرجو للمحسنين، ونخاف على المسيئين.

وقال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: (وَلِلسَّلَفِ فِي الشَّهَادَةِ بِالْجَنَّةِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ لَا يُشْهَدَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْأَنْبِيَاءِ، وَهَذَا يُنْقَلُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ، وَالْأَوْزَاعِيِّ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ يُشْهَدُ بِالْجَنَّةِ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ جَاءَ فِيهِ النَّصُّ، وَهَذَا قَوْلُ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ.

وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ يُشْهَدُ بِالْجَنَّةِ لِهَؤُلَاءِ وَلِمَنْ شَهِدَ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ؛ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّهُ مُرَّ بِجِنَازَةٍ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا بِخَيْرٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَجَبَتْ**»، وَمُرَّ بِأُخْرَى، فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا بِشَرٍّ، فَقَالَ: «**وَجَبَتْ**». وَفِي رِوَايَةٍ كَرَّرَ: «**وَجَبَتْ**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا وَجَبَتْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ**». وَقَالَ ﷺ: «**تُوشِكُونَ أَنْ تَعْلَمُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»، قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**بِالثَّنَاءِ الْحَسَنِ وَالثَّنَاءِ السَّيِّئِ**». فَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُعْلَمُ بِهِ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ)[١].

أما الشهادة بالوصف، لا بالعين، فلا خلاف فيها. فيشهد أهل السنة لمن مات على الإسلام والتوحيد بالجنة؛ إما مباشرة دون عذاب، وإما بعد عذاب مؤقت، كما تقدم، ومآلهم إلى الجنة. ومن مات على الكفر، فيشهد عليهم بالنار، ويعامل آحادهم معاملة الكفار، ويقال: كل كافر في النار.

ومما يتصل بهذه المسألة، مسألة «الاستثناء في الإيمان»، وقول المرء: «أنا مؤمن إن شاء الله». فقد اختلف الناس فيها، واختلفت مآخذهم:

---

(١) شرح الطحاوية، ت: الأرناؤوط (٢/٥٣٨).

ـ **فمذهب السلف**: وجوب الاستثناء في الإيمان، ومآخذهم في ذلك متعددة:

ـ خوف تزكية النفس بادعاء الإيمان والتقوى، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٣٢].

ـ عدم استكمال خصال الإيمان المطلق الكامل؛ من فعل الواجبات والمستحبات والمروءات، وترك المحرمات والمكروهات وخوارم المروءات.

ـ عدم العلم بالعاقبة، وخواتيم الأعمال. وهذا المأخذ ليس كمأخذ الكلابية والأشاعرة بالتعليل بالموافاة، كما سيأتي.

ـ **ومذهب المرجئة**: تحريم الاستثناء في الإيمان، وذلك بناءً على أصلهم في حقيقة الإيمان، وأنه التصديق. والتصديق إما أن يوجد أو يعدم. فالاستثناء فيه نوع من الشك، والإيمان يشترط فيه الجزم.

ـ **مذهب الكلابية والأشاعرة**: وجوب الاستثناء، لكن باعتبار «الموافاة». قال ابن أبي العز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أَمَّا مَنْ يُوجِبُهُ فَلَهُمْ مَأْخَذَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ مَا مَاتَ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ، وَالْإِنْسَانُ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ اللهِ مُؤْمِنًا أَوْ كَافِرًا بِاعْتِبَارِ الْمُوَافَاةِ وَمَا سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ أَنَّهُ يَكُونُ عَلَيْهِ، وَمَا قَبْلَ ذَلِكَ لَا عِبْرَةَ بِهِ، قَالُوا: وَالْإِيمَانُ الَّذِي يَتَعَقَّبُهُ الْكُفْرُ فَيَمُوتُ صَاحِبُهُ كَافِرًا: لَيْسَ بِإِيمَانٍ؛ كَالصَّلَاةِ الَّتِي أَفْسَدَهَا صَاحِبُهَا قَبْلَ الْكَمَالِ، وَالصِّيَامِ الَّذِي يُفْطِرُ صَاحِبُهُ قَبْلَ الْغُرُوبِ، وَهَذَا مَأْخَذُ كَثِيرٍ مِنَ الْكُلَّابِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، وَعِنْدَ هَؤُلَاءِ أَنَّ اللهَ يُحِبُّ فِي الْأَزَلِ مَنْ كَانَ كَافِرًا إِذَا عَلِمَ مِنْهُ أَنَّهُ يَمُوتُ مُؤْمِنًا، فَالصَّحَابَةُ مَا زَالُوا مَحْبُوبِينَ قَبْلَ إِسْلَامِهِمْ، وَإِبْلِيسُ وَمَنِ ارْتَدَّ عَنْ دِينِهِ مَا زَالَ اللهُ يُبْغِضُهُ وَإِنْ كَانَ لَمْ يَكْفُرْ بَعْدُ! وَلَيْسَ هَذَا قَوْلَ السَّلَفِ، وَلَا كَانَ يُعَلِّلُ بِهَذَا مَنْ يَسْتَثْنِي مِنَ السَّلَفِ فِي إِيمَانِهِ، وَهُوَ فَاسِدٌ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٣١]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ يُحِبُّهُمْ إِنِ اتَّبَعُوا الرَّسُولَ، فَاتِّبَاعُ الرَّسُولِ شَرْطُ الْمَحَبَّةِ، وَالْمَشْرُوطُ يَتَأَخَّرُ عَنِ الشَّرْطِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَدِلَّةِ...

الْمَأْخَذُ الثَّانِي: أَنَّ الْإِيمَانَ الْمُطْلَقَ يَتَضَمَّنُ فِعْلَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ عَبَدَهُ كُلِّهِ وَتَرْكَ مَا نَهَاهُ عَنْهُ كُلِّهِ، فَإِذَا قَالَ الرَّجُلُ: أَنَا مُؤْمِنٌ، بِهَذَا الِاعْتِبَارِ، فَقَدْ شَهِدَ لِنَفْسِهِ أَنَّهُ مِنَ الْأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ، الْقَائِمِينَ بِجَمِيعِ مَا أُمِرُوا بِهِ، وَتَرْكِ كُلِّ مَا نُهُوا عَنْهُ، فَيَكُونُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُقَرَّبِينَ! وَهَذَا مَعَ تَزْكِيَةِ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ، وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ الشَّهَادَةُ صَحِيحَةً، لَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَشْهَدَ لِنَفْسِهِ بِالْجَنَّةِ إِنْ مَاتَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ. وَهَذَا مَأْخَذُ عَامَّةِ السَّلَفِ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَثْنُونَ، وَإِنْ جَوَّزُوا تَرْكَ الِاسْتِثْنَاءِ، بِمَعْنًى آخَرَ، كَمَا سَنَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. وَيَحْتَجُّونَ أَيْضًا بِجَوَازِ الِاسْتِثْنَاءِ فِيمَا لَا شَكَّ فِيهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الْفَتْح: ٢٧]. وَقَالَ ﷺ حِينَ وَقَفَ عَلَى الْمَقَابِرِ: «**وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ**». وَقَالَ أَيْضًا: «**إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ للهِ**». وَنَظَائِرُ هَذَا)[1].

فالصحيح في هذا التفصيل:

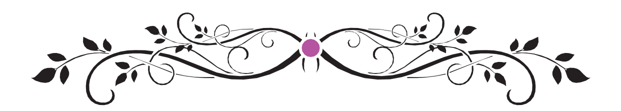
- فإن كان الحامل له على الاستثناء: الشك والتردد، فهو محرم؛ لوجوب الجزم في أصل الإيمان، المقابل للكفر، كما أمر الله نبيه والمؤمنين بذلك دون استثناء: ﴿**قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ**﴾ [آل عمران: ٨٤]، ﴿**قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ**﴾ [البقرة: ١٣٦]، وأمثالها.

- وإن كان الحامل له الاستثناء خوف تزكية النفس، وادعاء الإيمان المطلق، والنظر إلى العاقبة والخواتيم، فذلك واجب.

- وإن كان الحامل عليه التعلق بالمشيئة، والتعليل بها، والتبرك بذكرها، فهو جائز.



(١) شرح الطحاوية، ت: الأرناؤوط (٢/ ٤٩٥، ٤٩٦).



المبشرون بالجنة

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(فأما الذين شهد لهم رسول الله ﷺ من أصحابه بأعيانهم بأنهم من أهل الجنة، فإن أصحاب الحديث يشهدون لهم بذلك؛ تصديقًا منهم للرسول ﷺ فيما ذكره، ووعده لهم؛ فإنه ﷺ لم يشهد لهم بها إلا بعد أن عرف ذلك. والله تعالى أطلع رسوله ﷺ على ما شاء من غيبه. وبيان ذلك في قوله ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

(وقد بشر ﷺ عشرة من أصحابه بالجنة، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد، وسعيد، وأبو عبيدة بن الجراح).

(وكذلك، قال لثابت بن قيس بن شماس: «**إنه من أهل الجنة**». قال أنس بن مالك: فلقد كان يمشي بين أظهرنا، ونحن نقول: إنه من أهل الجنة)[١].

الشَّرْح

ما أعظم هذه البشارة! هنيئًا لهم، لله درهم، ما أعظم فضلهم وحظهم! فقد قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَبُو بَكْرٍ فِي الجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ**

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٦١٣)، ومسلم رقم (١١٩).

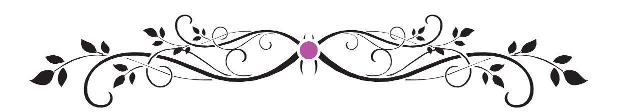
عَوْفٍ فِي الجَنَّةِ، وَسَعْدٌ فِي الجَنَّةِ، وَسَعِيدٌ فِي الجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ فِي الجَنَّةِ»[١].

وبشر ثابت بن قيس بن شماس ﵁، فقد كان خطيب رسول الله ﷺ، ومن شأن الخطيب أن يرفع صوته، فإذا قدم على النبي ﷺ وفد واختطبوا، أمره النبي ﷺ فخطب؛ لفصاحته وبيانه، وجهورية صوته. فلما نزل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: ٢]، أغلق عليه بابه، وقال: أنا أرفع صوتي عند رسول الله ﷺ، قد حبط عملي! وبقي حزينًا كئيبًا. فلما افتقده النبي ﷺ، سأل عنه فأخبر بخبره، فقال: «**بل يعيش حميدًا ويموت شهيدًا ويدخل الجنة**»[٢]، فلذلك، قال أنس ﵁: «فلقد كان يمشي بين أظهرنا، ونحن نقول: إنه من أهل الجنة».

وهناك سواهم؛ كبلال، وآل ياسر، وعبد الله بن سلام، رضوان الله عليهم، أخبر النبي ﷺ أنهم يدخلون الجنة، في أخبار محفوظة. فكل من شهد له النبي ﷺ بالجنة فإنا نشهد له.



(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٧٤٧)، وأحمد رقم (١٦٧٥).
(٢) تفسير الطبري (٢٢/ ٢٧٩).



فضل الصحابة وخلافتهم

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(ويشهدون ويعتقدون: أن أفضل أصحاب رسول الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، وأنهم الخلفاء الراشدون الذين ذكر رسول الله ﷺ خلافتهم بقوله ـ فيما رواه سعيد بن جمهان عن سفينة ـ: «**الخلافة بعدي ثلاثون سنة**»[١].

(وبعد انقضاء أيامهم عاد الأمر إلى الملك العضوض على ما أخبر عنه الرسول ﷺ).

الشَّرح

الصحابة: جمع صحابي، وهو من لقي النبي ﷺ في حياته مؤمنًا به، ومات على ذلك. وهم جم غفير، يفضل بعضهم بعضًا، كما أن أنبياء الله يفضل بعضهم بعضًا.

وقد قرر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مسألتين:

إحداهما: مسألة الفضل: فيعتقد أهل السنة والجماعة أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي. ولا يختلفون في تقديم أبي بكر ثم عمر، لكن وقع خلاف في المفاضلة بين علي وعثمان؛ فمنهم من قدَّم عثمان على علي، ومنهم من قدم عليًّا على عثمان، ومنهم من توقف. وقد استقر أمر أهل السنة والجماعة على ما قرره المصنف، وأن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة. وليس الخلاف في ذلك مما يضلل به المخالف.

---

(١) أخرجه أحمد رقم (٢١٩١٩)، وأبو داود رقم (٤٦٤٦).

الثانية: مسألة الخلافة: فيعتقد أهل السنة والجماعة أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي. ولم يتنازع أهل السنة والجماعة في خلافة أي من هؤلاء الأربعة؛ بل هم مجمعون على الترتيب الذي وقع تاريخيًّا. ومن خالف في ذلك فهو أضل من حمار أهله.

وخلافتهم الراشدة ثابتة بقول النبي ﷺ: «**الخلافة بعدي ثلاثون سنة**». وقد فسرها سفينة رضي الله عنه، فقال: «أَمْسِكْ لِأَبِي بَكْرٍ سَنَتَيْنِ، وَلِعُمَرَ عَشْرًا، وَلِعُثْمَانَ اثْنَيْ عَشَرَ، وَلِعَلِيٍّ سِتًّا»[(١)].

وقول المصنف: (وبعد انقضاء أيامهم عاد الأمر إلى الملك العضوض)، إشارة إلى الحديث المروي: «**إِنَّ اللهَ ﷻ بَدَأَ هَذَا الْأَمْرَ نُبُوَّةً وَرَحْمَةً، وَكَائِنًا خِلَافَةً وَرَحْمَةً، وَكَائِنًا مُلْكًا عَضُوضًا، وَكَائِنًا عَنْوَةً وَجَبْرِيَّةً وَفَسَادًا فِي الْأَرْضِ؛ يَسْتَحِلُّونَ الْفُرُوجَ وَالْخُمُورَ وَالْحَرِيرَ وَيُنْصَرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَيُرْزَقُونَ أَبَدًا، حَتَّى يَلْقَوُا اللهَ**»[(٢)]. وفيه ضعف، وأوله ثابت بحديث سفينة، وما بعده وقع زمن بني أمية والعباس، وفي آخره نكارة.



(١) مسند البزار، البحر الزخار (٩/ ٢٨٠).
(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي رقم (٢٢٥)، وأبو يعلى الموصلي رقم (٨٧٣)، والطبراني في الكبير رقم (٣٦٧).



خلافة أبي بكر رضي الله عنه

قال المؤلف رحمه الله :

(ويثبت أصحاب الحديث خلافة أبي بكر رضي الله عنه، بعد وفاة رسول الله ﷺ، باختيار الصحابة واتفاقهم عليه، وقولهم قاطبة: «رضيه رسول الله ﷺ لديننا؛ فرضيناه لدنيانا»؛ يعني: أنه استخلفه في إقامة الصلوات المفروضات بالناس أيام مرضه ـ وهي الدين ـ، فرضيناه خليفة للرسول الله ﷺ في أمور دنيانا، وقولهم: «قدمك رسول الله ﷺ فمن ذا الذي يؤخرك؟!»، أرادوا أنه قدمك في الصلاة بنا أيام مرضه، فصلينا وراءك بأمره، فمن ذا الذي يؤخرك بعد تقديمه إياك؟).

(وكان رسول الله ﷺ يتكلم في شأن أبي بكر في حال حياته بما يبين للصحابة أنه أحق الناس بالخلافة بعده. فلذلك، اتفقوا عليه واجتمعوا، فانتفعوا بمكانه والله، وارتفعوا به وارتفقوا، حتى قال أبو هريرة رضي الله عنه: والله الذي لا إله إلا هو! لولا أن أبا بكر استُخلِف لما عُبد الله. ولما قيل له: مه يا أبا هريرة! قام بحجة صحة قوله، فصدقوه فيه، وأقروا به[(١)]).

الشَّرْح

لا يختلف أهل السنة والجماعة أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ صاحبه في الغار؛ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، الذي خلد الله ذكره في القرآن بقوله: ﴿إِذْ هُمَا

(١) انظر: تاريخ الخلفاء، للسيوطي (٧٣، ٧٤).

﴿فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وكان أول من آمن به من الرجال، وله معه المواقف العظام، حتى قال النبي ﷺ: «**إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ**»[١]. وكان النبي ﷺ يحبه محبة خاصة، وإذا وقع بينه وبني أحد شيء قال: «**هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي**»[٢].

وقد ثبتت خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالنص الخفي، والإيماء، والإشارة، ومبايعة المسلمين له في سقيفة بني ساعدة. وقد استدل المصنف عل ثبوت خلافته بمبايعتهم إياه استدلالًا باستخلاف النبي ﷺ إياه في الصلاة أيام مرضه، وتقديمه على من سواه.

كما استدل المصنف بكون النبي ﷺ يقول أقوالًا يفهم منها أنه الخليفة بعده. فعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ: «**لَقَدْ هَمَمْتُ ـ أَوْ: أَرَدْتُ ـ أَنْ أُرْسِلَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَابْنِهِ وَأَعْهَدَ، أَنْ يَقُولَ القَائِلُونَ ـ أَوْ يَتَمَنَّى المُتَمَنُّونَ ـ، ثُمَّ قُلْتُ: يَأْبَى اللهُ وَيَدْفَعُ المُؤْمِنُونَ ـ أَوْ: يَدْفَعُ اللهُ وَيَأْبَى المُؤْمِنُونَ ـ**»[٣]، وفي رواية: «**ادْعِي لِي أَبَا بَكْرٍ، أَبَاكِ، وَأَخَاكِ، حَتَّى أَكْتُبَ كِتَابًا، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّى مُتَمَنٍّ وَيَقُولَ قَائِلٌ: أَنَا أَوْلَى، وَيَأْبَى اللهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ**»[٤]؛ حتى عدها ابن حزم رحمه الله نصًّا جليًّا. وأَتَتِ امْرَأَةٌ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَمَرَهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ، قَالَتْ: أَرَأَيْتَ إِنْ جِئْتُ وَلَمْ أَجِدْكَ؟ كَأَنَّهَا تَقُولُ: المَوْتَ، قَالَ ﷺ: «**إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ**»[٥]، كما رأى النبي ﷺ رؤىً منامية، ففسرها بما يدل على أن الخليفة بعده أبا بكر. فلما توفي رسول الله ﷺ، اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، وخرج إليهم أبو بكر، وعمر، وعبد الرحمن بن عوف، وتراجعوا في أمر الخلافة، فاجتمع الأمر على بيعة أبي بكر، فبايعه الصحابة الذين في السقيفة، ثم بايعه بقيتهم في المسجد. وكان ينادى بخليفة رسول الله.

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٦٦)، ومسلم رقم (٢٣٨٢).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٤٦٤٠).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٥٦٦٦).
(٤) أخرجه مسلم رقم (٢٣٨٧).
(٥) أخرجه البخاري رقم (٣٦٥٩)، ومسلم رقم (٢٣٨٦).



خلافة عمر رضي الله عنه

قال المؤلف رحمه الله:

(ثم خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه؛ باستخلاف أبي بكر رضي الله عنه إياه، واتفاق الصحابة عليه بعده، وإنجاز الله سبحانه ـ بمكانه في إعلاء الإسلام وإعظام شأنه ـ وعدَه).

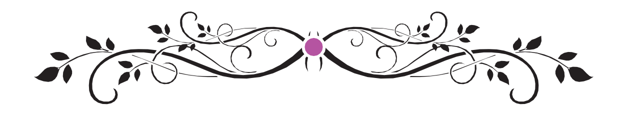
الشَّرْح

لا يختلف أهل السنة والجماعة أن الخليفة بعد أبي بكر الصديق، وصيُّه الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وهو أول من لقب بأمير المؤمنين. وقد ثبتت خلافته باستخلاف أبي بكر الصديق رضي الله عنه إياه، وبيعة المسلمين له. وقد استدل المصنف على صحة خلافته بتحقيق وعد الله للمؤمنين بالتمكين في زمنه. قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور: ٥٥]؛ فأعز الله الإسلام، حتى فتحت بلاد الشام والعراق وفارس، ومصر وإفريقية، في خلافته. وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم ذلك برؤيا رآها، فقال: «**أُرِيتُ فِي المَنَامِ أَنِّي أَنْزِعُ بِدَلْوِ بَكْرَةٍ عَلَى قَلِيبٍ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَنَزَعَ ذَنُوبًا، أَوْ ذَنُوبَيْنِ نَزْعًا ضَعِيفًا، وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ فَاسْتَحَالَتْ غَرْبًا، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرِيَّهُ حَتَّى رَوِيَ النَّاسُ، وَضَرَبُوا بِعَطَنٍ**»(١)، يشيد بخلافته ويشير إلى ما جرى فيها من الفتوح، وتدوين الدواوين، وتمصير الأمصار، وتثبيت أركان الإسلام. ففي زمنه وقعت

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٦٨٢)، ومسلم رقم (٢٣٩٣).

المعارك الفاصلة؛ كاليرموك، والقادسية، ونهاوند، وذات الصواري، وغيرها من الفتوح التي فتح الله بها البلاد، ودخل الناس في دين الله أفواجًا. وكان شديد الحرص والحدب على المسلمين، حتى رآه عثمان ﵁ مرةً في نحر الظهيرة يزول به السراب، فلما أقبل قال: يا أمير المؤمنين، ما أخرجك في هذا الحر، قال: بعير من إبل الصدقة ندَّت فذهبت أطلبها، خشيت أن يسألني الله عنها. قال: قد أتعبت من بعدك. وقال: لو أعلم أن دابة عثرت بأرض العراق، لظننت أن الله سائلي عنها؛ لمَ لمْ أسوِّ لها الطريق؟ وسيرته ﵁ حافلة عطرة، حتى قالت عائشة ﵂: طيبوا مجالسكم بذكر عمر.





خلافة عثمان رضي الله عنه

قال المؤلف رحمه الله:

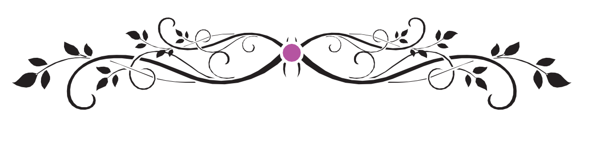
(ثم خلافة عثمان رضي الله عنه، بإجماع أهل الشورى، وإجماع الأصحاب كافة، ورضاهم به حتى جعل الأمر إليه).

الشَّرْح

لا يختلف أهل السنة والجماعة أن الخليفة بعد عمر بن الخطاب، ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه. زوّجه النبي ﷺ ابنته رقية، فلما ماتت زوّجه ابنته أم كلثوم. وكانت خلافته امتدادًا للفتوحات الإسلامية، وكثر فيها الخير والغنائم. ثم شغب عليه الخوارج، وحرضوا عليه السفهاء، وحصروه في بيته، حتى تسوروا عليه، وقتلوه صابرًا محتسبًا يقرأ في المصحف الذي جمعه للمسلمين،رضي الله عنه وأرضاه.

وقد ثبتت خلافته باختيار أهل الشورى من بقية العشرة المبشرين، الذين عهد إليهم عمر أمر الخلافة، فانتهى الأمر إلى مبايعتهم لعثمان، ثم بايعه بعدهم بقية المسلمين.





خلافة علي رضي الله عنه

قال المؤلف رحمه الله:

(ثم خلافة علي رضي الله عنه؛ ببيعة الصحابة إياه، حين عرفه ورآه كل منهم رضي الله عنه أحق الخلق وأولاهم في ذلك الوقت بالخلافة، ولم يستجيزوا عصيانه وخلافه).

الشَّرح

لا يختلف أهل السنة والجماعة أن الخليفة بعد عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب رضي الله عنهما. وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوج ابنته فاطمة رضي الله عنها، وأول من آمن به من الصبيان.

وقد ثبتت خلافته ببيعة المهاجرين والأنصار في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مقتل عثمان. إلا إن عهده رضي الله عنه جرت فيه فتن كبار؛ كوقعة الجمل، وصفين. وقد شرفه الله تعالى بقتال الخوارج، فقاتلهم وقتلهم في النهروان، وتحقق له وصف النبي صلى الله عليه وسلم: «**يَقْتُلُهُمْ أَدْنَى الطَّائِفَتَيْنِ إِلَى الْحَقِّ**»[(١)]، فكان شهادة وعلامة أن عليًّا رضي الله عنه، أدنى إلى الحق ممن خرج وبغى عليه.



(١) أخرجه مسلم رقم (١٠٦٤).

قال المؤلف رحمه الله:

(فكان هؤلاء الأربعة الخلفاء الراشدين، الذين نصر الله بهم الدين، وقهر وقسر بمكانهم الملحدين، وقوى بمكانهم الإسلام، ورفع في أيامهم للحق الأعلام، ونوَّر بضيائهم ونورهم وبهائهم الظلام، وحقق بخلافتهم وعده السابق في قوله عز وجل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥] الآية، وفي قوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾.

فمن أحبهم، وتولاهم، ودعا لهم، ورعى حقهم، وعرف فضلهم، فاز في الفائزين؛ ومن أبغضهم، وسبهم، ونسبهم إلى ما تنسبهم إليه الروافض والخوارج ـ لعنهم الله ـ فقد هلك في الهالكين. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«لا تسبوا أصحابي؛ فمن سبهم فعليه لعنة الله»**[1]، وقال: **«من أحبهم، فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم، فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن سبهم فعليه لعنة الله»**[2].

الشَّرح

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم صفوة الله من خلقه، اختارهم الله لصحبة نبيه عن علم وحكمة، وهم النزاع من القبائل والأمم؛ ففيهم أبو بكر العربي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، وسلمان الفارسي. عن عبد الله بن مسعود

(١) صدر هذا الحديث متفق عليه، كما سيأتي، وآخره أخرجه الطبراني في الأوسط والكبير، وابن أبي عاصم، والبزار، وحسنه الألباني.
(٢) أخرجه أحمد رقم (١٦٨٠٣)، والترمذي رقم (٣٨٦٢)، وضعفه الألباني.

قال: إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئًا فهو عند الله سيئ)[(١)]، وقال أيضًا: (مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَانُوا خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ، أَبَرَّهَا قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَنَقْلِ دِينِهِ، فَتَشَبَّهُوا بِأَخْلاقِهِمْ وَطَرَائِقِهِمْ، فَهُمْ كَانُوا عَلَى الْهَدْيِ الْمُسْتَقِيمِ)[(٢)]، وروي نحوه عن الحسن البصري[(٣)].

وقد أحسن الله الثناء عليهم، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠]، وذكر أطباقهم في سورة الحشر فقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٨، ٩].

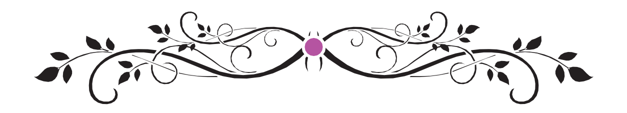
وذكر المصنف طرفًا من فضائلهم العامة ومناقبهم، وبيَّن الواجب تجاههم؛ من المحبة القلبية، والموالاة العملية، والدعاء لهم، وحفظ

---

(١) أخرجه أحمد رقم (٣٦٠٠)، وصحح إسناده أحمد شاكر.
(٢) شرح السنة، للبغوي (١/ ٢١٤).
(٣) أخرجه الآجري في الشريعة رقم (١١٦١) و(١٩٨٤).

حقوقهم، ومعرفة فضائلهم، واجتناب بغضهم وسبهم وتنقصهم. وهذه طريقة التابعين لهم بإحسان؛ كما حكى الله عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر: ١٠].





الإمامة والجماعة

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

(ويرى أصحاب الحديث الجمعة والعيدين، وغيرهما من الصلوات، خلف كل إمام؛ برًّا كان أو فاجرًا. ويرون جهاد الكفرة معهم، وإن كانوا جَوَرة فجرة. ويرون الدعاء لهم بالإصلاح والتوفيق والصلاح[١]، ولا يرون الخروج عليهم بالسيف، وإن رأوا منهم العدول عن العدل إلى الجور والحيف، ويرون قتال الفئة الباغية حتى ترجع إلى طاعة الإمام العدل).

الشَّرْح

يدرج أهل السنة والجماعة مسائل الإمامة والجماعة في متونهم العقدية لما لها من خطر وأهمية على عموم الأمة. وذلك أنه لا بد لأمة الإسلام من إمام يلي أمرها، ويجمع كلمتها، وينفذ الأحكام الشرعية السلطانية في العام والخاص.

وقد تحصل من كلام المصنف رحمه الله من طريقة أصحاب الحديث ما يلي:

أولًا: الصلاة خلف الولاة؛ أبرارًا كانوا أو فجارًا. وقد جرى ذلك من عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، خلف الحجاج بن يوسف.

ثانيًا: الجهاد مع الولاة؛ أبرارًا كانوا أو فجارًا.

ثالثًا: الدعاء لهم بالصلاح والإصلاح. ويروى عن جماعة من السلف؛

(١) وفي بعض النسخ: (وبسط العدل في الرعية).

كالفضيل بن عياض، والإمام أحمد ـ رحمهما الله ـ وغيرهما، قولهم: لو أعلم أن لي دعوة مستجابة لصرفتها للسلطان[١].

رابعًا: تحريم الخروج عليهم، ومنابذتهم، وإن جاروا، أو فجروا.

خامسًا: قتال الفئة الباغية عليهم؛ كما أمر الله بقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الحجرات: ٩].

وذلك أن اجتماع الكلمة من أعظم المقاصد الشرعية العامة، وتفرق الكلمة يؤدي إلى سفك الدماء، وإثارة الدهماء، وضياع الأمة، وتعطيل الشرع. نهى ﷺ أمته عن ذلك وقال: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا**»، قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ، وَسَلُوا اللهَ حَقَّكُمْ**»[٢]. وعَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ، قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، وَهُوَ مَرِيضٌ، قُلْنَا: أَصْلَحَكَ اللهُ، حَدِّثْ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِ، سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ، فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: «**أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ؛ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةً عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ**»[٣].

فلا بد من اجتماع هذه الشروط الأربعة الثقال؛ لتسويغ الخروج:

الشرط الأول: الرؤية المحققة؛ فلا يعتمد على البلاغات، والإشاعات.

الشرط الثاني: أن يكون كفرًا؛ فإن كان فسقًا، فإن هذا لم يبح الخروج.

الشرط الثالث: أن يكون بواحًا؛ يعني: ظاهرًا باديًا علنيًّا، لا مستترًا خفيًّا.

الشرط الرابع: أن يكون عندنا فيه من الله برهان؛ من آية محكمة أو سنة ثابتة.

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢٨/ ٣٩١).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٧٠٥٢)، ومسلم رقم (١٨٤٣).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٧٠٥٥)، ومسلم رقم (١٧٠٩).

ويضاف إلى ذلك:

الشرط الخامس: القدرة: فقد قال الله للمؤمنين في مكة: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧]، وإلا، أفضى ذلك إلى استئصالهم.

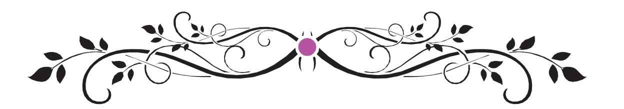
فإن لم تتوفر هذه الشروط، فالواجب الصبر على جور الولاة وفجورهم، وعدم منابذتهم. ولما جاء بعض أهل البصرة إلى أنس بن مالك رضي الله عنه، يشكون إليه ما يجدون من الحجاج، وقد كان ظلومًا غشومًا، قَالَ: «**اصْبِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ**»، سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ صلى الله عليه وسلم[(١)]..

فكانت طريقة الصحابة: الصبر على جور الولاة إلى أن يبدل الله حالًا بحال، وكانت طريقة القراء: الخروج على أئمة الجور، فنشأ عن ذلك أن اجتمع الفقهاء في ذلك الزمان، تحت إمرة عبد الرحمن بن الأشعث، وخرجوا على الحجاج بن يوسف الثقفي، فجرد لهم الحجاج جيشًا أفناهم، وشردهم في موقعة «دير الجماجم»، وقضى بسببها كثير من كبار التابعين. ومنذ ذلك الحين، وأهل السنة والجماعة يتواصون بلزوم الجماعة، وعدم الخروج على ولاة الجور، والسمع والطاعة لهم بالمعروف، والصبر على أذاهم؛ مراعاةً للمصالح العامة، واتباعًا للدليل. ولا يمنعهم ذلك من النصيحة لولاة الأمر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع الحكمة والشفقة وتقدير المصالح والمفاسد، والله المستعان. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وَلَعَلَّهُ لَا يَكَادُ يُعْرَفُ طَائِفَةٌ خَرَجَتْ عَلَى ذِي سُلْطَانٍ، إِلَّا وَكَانَ فِي خُرُوجِهَا مِنَ الْفَسَادِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْفَسَادِ الَّذِي أَزَالَتْهُ)[(٢)]. والتاريخ والواقع شاهدان بذلك.



(١) أخرجه البخاري رقم (٧٠٦٨).

(٢) منهاج السنة النبوية (٣/ ٣٩١).



موقف أهل السنة مما شجر الصحابة

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

(ويرون الكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ، وتطهير الألسنة عن ذكر ما يتضمن عيبًا لهم، ونقصًا فيهم، ويرون الترحم على جميعهم، والموالاة لكافتهم).

الشَّرْح

هذه الفقرة محلها ما تقدم عند ذكر الصحابة. فلما قتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان، وقعت الفتنة، وكان كثير من الصحابة قد مات، ومن بقي منهم؛ فأكثرهم اعتزل الفتنة، ومنهم من ابتلي بها، فنشأ عن ذلك خوض ووقيعة وإيغار صدور، ودس الزنادقة من الرافضة أخبارًا مكذوبة. فكانت طريقة أهل السنة والجماعة: الكف عما شجر بين الصحابة، وعدم التفكه بذكر ما جرى بينهم، وإحسان الظن بهم؛ كما قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «تلك دماء طهر الله منها سيوفنا، فنطهر منها ألسنتنا»[(١)].

وقد حذَّر المصنف رحمه الله ـ فيما تقدم ـ من طريقة الروافض والخوارج، الذين نالوا من أصحاب النبي ﷺ، وسبوهم، وكفروهم، وقاتلوهم، ونسبوا إليهم الشناعات الباطلة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وَيَتَبَرَّؤونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُمْ، وَمِنْ طَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.

(١) منهاج السنة النبوية (٦/ ٢٥٤)، البداية والنهاية (١١/ ٤٢٧).

وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ. وَيَقُولُونَ: إنَّ هَذِهِ الْآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مساويهم: مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ. وَالصَّحِيح مِنْهُ: هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ؛ إمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ. وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الْإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ؛ بَلْ تَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ، وَلَهُمْ مِنْ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ، إنْ صَدَرَ. حَتَّى إنَّهُ يُغْفَرُ لَهُمْ مِنْ السَّيِّئَاتِ مَا لَا يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ لِأَنَّ لَهُمْ مِنْ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ. وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**إنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ**»، وَ«**إنَّ الْمُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إذَا تَصَدَّقَ بِهِ، كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا مِمَّنْ بَعْدَهُمْ**». ثُمَّ إذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ، أَوْ أَتَى بِحَسَنَاتِ تَمْحُوهُ، أَوْ غُفِرَ لَهُ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، أَوْ ابْتُلِيَ بِبَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ. فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ الْمُحَقَّقَةِ، فَكَيْفَ بِالْأُمُورِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ؛ إنْ أَصَابُوا فَلَهُمْ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَؤوا فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَالْخَطَأُ مَغْفُورٌ لَهُمْ؟ ثُمَّ الْقَدْرُ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ، قَلِيلٌ نَزْرٌ مَغْمُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ الْقَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ؛ مِنْ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ. وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ، بِعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ الْفَضَائِلِ، عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ؛ لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ، وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ تَعَالَى)[1].

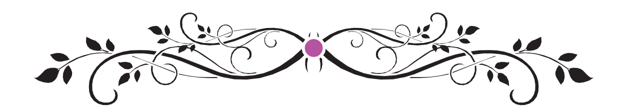
فالواجب محبتهم، والترحم عليهم، وموالاة جميعهم، وسلامة القلوب والألسنة لهم؛ سلامة القلوب من الغل والحقد والشحناء، وسلامة الألسنة من السب والشتم؛ كما قال ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنْفَقَ**

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٤ ـ ١٥٦).

أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»[١]؛ أي: لو استحال جبل أحدٍ لغيرهم ذهبًا، ففرقه في سبيل الله، ما قابل ذلك مقدار مد ينفقه الصحابي ولا نصيفه! والمد: قدر ما يملأ كفي الإنسان المعتدل الخلقة من الحب.



(١) أخرجه البخاري رقم (٣٦٧٣)، ومسلم رقم (٢٥٤٠).



تعظيم أمهات المؤمنين

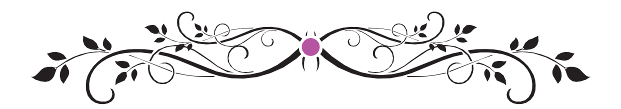
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وكذلك يرون تعظيم قدر أزواجه رضي الله عنهن، والدعاء لهن، ومعرفة فضلهن، والإقرار بأنهن أمهات المؤمنين).

الشَّرْح

أزواج النبي ﷺ هن أمهات المؤمنين؛ لقول الله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]. لكن هذه الأمومة في الاحترام لا في المحرمية؛ يعني: أن لهن ما للأمهات، وزيادة، من الإجلال والإكرام والاحترام، لا في المحرمية كالخلوة ونحوها. وقد تزوج النبي ﷺ إحدى عشر امرأة، وتوفي عن تسع منهن، وهن أزواجه في الدنيا والآخرة. وأفضلهن خديجة بنت خويلد، أم أكثر أولاده، وأول من آمن به، وعاضده، والصديقة بنت الصديق، عائشة بنت أبي بكر، رضوان الله عليهن أجمعين.





دخول الجنة بفضل الله ورحمته

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(ويعتقدون ويشهدون أن أحدًا لا تجب له الجنة، وإن كان عمله حسنًا[١] وطريقه مرتضى، إلا أن يتفضل الله عليه، فيوجبها له بمنه وفضله، إذ عمل الخير الذي عمله، لم يتيسر له إلا بتيسير الله عز اسمه، فلو لم ييسره له لم يتيسر، ولو لم يهده لفعلِه لم يهتد له أبـدًا، قـال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١]، وقال مخبرًا عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، في آيات سواها).

الشَّرح

في هذا رد على المعتزلة الذين يزعمون أن الإنسان يستحق دخول الجنة بعمله، ويوجبون على الله فعل الصلاح أو الأصلح، بتقدير عقولهم! والحق أن المؤمن يدخل الجنة بفضل الله ورحمته، لا بعمله؛ كما قال النبي ﷺ: «**لَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ**»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ**»[٢]. فإن قال قائل: أليس الله تعالى قد قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢﴾ [الزخرف: ٧٢]، فـالـجـواب: أن الباء في الآية باء السببية، والباء التي في الحديث باء المقابلة والثمنية، فالعمل

(١) وفي بعض النسخ: (وعبادته أخلص العبادات، وطاعته أزكى الطاعات).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٤٦٣)، ومسلم رقم (٢٨١٨).

سبب في دخول الجنة، لكن ليس مكافئًا ولا مقابلًا لها. أما دخول الجنة فبرحمته وفضله.

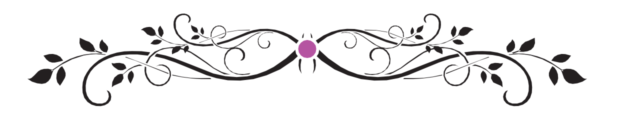
كما بيَّن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن كونها برحمة الله وفضله من وجهين:

أحدهما: أنه هداه للعمل الصالح الذي يكون سببًا لدخول الجنة.

الثاني: أنه يسره له وأعانه عليه.

ولولا هدايته وتيسيره، لم يقع له ذلك.

❁ ❁ ❁



تقدير الآجال

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(ويعتقدون ويشهدون أن الله عز وجل أجَّل لكل مخلوق أجلًا، وأن نفسًا لن تموت إلا بإذن الله كتابًا مؤجلًا، وإذا انقضى أجل المرء فليس إلا الموت، وليس له منه فوت؛ قال الله عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]).

(ويشهدون أن من مات أو قتل فقد انقضى أجله، قال الله عز وجل: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]).

الشَّرْح

قد تقدم في مسائل القدر، أن الله تعالى قد فرغ من العباد، وقدَّر الأرزاق والآجال، بما أغنى عن إعادته. وقد قال النبي ﷺ: «**إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ**»(١). فلا يمكن لأحد أن يموت وقد بقي في عمره لحظة، كما لا يمكن لأحد إذا جاء أجله أن يستأخر لحظة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك رقم (٢١٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (٩٨٩١).

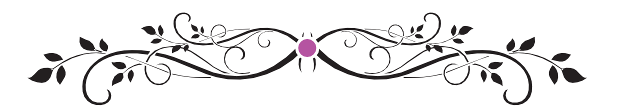
سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأعراف: ٣٤]، [النحل: ٦١]. وعن أُمِّ حَبِيبَةَ زَوْج النَّبِيِّ ﷺ، أنها قالت: اللَّهُمَّ أَمْتِعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ، وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**قَدْ سَأَلْتِ اللهَ لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّام مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئًا قَبْلَ حِلِّهِ، أَوْ يُؤَخِّرَ شَيْئًا عَنْ حِلِّهِ، وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، أَوْ عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ، كَانَ خَيْرًا وَأَفْضَلَ**».

وهذا أمر بيِّن، وإنما أراد المصنف الرد على المعتزلة الذين يقولون: المقتول مقطوع عليه أجله، والحقيقة أنه مات بقدر الله الذي أجله الله تعالى له.

قال ابن أبي العز رحمه الله: (فَالْمَقْتُولُ مَيِّتٌ بِأَجَلِهِ، فَعَلِمَ اللهُ تَعَالَى وَقَدَّرَ وَقَضَى أَنَّ هَذَا يَمُوتُ بِسَبَبِ الْمَرَضِ، وَهَذَا بِسَبَبِ الْقَتْلِ، وَهَذَا بِسَبَبِ الْهَدْمِ، وَهَذَا بِسَبَبِ الْحَرْقِ، وَهَذَا بِالْغَرَقِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ. وَاللهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ، وَخَلَقَ سَبَبَ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ. وَعِنْدَ الْمُعْتَزِلَةِ: الْمَقْتُولُ مَقْطُوعٌ عَلَيْهِ أَجَلُهُ، وَلَوْ لَمْ يُقْتَلْ لَعَاشَ إِلَى أَجَلِهِ؛ فَكَأَنَّ لَهُ أَجَلَانِ، وَهَذَا بَاطِلٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يَلِيقُ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ لَهُ أَجَلًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَعِيشُ إِلَيْهِ الْبَتَّةَ، أَوْ يَجْعَلَ أَجَلَهُ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ؛ كَفِعْلِ الْجَاهِلِ بِالْعَوَاقِبِ، وَوُجُوبُ الْقِصَاصِ وَالضَّمَانِ عَلَى الْقَاتِلِ، لِارْتِكَابِهِ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ وَمُبَاشَرَتِهِ السَّبَبَ الْمَحْظُورَ)(١).



(١) شرح الطحاوية، ت: الأرناؤوط (١/ ١٢٧، ١٢٨).



وسوسة الشياطين

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(ويعتقدون أن الله سبحانه خلق الشياطين يوسوسون للآدميين، ويقصدون استزلالهم، ويترصدون لهم؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١]. وأن الله تعالى يسلطهم على من يشاء، ويعصم من كيدهم ومكرهم من يشاء؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٤ ـ ٦٥]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ [النحل: ٩٩ ـ ١٠٠] الآية).

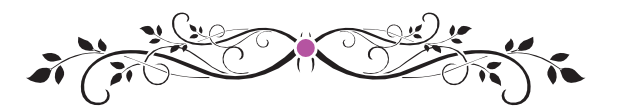
الشَّرْح

الشياطين: كفرة الجن من ذرية إبليس. وقد جعل الله لهم تأثيرًا على بني آدم بالوسوسة؛ كما وسوس سلفهم إبليس لأبيهم آدم وزوجه، في الجنة؛ ليخرجهما منها. قال تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]. ثم أهبط الله إبليس إلى الأرض مع الأبوين، وجعل له ولذريته تأثيرًا على بني آدم بأنواع الوساوس؛ من الشهوات والشبهات، وسلطانًا على الذين يتولونه. وأصل الوسوسة في اللغة: الصوت الخفي؛ كما قال الأعشى:

تسمع للحلي وسواسًا إذا انصرفت   كما استعان بريح عشرق زجل

فيلقي الشيطان في قلب ابن آدم من الخطرات والوساوس ما يصرفه عن الحق؛ كما قال الله: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، ومع ذلك، فإن كيد الشيطان ضعيف، قال الله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠]؛ فالاستعاذة الحقة بالله تعصم العبد من كيده، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٦]، وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].





السحر والسحرة

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

❁ (ويشهدون أن في الدنيا سحرًا وسحرة، إلا أنهم لا يضرون أحدًا إلا بإذن الله ﷻ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ومن سحر منهم، واستعمل السحر، واعتقد أنه يضر أو ينفع بغير إذن الله تعالى فقد كفر).

❁ (وإذا وصف ما يكفر به استتيب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه. وإذا وصف ما ليس بكفر، أو تكلم بما لا يفهم، نهي عنه، فإن عاد عزر. وإن قال: السحر ليس بحرام، وأنا أعتقد إباحته، وجب قتله؛ لأنه استباح ما أجمع المسلمون على تحريمه).

الشَّرْح

السحر من أعظم الذنوب، وقد عده النبي ﷺ من السبع الموبقات، فقال: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ**»، الحديث[(١)]؛ فقرنه بالشرك بالله، وذلك لعظيم خطره، وشديد أثره؛ فإنه يمرض، ويقتل، ويذهب العقل، ويفرق بين المرء وزوجه.

وأصل معنى السحر في اللغة: ما خفي ودق ولطف سببه. وفي الاصطلاح: عزائم ورقى وأدوية وتدخينات، تؤثر في القلوب والأبدان؛ بإذن الله القدري لا الشرعي. فتعلمه حرام، وتعليمه حرام، واستعماله حرام؛ قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٧٦٦)، ومسلم رقم (٨٩).

ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ١٠٢].

وحكم الساحر: كافر عند الأئمة الثلاثة؛ أبي حنيفة، ومالك، وأحمد، ويقتل كفرًا أو حدًّا. قال الترمذي رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنِيعٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ الحَسَنِ، عَنْ جُنْدُبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ**». هَذَا حَدِيثٌ لَا نَعْرِفُهُ مَرْفُوعًا إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْهِ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ مُسْلِمٍ المَكِّيُّ يُضَعَّفُ فِي الحَدِيثِ مِنْ قِبَلِ حِفْظِهِ. وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ مُسْلِمٍ العَبْدِيُّ البَصْرِيُّ، قَالَ وَكِيعٌ: هُوَ ثِقَةٌ، وَيُرْوَى عَنِ الْحَسَنِ أَيْضًا. وَالصَّحِيحُ عَنْ جُنْدَبٍ مَوْقُوفًا، وَالعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَغَيْرِهِمْ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ. وقَالَ الشَّافِعِيُّ: (إِنَّمَا يُقْتَلُ السَّاحِرُ إِذَا كَانَ يَعْمَلُ فِي سِحْرِهِ مَا يَبْلُغُ بِهِ الكُفْرَ، فَإِذَا عَمِلَ عَمَلًا دُونَ الكُفْرِ فَلَمْ نَرَ عَلَيْهِ قَتْلًا)[(١)].

وقد ثبت قتل الساحر عن ثلاثة من الصحابة، رضوان الله عليهم؛ عمر، وحفصة، وجندب. وسبب الخلاف راجع إلى تحرير محل النزاع فيما يتناوله السحر.

وقد فصل المصنف؛ تبعًا لإمام مذهبه، أحوال الساحر:

- من سحر واستعمل السحر، واعتقد أنه يضر أو ينفع، بغير إذن الله، كفر.
- من وصف ما يكفر به استتيب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه.

---

(١) سنن الترمذي، ت: شاكر رقم (١٤٦٠)، وأخرجه عبد الرزاق رقم (١٨٧٥٢)، والحاكم رقم (٨٠٧٣)، والبيهقي رقم (١٦٢٧٧)، وضعفه الألباني، انظر: السلسلة الضعيفة رقم (١٤٤٦).

- من وصف ما ليس بكفر، أو تكلم بما لم يفهم، نهي عنه؛ فإن عاد عُزِّر.

- من قال: السحر ليس بحرام، واعتقد إباحته، كفر، وقتل.

قال السبكي رَحِمَهُ اللَّهُ: (مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْ رَأَى قَتْلَهُ بِكُلِّ حَالٍ؛ تَابَ أَوْ لَمْ يَتُبْ، وَهُوَ الْمَنْقُولُ عَنْ مَالِكٍ. وَأَمَّا مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ: فَحَاصِلُهُ أَنَّ السَّاحِرَ لَهُ ثَلَاثَةُ أَحْوَالٍ: حَالٌ يُقْتَلُ كُفْرًا، وَحَالٌ يُقْتَلُ قِصَاصًا، وَحَالٌ لَا يُقْتَلُ أَصْلًا؛ بَلْ يُعَزَّرُ. أَمَّا الْحَالَةُ الَّتِي يُقْتَلُ فِيهَا كُفْرًا: فَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنْ يَعْمَلَ بِسِحْرِهِ مَا يَبْلُغُ الْكُفْرَ. وَشَرَحَ أَصْحَابُهُ ذَلِكَ بِثَلَاثَةِ أَمْثِلَةٍ:

(أَحَدُهَا): أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ هُوَ كُفْرٌ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ ذَلِكَ مُوجِبٌ لِلْقَتْلِ، وَمَتَى تَابَ مِنْهُ قُبِلَتْ تَوْبَتُهُ، وَسَقَطَ عَنْهُ الْقَتْلُ، وَهُوَ يَثْبُتُ بِالْإِقْرَارِ وَبِالْبَيِّنَةِ.

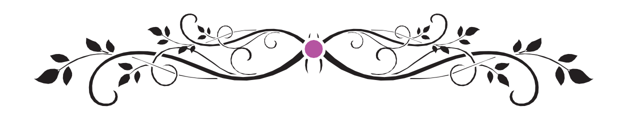
(الْمِثَالُ الثَّانِي): أَنْ يَعْتَقِدَ مَا اعْتَقَدَهُ مِنْ التَّقَرُّبِ إِلَى الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ، وَأَنَّهَا تَفْعَلُ بِأَنْفُسِهَا. فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَيْضًا الْقَتْلُ؛ كَمَا حَكَاهُ ابْنُ الصَّبَّاغِ، وَتُقْبَلُ تَوْبَتُهُ، وَلَا يَثْبُتُ هَذَا الْقِسْمُ إِلَّا بِالْإِقْرَارِ.

(الْمِثَالُ الثَّالِثُ): أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّهُ حَقٌّ؛ يَقْدِرُ بِهِ عَلَى قَلْبِ الْأَعْيَانِ. فَيَجِبُ عَلَيْهِ الْقَتْلُ؛ كَمَا قَالَهُ الْقَاضِي حُسَيْنٌ، وَالْمَاوَرْدِيُّ. وَلَا يَثْبُتُ ذَلِكَ أَيْضًا إِلَّا بِالْإِقْرَارِ. وَإِذَا تَابَ قُبِلَتْ تَوْبَتُهُ، وَسَقَطَ عَنْهُ الْقَتْلُ.

وَأَمَّا الْحَالَةُ الَّتِي يُقْتَلُ فِيهَا قِصَاصًا: فَإِذَا اعْتَرَفَ أَنَّهُ قَتَلَ بِسِحْرِهِ إِنْسَانًا، فَكَمَا قَالَهُ، وَأَنَّهُ مَاتَ بِهِ، وَإِنَّ سِحْرَهُ يَقْتُلُ غَالِبًا، فَهَاهُنَا يُقْتَلُ قِصَاصًا، وَلَا يُثْبِتُ هَذِهِ الْحَالَةَ إِلَّا الْإِقْرَارُ، وَلَا يَسْقُطُ الْقِصَاصُ بِالتَّوْبَةِ.

وَأَمَّا الْحَالَةُ الَّتِي لَا يُقْتَلُ فِيهَا أَصْلًا، وَلَكِنْ يُعَزَّرُ، فَهِيَ مَا عَدَا ذَلِكَ، وَيَضْمَنُ مَا اعْتَرَفَ بِإِتْلَافِهِ بِهِ)[1].

(١) فتاوى السبكي (٢/ ٣٢٣، ٣٢٤).



آداب أصحاب الحديث وسلوكهم

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

(ويحرم أصحاب الحديث المسكر من الأشربة المتخذة من العنب، أو الزبيب، أو التمر، أو العسل، أو الذرة، أو غير ذلك مما يسكر؛ يحرمون قليله وكثيره، ويجتنبونه وينجسونه ويوجبون به الحد).

الشَّرح

الخمر: ما خامر العقل؛ أي: غطاه، على سبيل اللذة والطرب. وهو محرم بنص كتاب الله، وصحيح سنة رسول الله، وإجماع المسلمين. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١]، وقال ﷺ: «**كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وَمَا أَسْكَرَ الْفَرْقُ، فَمِلْءُ الْكَفِّ مِنْهُ حَرَامٌ**»(١)، وقال: «**كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ**»(٢).

فالشريعة تصون العقول والأبدان، وتمنع ما يفسدها ويضرها، فلا يجوز تعاطي الخمر أيًا كان مصدره؛ من العنب أو الزبيب أو التمر أو العسل أو الذرة أو غير ذلك. عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَلَى مِنْبَرِ النَّبِيِّ ﷺ، يَقُولُ: «أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّهُ نَزَلَ تَحْرِيمُ الخَمْرِ، وَهْيَ مِنْ

(١) أخرجه أحمد رقم (٢٤٩٩٢)، وأبو داود رقم (٣٦٨٧)، والترمذي رقم (١٨٦٦).
(٢) أخرجه مسلم رقم (٢٠٠٣).

خَمْسَةٍ؛ مِنْ: العِنَبِ وَالتَّمْرِ وَالعَسَلِ وَالحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ. وَالخَمْرُ مَا خَامَرَ العَقْلَ»[(١)].



(١) أخرجه البخاري رقم (٤٦١٩)، ومسلم رقم (٣٠٣٢).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(ويرون المسارعة إلى أداء الصلوات، وإقامتها في أوائل الأوقات أفضل من تأخيرها إلى أواخر الأوقات. ويوجبون قراءة فاتحة الكتاب خلف الإمام).

الشَّرْح

المسارعة إلى الخيرات من صفات الأنبياء؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ومن صفات أتباع الأنبياء؛ كما قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٦١]. والصلاة أفضل الخيرات، وأشرف العبادات، فتنبغي المسارعة في أدائها في أول أوقاتها؛ لقول النبي ﷺ، حين سئل: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**الصَّلَاةُ فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا**»(١)، إلا صلاة العشاء، فالسنة تأخيرها حتى يمضي ثلث الليل الأول، ما لم يترتب على ذلك مشقة أو نوم، أو تشاغل.

وقد جرى المؤلف على مذهب إمامه الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وجوب قراءة الفاتحة على كل مصلٍّ؛ إمامًا كان أو مأمومًا أو منفردًا، في كل صلاة؛ فرضًا كانت أو نفلًا، سريةً كانت أو جهرية، في كل ركعة من ركعات الصلاة. وهو الراجح من الأقوال؛ لعموم قول النبي ﷺ: «**لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ**»(٢). والخلاف في هذه المسألة مشهور مبسوط في كتب الفروع.



---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٢٧)، ومسلم رقم (٨٥)، وأبو داود رقم (٤٢٦)، واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٧٥٦)، ومسلم رقم (٣٩٤).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

❁ (ويأمرون بإتمام الركوع والسجود حتمًا واجبًا، ويعدون إتمام الركوع والسجود بالطمأنينة فيهما، والارتفاع من الركوع، والانتصاب منه، والطمأنينة فيه، وكذلك الارتفاع من السجود، والجلوس بين السجدتين، مطمئنين فيه، من أركان الصلاة التي لا تصح إلا بها).

الشَّرْح

الطمأنينة ركن من أركان الصلاة، لا تصح الصلاة إلا بتحقيقها في جميع أجزاء الصلاة؛ لحديث المسيء في صلاته؛ فعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ المَسْجِدَ، فَدَخَلَ رَجُلٌ، فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَرَدَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَقَالَ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**»، فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**»، ثَلَاثًا، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، فَمَا أُحْسِنُ غَيْرَهُ، فَعَلِّمْنِي، قَالَ: «**إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا**»[١].

وكأن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد التنبيه على وجوب الطمأنينة في الرفع من الركوع، وفي الجلسة بين السجدتين خاصة؛ لأن من الناس من ينقرهما نقرًا، ولا يكاد يستقر فيهما. فبين أن ذلك خلاف طريقة أهل الحديث المتبعين للسنة.

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٩٣)، ومسلم رقم (٣٩٧).

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

﴿ (ويتواصون بقيام الليل للصلاة بعد المنام، وبصلة الأرحام، وإفشاء السلام، وإطعام الطعام، والرحمة على الفقراء والمساكين والأيتام، والاهتمام بأمور المسلمين، والتعفف في المأكل والمشرب والمنكح والملبس، والسعي في الخيرات، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والبدار إلى فعل الخيرات أجمع، واتقاء سوء عاقبة الطمع، ويتواصون بالحق والصبر).

الشَّرْح

هذه جملة من الأعمال الصالحة، والقربات الفاضلة، التي زانت أهل السنة والجماعة، وهي هدي المرسلين، ودأب المؤمنين في كل جيل وقبيل؛ قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران: ١١٣ ـ ١١٥]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٣]، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٦١]، وقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: ١٧ ـ ١٩].

هذا وصفهم من حيث الجملة، أما تفاصيل هذه القرب والفضائل الخاصة والمتعدية، فلا يتسع له المقام. وهو دليل صريح على التلازم الوثيق بين الإيمان والعمل، وبطلان مقالة أهل الإرجاء. ومن قرأ في سير أعلام

النبلاء، وأئمة الهدى، من أهل السنة والجماعة، ظهر له ذلك جليًّا. وظهر له أيضًا زهادة أهل الأهواء في العمل الصالح، وانكبابهم على البدع، وقلة نفعهم للناس. فينبغي لطالب العلم أن يربي نفسه على سلوك سبيل المؤمنين، ومجافاة سبيل المجرمين.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(ويتحابون في الدين، ويتباغضون فيه، ويتقون الجدال في الله، والخصومات فيه، ويجانبون أهل البدع والضلالات، ويعادون أصحاب الأهواء والجهالات، ويقتدون بالنبي ﷺ وبأصحابه الذين هم كالنجوم؛ بأيهم اقتدوا اهتدوا، كما كان رسول الله ﷺ يقوله فيهم، ويقتدون بالسلف الصالحين؛ من أئمة الدين، وعلماء المسلمين، ويتمسكون بما كانوا به متمسكين من الدين المتين، والحق المبين).

الشَّرح

هذه الفقرة، والتي بعدها، تتعلق بمسألة الموالاة والمعاداة، والحب والبغض، وأن مبنى ذلك يكون على أساس الدين؛ لا النسب والقرابة، ولا الوطن والأرض. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦]، وقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]، وقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢]. وقال ﷺ: **«إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللهِ»**(١).

(١) أخرجه أحمد رقم (١٨٥٢٤).

فآصرة الدين أعظم الأواصر، فهكذا يجب أن يكون المسلمون؛ لا تفرقهم عنصريات، ولا قوميات، ولا انتماءات إقليمية، ولا جغرافية، ولا لسانية؛ بل يكون الجامع بينهم: دين الله؛ فيتحابون في روح الله، ويتعاونون على طاعة الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

ومن شأنهم وطريقتهم: الاقتداء والتأسي برسول الله ﷺ، ولزوم سبيل السابقين الأولين؛ قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

وأما الحديث الذي أشار إليه المصنف، من تشبيه أصحابه بالنجوم، فقد أخرجه ابن عبد البر رحمه الله، وقال: (هذا إسناد لا تقوم به حجة)، وضعفه غيره[(١)]. لكنه صحيح المعنى، فالصحابة الكرام كالنجوم في السماء، والجبال في الأرض في الهداية والتثبيت.



(١) انظر: «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٩٠، ٩١)، والسلسلة الضعيفة والموضوعة للألباني (١/ ٧٨ ـ ٨٤).

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

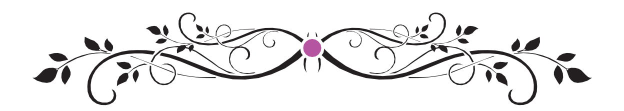
(ويبغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه، ولا يحبونهم، ولا يصحبونهم، ولا يسمعون كلامهم، ولا يجالسونهم، ولا يجادلونهم في الدين، ولا يناظرونهم. ويرون صون آذانهم عن سماع أباطيلهم التي إذا مرت بالآذان، وقرت في القلوب، ضرت، وجرَّت إليها من الوساوس والخطرات الفاسدة ما جرت. وفيه أنزل الله ﷻ قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨]).

الشَّرح

هذه طريقة أهل السنة في معاملة أهل البدع؛ مجافاتهم، ومجانبتهم، وعدم الإصغاء إليهم، وعدم مجالستهم، وعدم تمكينهم من نشر باطلهم؛ وفسح المجال لهم لنشر غثائهم بين الناس. وفي هذا المسلك إماتة لبدعتهم؛ فالدين بين، والحق واضح، ومن أراده وطلبه وجده، وما خالف ذلك وسواس الشياطين. قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ [النجم: ٢٩].

فعلى أهل الإسلام أن يتنبهوا لمسالك المبطلين، والملحدين، ومتبعي المتشابه، ولا يحتفوا بهم، أو يمكنوهم من اعتلاء المنابر الإعلامية، باسم «الحوار» و«الرأي الآخر»، وأمثال ذلك من المصطلحات المنحوتة لتمرير الباطل وتأنيسه.





علامات أهل البدع

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

(وعلامات البدع على أهلها بادية ظاهرة، وأظهر آياتهم وعلاماتهم: شدة معاداتهم لحملة أخبار النبي ﷺ، واحتقارهم لهم، واستخفافهم بهم، وتسميتهم إياهم: حشوية، وجهلة، وظاهرية، ومشبهة؛ اعتقادًا منهم في أخبار رسول الله ﷺ أنها بمعزل عن العلم، وأن العلم ما يلقيه الشيطان إليهم من نتائج عقولهم الفاسدة، ووساوس صدورهم المظلمة، وهواجس قلوبهم الخالية عن الخير، وكلماتهم وحججهم العاطلة؛ بل شبههم الداحضة الباطلة؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٣]، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨]).

(سمعت الحاكم أبا عبد الله الحافظ يقول: سمعت أبا علي الحسين بن علي الحافظ يقول: سمعت جعفر بن أحمد بن سنان الواسطي يقول: سمعت أحمد بن سنان القطان يقول: ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث، فإذا ابتدع الرجل نزعت حلاوة الحديث من قلبه[(١)]).

(وسمعت الحاكم يقول: سمعت أبا الحسين محمد بن أحمد الحنظلي ببغداد يقول: سمعت محمد بن إسماعيل الترمذي

---

(١) ذم الكلام وأهله، للهروي رقم (٢٢٩)، وشرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي (ص٧٣).

يقول: كنت أنا وأحمد بن الحسن الترمذي عند إمام الدين أبي عبد الله أحمد بن حنبل، فقال له أحمد بن الحسن: يا أبا عبد الله! ذكروا لابن أبي قتيلة بمكة أصحاب الحديث، فقال: أصحاب الحديث قوم سوء! فقام أحمد بن حنبل، وهو ينفض ثوبه، ويقول: زنديق! زنديق! حتى دخل البيت[(١)]).

ﷺ (وسمعت الحاكم أبا عبد الله يقول: سمعت أبا نصر أحمد بن سهل الفقيه ـ ببخارى ـ يقول: سمعت أبا نصر بن سلام الفقيه يقول: ليس شيء أثقل على أهل الإلحاد، ولا أبغض إليهم، من سماع الحديث، وروايته بإسناده[(٢)]).

ﷺ (وسمعت الحاكم يقول: سمعت الشيخ أبا بكر أحمد بن إسحاق بن أيوب الفقيه، وهو يناظر رجلًا، فقال الشيخ أبو بكر: حدثنا فلان، فقال له الرجل: دعنا من حدثنا! إلى متى حدثنا؟ فقال الشيخ له: قم يا كافر! فلا يحل لك أن تدخل داري بعد هذا أبدًا، ثم التفت إلينا وقال: ما قلت لأحد قط: لا تدخل داري، إلا هذا[(٣)]).

ﷺ سمعت الأستاذ أبا منصور محمد بن عبد الله حمشاد، العالم الزاهد، يقول: سمعت أبا القاسم جعفر بن أحمد المقري الرازي يقول: قُرِئَ على عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، وأنا أسمع: سمعت أبي ـ عنى به الإمام في بلده أباه أبا حاتم محمد بن إدريس الحنظلي ـ يقول: علامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر، وعلامة الزنادقة تسميتهم أهل الأثر حشوية؛ يريدون بذلك إبطال

---

(١) ذم الكلام وأهله، للهروي رقم (٢٣٢).
(٢) ذم الكلام وأهله، للهروي رقم (٢٣٢)، وشرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي (ص٧٣).
(٣) ذم الكلام وأهله، للهروي (٢٢٧).

الآثار، وعلامة القدرية تسميتهم أهل السنة مجبرة، وعلامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة، وعلامة الرافضة تسميتهم أهل الأثر نابتة، وناصبة. قلت: وكل ذلك عصبية، ولا يلحق أهل السنة إلا اسم واحد، وهو أصحاب الحديث[(١)]).

❁ (قلت: أنا رأيت أهل البدع في هذه الأسماء التي لقبوا بها أهل السنة، سلكوا معهم مسلك المشركين مع رسول الله ﷺ، فإنهم اقتسموا القول فيه؛ فسماه بعضهم ساحرًا، وبعضهم كاهنًا، وبعضهم شاعرًا، وبعضهم مجنونًا، وبعضهم مفتونًا، وبعضهم مفتريًا مختلقًا كذابًا، وكان النبي ﷺ من تلك المعائب بعيدًا بريئًا، ولم يكن إلا رسولًا مصطفى نبيًّا).

❁ (قال الله ﷻ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: ٤٨]).

❁ (كذلك المبتدعة ـ خذلهم الله ـ اقتسموا القول في حملة أخباره، ونقلة آثاره، ورواة أحاديثه، المقتدين بسنته، فسماهم بعضهم حشوية، وبعضهم مشبهة، وبعضهم نابتة، وبعضهم ناصبة، وبعضهم جبرية).

❁ (وأصحاب الحديث عصامة من هذه المعائب، برية، نقية، زكية، تقية، وليسوا إلا أهل السنة المُضيَّة، والسيرة المرضية، والسبل السوية، والحجج البالغة القوية، قد وفقهم الله ﷻ لاتباع كتابه، ووحيه وخطابه، والاقتداء برسوله ﷺ في أخباره التي أمر فيها أمته بالمعروف من القول والعمل، وزجرهم فيها عن المنكر منها، وأعانهم على التمسك بسيرته، والاهتداء بملازمة سنته، وشرح

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة رقم (٣٢١).

صدورهم لمحبته، ومحبة أئمة شريعته، وعلماء أمته. ومن أحب قومًا فهو معهم يوم القيامة؛ بحكم قول رسول الله ﷺ: «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»[(١)]).

الشَّرْح

هذه أبرز علامات أهل البدع، وهي نبز أهل الحق بألقاب السوء؛ لينفروا الناس منهم؛ فيصفونهم بأنهم «حشوية»؛ أي: أن كلامهم حشو ليس تحته شيء! و«جهلة» لا يحسنون المنطق وعلم الكلام! و«ظاهرية» يجمدون على ظواهر النصوص! و«مشبهة» يشبهون الله بصفات المخلوقين، وسمات المحدثين! كبرت كلمةً تخرج من أفواههم؛ ولعمر الله! إنهم أولى بالذم واللوم، ويصدق فيهم قول القائل: «رمتني بدائها وانسلت».

ولا غرابة في هذا، فقد أخبر الله عن أسلافهم، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]؛ فلم يزل في الناس من يعادي أتباع الأنبياء؛ كما عودي الأنبياء أنفسهم.

ومآل حال هؤلاء المحجوبين المعجبين بما أوتوا، الندم والخسران، كما أفصح عن ذلك غير واحدٍ منهم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في معرض رده على من زعم أن «طريقة الخلف أعلم وأحكم»: (والإشارة بالخلف إلى ضرب من المتكلمين؛ الذين كثر في باب الدين اضطرابهم، وغلظ عن معرفة الله حجابهم، وأخبر الواقف على نهايات إقدامهم بما انتهى إليه من مرامهم حيث يقول:

لعمري لقد طفتُ المعاهدَ كلَّها ... وسَيَّرتُ طَرْفي بين تلك المعالِمِ
فلم أرَ إلا واضعًا كفَّ حائرٍ ... على ذقَنٍ أو قارعًا سِنَّ نادمِ

وأقروا على نفوسهم بما قالوه متمثلين به أو منشئين له فيما صنفوه من كتبهم؛ كقول بعض رؤسائهم:

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦١٦٨)، ومسلم رقم (٢٦٤٠).

نهاية إقدام العقول عقالُ ... وأكثر سعي العالمين ضلالُ
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وغاية دنيانا أذى ووبالُ
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن. أقرأُ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، وأقرأُ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ۝١١٠﴾ [طه: ١١٠]، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

ويقول الآخر منهم: لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم، وخضت في الذي نهوني عنه، والآن، إن لم يتداركني ربي برحمة منه، فالويل لفلان، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي.

ويقول الآخر منهم: أكثر الناس شكًّا عند الموت أصحاب الكلام)[١].



(١) الفتوى الحموية الكبرى (ص١٩١ ـ ١٩٥).



من علامات أهل السنة

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

۞ (وإحدى علامات أهل السنة: حبهم لأئمة السنة وعلمائها وأنصارها وأوليائها، وبغضهم لأئمة البدع الذين يدعون إلى النار، ويدلون أصحابهم على دار البوار، وقد زين الله سبحانه قلوب أهل السنة ونورها بحب علماء السنة فضلًا منه جَلَّ جَلَالُهُ ومنة).

۞ (أخبرنا الحاكم أبو عبد الله الحافظ، أسكنه الله وإيانا الجنة، قال: حدثنا محمد بن إبراهيم بن الفضل المزكى قال: حدثنا أحمد بن سلمة، قرأ علينا أبو رجاء قتيبة بن سعيد «كتاب الإيمان» له، فكان في آخره: «فإذا رأيت الرجل يحب سفيان الثوري، ومالك بن أنس، والأوزاعي، وشعبة، وابن المبارك، وأبا الأحوص، وشريكًا، ووكيعًا، ويحيى بن سعيد، وعبد الرحمن بن مهدي، فاعلم أنه صاحب سنة»[(١)]).

۞ (قال أحمد بن سلمة رَحِمَهُ اللَّهُ، فألحقت بخطي تحته، ويحيى بن يحيى: وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه. فلما انتهى إلى هذا الموضع، نظر إلينا أهل نيسابور، وقال: هؤلاء القوم يتعصبون ليحيى بن يحيى، فقلنا له: يا أبا رجاء! ما يحيى بن يحيى؟ قال: رجل صالح إمام المسلمين، وإسحاق بن إبراهيم إمام، وأحمد بن حنبل أكبر من سميتهم كلهم).

(١) شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي (ص٧١، ٧٢).

❁ (وأنا ألحقت بهؤلاء الذين ذكرهم قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ، أن من أحبهم فهو صاحب سنة، من أئمة أهل الحديث الذين بهم يقتدون وبهديهم يهتدون، ومن جملتهم ومتبعيهم وشيعتهم أنفسهم يُعدُّون، وفي اتباعهم آثارهم يجِدُّون جماعة آخرين، منهم: محمد بن إدريس الشافعي المطلبي، الإمام المقدم، والسيد المعظم، العظيم المنة على أهل الإسلام والسنة، الموفق الملقن الملهم المسدد، الذي عمل في دين الله، وسنة رسوله ﷺ، من النصر لهما، والذب عنهما، ما لم يعمله أحد من علماء عصره ومن بعدهم).

❁ (ومنهم الذين كانوا قبل الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: كسعيد بن جبير، والزهري، والشعبي، والتيمي، ومن بعدهم: كالليث بن سعد، والأوزاعي، والثوري، وسفيان بن عيينة الهلالي، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد، ويونس بن عبيد، وأيوب، وابن عون، ونظرائهم).

❁ (ومن بعدهم: مثل يزيد بن هارون، وعبد الرزاق، وجرير بن عبد الحميد. ومن بعدهم: مثل محمد بن يحيى الذهلي، ومحمد بن إسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجاج القشيري، وأبي داود السجستاني، وأبي زرعة الرازي، وأبي حاتم، وابنه، ومحمد بن مسلم بن واره، ومحمد بن أسلم الطوسي، وعثمان بن سعيد الدارمي، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة، الذي كان يدعى: إمام الأئمة، ولعمري، كان إمام الأئمة في عصره ووقته، وأبي يعقوب إسحاق بن إسماعيل البستي، وجدي ـ من قبل أبويَّ ـ أبي سعيد يحيى بن منصور الزاهد الهروي، وعدي بن حمدويه الصابوني، وولديه سيفي السنة أبي عبد الله الصابوني، وأبي عبد الرحمن

الصابوني، وغيرهم من أئمة السنة الذين كانوا متمسكين بها ناصرين لها داعين إليها دالين عليها).

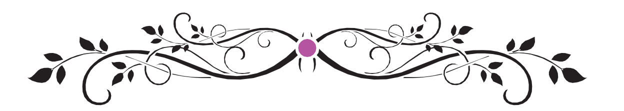
الشَّرح

هذه الأسماء التي مرت شموس، ونجوم، وأقمار في سماء الإسلام؛ أئمة هدى، ومصابيح دجى، حفظ الله بهم الملة، ونصر بهم السنة؛ تمسكوا بالكتاب ومسَّكوا به، سمعوا الحديث ووعوه، وأدوه إلى من بعدهم؛ كما قال نبينا ﷺ: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**»(١). وقد نقل المصنف عمن سبقه، وألحق بهم، ما عدته أربعةٌ وأربعين علمًا ـ بحذف المكرر ـ هم سلاسل الذهب، وجبال الحفظ، ونجوم المهتدين. فمحبتهم علامة السنة، ودليل الاستقامة.

ولم تزل أمة الإسلام ولَّادة لهؤلاء النجباء، من الأبدال المجددين، والهداة المهتدين، ممن حفظ الله بهم حوزة الدين، لم ينقطع سندهم، ولم ينكر متنهم؛ لأنهم بكتاب الله معتصمين، وبسنته عاملين، وإلى لزومها داعين. فالواجب على من بعدهم أن يترحموا عليهم، ويترضوا عنهم، ويدعوا لهم قائلين: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر: ١٠].



(١) أخرجه الترمذي رقم (٢٦٥٧)، والدارمي رقم (٢٣٦).



خاتمة

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

۞ (وهذه الجمل التي أثبتُّها في هذا الجزء كانت معتقد جميعهم، لم يخالف فيها بعضهم؛ بل أجمعوا عليها كلها، واتفقوا مع ذلك على القول بقهر أهل البدع، وإذلالهم وإخزائهم وإبعادهم، وإقصائهم، والتباعد منهم، ومن مصاحبتهم، ومعاشرتهم، والتقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ بمجانبتهم ومهاجرتهم).

۞ (قال الأستاذ الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ: وأنا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ متبع لآثارهم، مستضيء بأنوارهم، ناصح لإخواني وأصحابي أن لا يزيغوا عن منارهم، ولا يتبعوا غير أقوالهم، ولا يشتغلوا بهذه المحدثات من البدع، التي اشتهرت فيما بين المسلمين، وظهرت وانتشرت، ولو جرت واحدة منها على لسان واحد في عصر أولئك الأئمة لهجروه، وبدَّعوه، ولكذبوه، وأصابوه بكل سوء ومكروه).

۞ ولا يغرّنَّ إخواني ـ حفظهم الله ـ كثرة أهل البدع، ووفور عددهم، فإن ذلك من أمارات اقتراب الساعة؛ إذ الرسول المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن من علامات الساعة واقترابها: أن يقل العلم ويكثر الجهل**»[(١)]، والعلم: هو السنة، والجهل: هو البدعة.

۞ ومن تمسك اليوم بسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وعمل بها،

(١) أخرجه البخاري رقم (٨١)، ومسلم رقم (٥٢٣١).

واستقام عليها، ودعا بالسنة إليها، كان أجره أوفر وأكثر من أجر من جرى على هذا الجملة في أوائل الإسلام والملة؛ إذ الرسول المصطفى ﷺ قال: «**له أجر خمسين**»، فقيل: خمسين منهم؟ قال: «**بل منكم**»[(١)]، وإنما قال ﷺ ذلك لمن يعمل بسنته عند فساد أمته.

(قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وجدت في كتاب الشيخ الإمام جدي أبي عبد الله محمد بن عدي بن حمدويه الصابوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: أخبرنا أبو العباس الحسن بن سفيان النسوي، أن العباس بن صبيح حدثهم، قال: حدثنا عبد الجبار بن مظاهر، قال: حدثني معمر بن راشد، قال: سمعت ابن شهاب الزهري يقول: تعليم سنَّة أفضل من عبادة مائتي سنة)[(٢)].

(أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن زكريا الشيباني، قال: أخبرنا أبو العباس محمد بن عبد الرحمن الدغولي، قال: سمعت محمد بن حاتم المظفري يقول: سمعت عمر بن محمد يقول: كان أبو معاوية الضرير يحدث هارون الرشيد، فحدثه بحديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**احتج آدم وموسى**»[(٣)]، فقال عيسى بن جعفر: كيف هذا، وبين وآدم وموسى ما بينهما؟! قال: فوثب به هارون، وقال: يحدثك عن الرسول ﷺ وتعارضه بكيف! قال: فما زال يقول حتى سكن عنه[(٤)]، قال: هكذا ينبغي للمرء أن يعظم أخبار رسول الله ﷺ، ويقابلها بالقبول والتسليم والتصديق، وينكر أشد الإنكار على من يسلك فيها غير هذا الطريق الذي سلكه هارون

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير رقم (١٠٣٩٤).
(٢) ذم الكلام، للهروي رقم (٨٤٣).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٣٤٠٩)، ومسلم رقم (٢٦٥٢).
(٤) سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٨٩).

الرشيد رَحِمَهُ اللَّهُ مع من اعترض على الخبر الصحيح الذي سمعه، بكيف؟! على طريق الإنكار والاستبعاد له، ولم يتلقه بالقبول كما يجب أن يتلقى جميع ما يرد من الرسول ﷺ).

(جعلنا الله سبحانه من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ويتمسكون في دنياهم مدة محياهم بالكتاب والسنة، وجنبنا الأهواء المضلة، والآراء المضمحلة، والأسواء[1] المذلة، فضلًا منه ومنة).

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم).

الشَّرْح

تضمنت هذه الخاتمة أمورًا عدة:

أحدها: بيان إجماع أئمة الحديث والسنة، وسلف الأمة على جميع ما تضمنته من عقائد، وعدم خلافهم في شيء منها.

الثاني: اتفاقهم على منابذة أهل البدع وقهرهم ومجانبتهم، والتحذير منهم.

الثالث: إعلان المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ سيره على طريقة أئمة الحديث، وسلف الأمة، ونصحه لأصحابه بلزومها، وتحذيرهم من الزيغ عنها.

الرابع: عدم الاغترار بكثرة أهل البدع، وأن ذلك من أمارات الساعة المعلومة.

الخامس: فضيلة من تمسك بالسنة المحضة، وعمل بها، ولزمها، ودعا إليها، عند فساد الناس، وفشو البدعة، وعظيم ثوابه.

وقد ختم كتابه بوجادة «زهرية» في كتاب جدة، في فضل تعليم السنة، وقصة

(١) وفي بعض النسخ: (والأهواء).

بديعة لأمير المؤمنين هارون الرشيد رَحِمَهُ اللَّهُ في تعظيمها، والإنكار على منكرها.

فجزى الله أبا عثمان، إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني، خير الجزاء، ورحمه رحمة واسعة، على ما أودع في كتابه هذا من العلوم النافعة، والهدايات الواضحة، التي تدور على التمسك بكتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، والاعتصام بهما، وتحقيق العقيدة الصحيحة الصافية التي يجب أن ينطوي عليها قلب كل مؤمن. فعلينا معشر المؤمنين أن نحرص على العلم النافع، والعمل الصالح، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله بالحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وألا نغتر بالدعاوى المزوقة، والأفكار المضلة، والقيل والقال، وأن نعتصم بكتاب ربنا، وسنة نبينا ﷺ، ففيهما الغنية والكفاية، والحجة عند الله تعالى. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.



فهرس المراجع

١ ـ **الإبانة الكبرى لابن بطة** المؤلف: أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري، المعروف بابن بَطَّة العكبري (المتوفى: ٣٨٧هـ)، المحقق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، الناشر: دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.

٢ ـ **اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية**، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: زائد بن أحمد النشيري، الناشر: دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٣١هـ.

٣ ـ **اختصره:** محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان البعلي شمس الدين، ابن الموصلي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث، القاهرة ـ مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١.

٤ ـ **آداب الشافعي ومناقبه**، المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي، ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، كتب كلمة عنه: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، قدم له وحقق أصله وعلق عليه: عبد الغني عبد الخالق، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٥ ـ **الاستقامة**، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: د. محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ، عدد الأجزاء: ٢.

٦ ـ **الأسماء والصفات للبيهقي**، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله بن محمد الحاشدي، قدم له: فضيلة الشيخ مقبل بن هادي الوادعي، الناشر: مكتبة السوادي، جدة ـ المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م، عدد الأجزاء: ٢.

٧ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ، عدد الأجزاء: ٨.

٨ ـ **أصول السنة**، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، الناشر: دار المنار، الخرج ـ السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ، عدد الأجزاء: ١.

٩ ـ **اعتقاد أهل السنة والجماعة للإسماعيلي**، المحقق: د. جمال عزون، الناشر: دار المنهاج.

١٠ ـ **الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث**، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: أحمد عصام الكاتب، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠١هـ، عدد الأجزاء: ١.

١١ ـ **تاريخ الخلفاء**، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: حمدي الدمرداش، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م، عدد الأجزاء: ١.

١٢ ـ **تاريخ بغداد**، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م، عدد الأجزاء: ١٦.

١٣ ـ **تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف**، المؤلف: جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزي (المتوفى: ٧٤٢هـ)، المحقق: عبد الصمد شرف الدين. الناشر: المكتب الإسلامي، والدار القيّمة، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

١٤ ـ **تعظيم قدر الصلاة**، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي (المتوفى: ٢٩٤هـ)، المحقق: د. عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، الناشر: مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ.

١٥ ـ **تفسير القرآن العظيم**، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

١٦ ـ **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، الناشر: دار ابن الجوزي.

١٧ ـ **جامع البيان في تأويل القرآن**، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ٢٤.

١٨ ـ **جامع الرسائل**، المؤلف: تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: د. محمد رشاد سالم، الناشر: دار العطاء، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ٢.

١٩ ـ **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري**، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٠ ـ **جامع بيان العلم وفضله:** المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: أبو الأشبال الزهيري، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م، عدد الأجزاء: ٢.

٢١ ـ **الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي**، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، المحقق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

٢٢ ـ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: دار السعادة، بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

٢٣ ـ **خلق أفعال العباد**، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، المحقق: د. عبد الرحمن عميرة، الناشر: دار المعارف، الرياض ـ السعودية، عدد الأجزاء: ١.

٢٤ ـ **درء تعارض العقل والنقل**، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: الدكتور محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٢٥ ـ **ذم الكلام وأهله**، المؤلف: أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي (المتوفى: ٤٨١هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن عبد العزيز الشبل، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٦ ـ **الرد على الجهمية**، المؤلف: عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد أبو سعيد الدارمي، المحقق: بدر بن عبد الله البدر، الناشر: دار ابن الأثير، الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥.

٢٧ ـ **الرد على الجهمية**، المؤلف: أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي السجستاني (المتوفى: ٢٨٠هـ)، المحقق: بدر بن عبد الله البدر، الناشر: دار ابن الأثير، الكويت، الطبعة: الثانية، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٨ ـ **السلسلة الصحيحة**، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض.

٢٩ ـ **السلسلة الضعيفة**، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، عدد الأجزاء: ١١.

٣٠ ـ **السنة**، المؤلف: أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانيّ البغدادي (المتوفى: ٢٩٠هـ)، المحقق: د. محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، الناشر: دار ابن القيم، الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٣١ ـ **سنن ابن ماجه**، المؤلف: ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجه اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية ـ فيصل عيسى البابي الحلبي.

٣٢ ـ **السنن الكبرى**، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٣٣ ـ **سير أعلام النبلاء**، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٣٤ ـ **السيرة النبوية لابن هشام**، المؤلف: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ)، المحقق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م، عدد الأجزاء: ٢.

٣٥ ـ **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة**، المؤلف: أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي (المتوفى: ٤١٨هـ)، المحقق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، الناشر: دار طيبة، السعودية الطبعة: الثامنة، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

٣٦ ـ **شرح السنة**، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٦هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط ـ محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي ـ دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م. عدد الأجزاء: ١٥.

٣٧ ـ **شرح العقيدة الطحاوية**، المؤلف: صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (المتوفى: ٧٩٢هـ)، المحقق: جماعة من العلماء، تخريج: ناصر الدين الألباني، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر التوزيع والترجمة (عن مطبوعة المكتب الإسلامي)، الطبعة: الطبعة المصرية الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٨ ـ **شرح العقيدة الطحاوية**، المؤلف: صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (المتوفى: ٧٩٢هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط، وعبد الله بن المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: العاشرة، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م، عدد الأجزاء: ٢.

٣٩ ـ **شرح حديث النزول**، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الخامسة، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

٤٠ ـ **شرف أصحاب الحديث**، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: د. محمد سعيد خطي أبوغلي، الناشر: دار إحياء السنة النبوية، أنقرة.

٤١ ـ **الشريعة**، المؤلف: أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: د. عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، الناشر: دار الوطن، الرياض ـ السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٤٢ ـ **شعب الإيمان**، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: د. عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي ـ الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

٤٣ ـ **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م، عدد الأجزاء: ١.

٤٤ ـ **صريح السنة**، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: بدر يوسف المعتوق، الناشر: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ.

٤٥ ـ **الصلاة وحكم تاركها وسياق صلاة النبي من حين كان يكبر إلى أن يفرغ منها**، المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، أبو عبد الله ابن القيم الجوزية، المحقق: تيسير زعيتر.

٤٦ ـ **الضعفاء الكبير**، المؤلف: أبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي المكي (المتوفى: ٣٢٢هـ)، المحقق: عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: دار المكتبة العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، عدد الأجزاء: ٤.

٤٧ ـ **ضعيف موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان**، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض ـ المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م، عدد الأجزاء: ١.

٤٨ ـ **طبقات الشافعية الكبرى**، المؤلف: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (المتوفى: ٧٧١هـ)، المحقق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ.

٤٩ ـ **العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها**، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، الناشر: مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م، عدد الأجزاء: ١.

٥٠ ـ **فتاوى السبكي**، المؤلف: أبو الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (المتوفى: ٧٥٦هـ)، الناشر: دار المعارف، عدد الأجزاء: ٢.

٥١ ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٥٢ ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَّلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، مكتبة الغرباء الأثرية ـ المدينة النبوية، الحقوق: مكتب تحقيق دار الحرمين ـ القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

٥٣ ـ **كتاب الإيمان**، المؤلف: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ)، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: الثانية، ١٩٨٣م.

٥٤ ـ **كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب ﷻ**، المؤلف: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (المتوفى: ٣١١هـ)، المحقق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض ـ السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م، عدد الأجزاء: ٢.

٥٥ ـ **كتاب النزول**، المؤلف: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ)، المحقق: علي بن محمد بن ناصر الفقيهي.

٥٦ ـ **كتاب شرح الصاوي على جوهرة التوحيد**، المؤلف: الإمام الشيخ أحمد بن محمد المالكي الصاوي (المتوفى: ١٢٤١هـ) تحقيق وتعليق: الدكتور عبد الفتاح البزم.

٥٧ ـ **مَجْمَعُ الزَّوَائِدِ وَمَنْبَعُ الفَوَائِدِ**، المؤلف: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، حَقَّقَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ: حسين سليم أسد الدّاراني، الناشر: دَارُ المَأْمُون لِلتُّرَاثِ، عدد الأجزاء: ٢.

٥٨ ـ **مجموع الفتاوى**، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية ـ المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٥٩ ـ **مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي**، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَّلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، المحقق: أبو مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، الناشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر.

٦٠ ـ **مختار الصحاح**، المؤلف: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية ـ الدار النموذجية، بيروت ـ صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ١.

٦١ ـ **مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**، مؤلف الأصل: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ).

٦٢ ـ **مختصر العلو للعلي العظيم للذهبي**، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، حققه واختصره: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي.

٦٣ ـ **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

٦٤ ـ **المستدرك على الصحيحين**، المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، المحقق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

٦٥ ـ **مسند أبي داود الطيالسي**، المؤلف: أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصري (المتوفى: ٢٠٤هـ)، المحقق: د. محمد بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ٤.

٦٦ ـ **مسند أبي يعلى**، المؤلف: أبو يعلى أحمد بن علي بن المُثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (المتوفى: ٣٠٧هـ)، المحقق: حسين سليم أسد، الناشر: دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، عدد الأجزاء: ١٣.

٦٧ ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، وآخرون، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة.

٦٨ ـ **مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار**، المؤلف: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (المتوفى: ٢٩٢هـ)، المحقق: محفوظ الرحمن زين الله (حقق الأجزاء من ١ إلى ٩)، وعادل بن سعد (حقق الأجزاء من ١٠ إلى ١٧)، وصبري عبد الخالق الشافعي (حقق الجزء ١٨)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م)، عدد الأجزاء: ١٨.

٦٩ ـ **مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)**، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (المتوفى: ٢٥٥هـ)، المحقق: حسين سليم أسد الداراني، الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ ـ ٢٠٠٠م.

٧٠ ـ **مسند الشهاب**، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري (المتوفى: ٤٥٤هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م، عدد الأجزاء: ٢.

٧١ ـ **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ**، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٧٢ ـ **المصنف**، المؤلف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١هـ)، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي ـ الهند، يطلب من: المكتب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ، عدد الأجزاء: ١١.

٧٣ ـ **معجم البلدان**، المؤلف: ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله، الناشر: دار الفكر، بيروت، عدد الأجزاء: ٥.

٧٤ ـ **المعجم الكبير**، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة: الثانية.

٧٥ ـ **معجم مقاييس اللغة**، المؤلف: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م، عدد الأجزاء: ٦.

٧٦ ـ **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م. عدد المجلدات: ٩.

٧٧ ـ **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان. الطبعة: الأولى، ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م، عدد الأجزاء: ٤.

٧٨ ـ **نَقْضُ الإِمَامِ أَبِي سَعِيدٍ عُثْمَانَ بْنِ سَعِيدٍ عَلَى المَرِيْسِيِّ الْجَهْمِيِّ العَنِيدِ فِيْمَا افْتَرَىَ عَلَى اللهِ ﷻ مِنَ التَّوْحِيدِ**، المؤلف: أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي السجستاني (المتوفى: ٢٨٠هـ)، المحقق: أَبُوُ عَاصِم الشَّوَامِيُّ الأَثْري، الناشر: المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، القاهرة ـ مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة